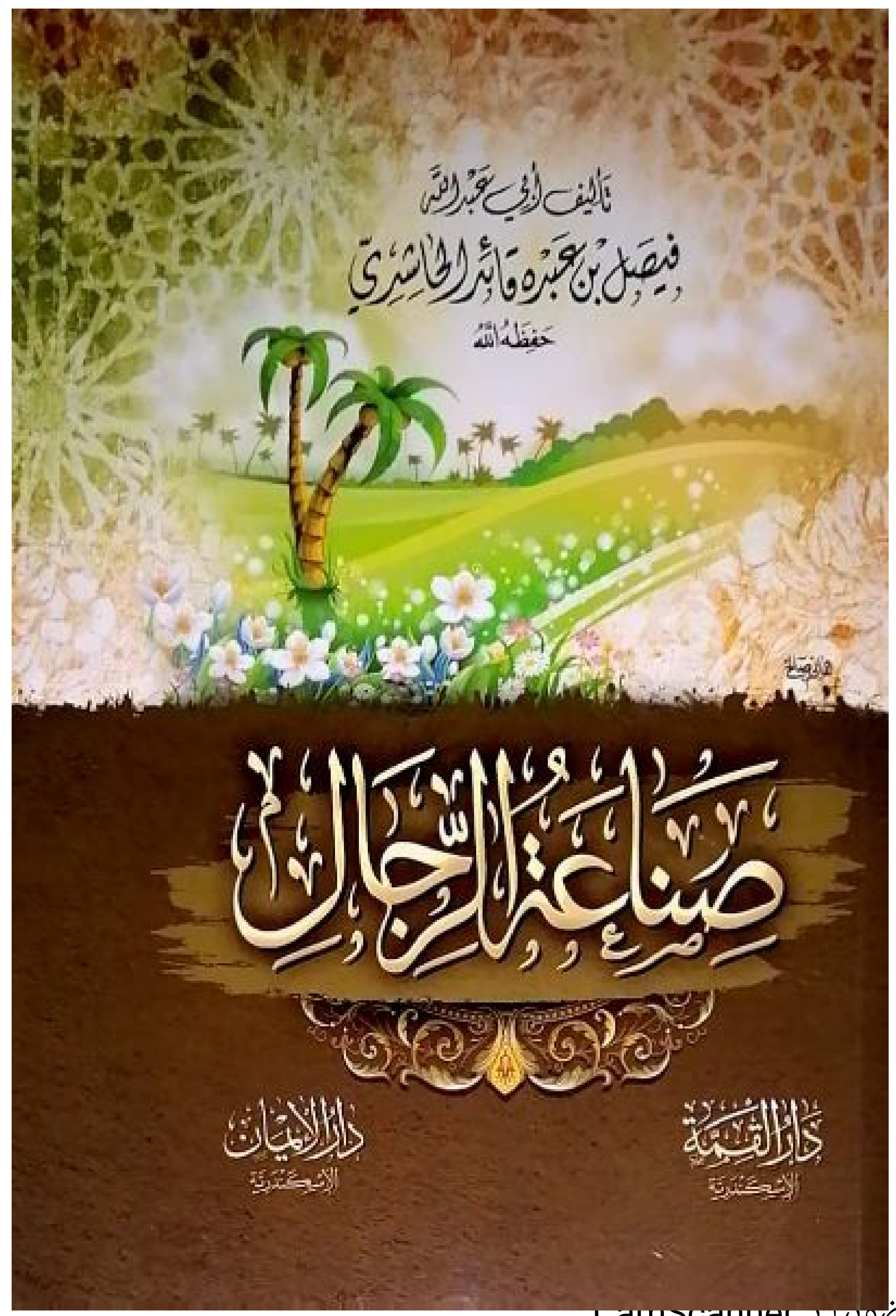


تأليف أبي عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي
حفظه الله
صناعة الرجال
دار القمة
الإسكندرية
دار الإيمان
الإسكندرية



تأليف أبي عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه







اسم الكتاب: صناعة الرجال

تأليف فضيلة الشيخ: فيصل الحاشدي

رقم الإيداع: ٩٩٧٨ /٢٠٢١.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ١٧٢.

القياس: ١٧X٢٤.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ عادل السلماني -

٢٠٢١



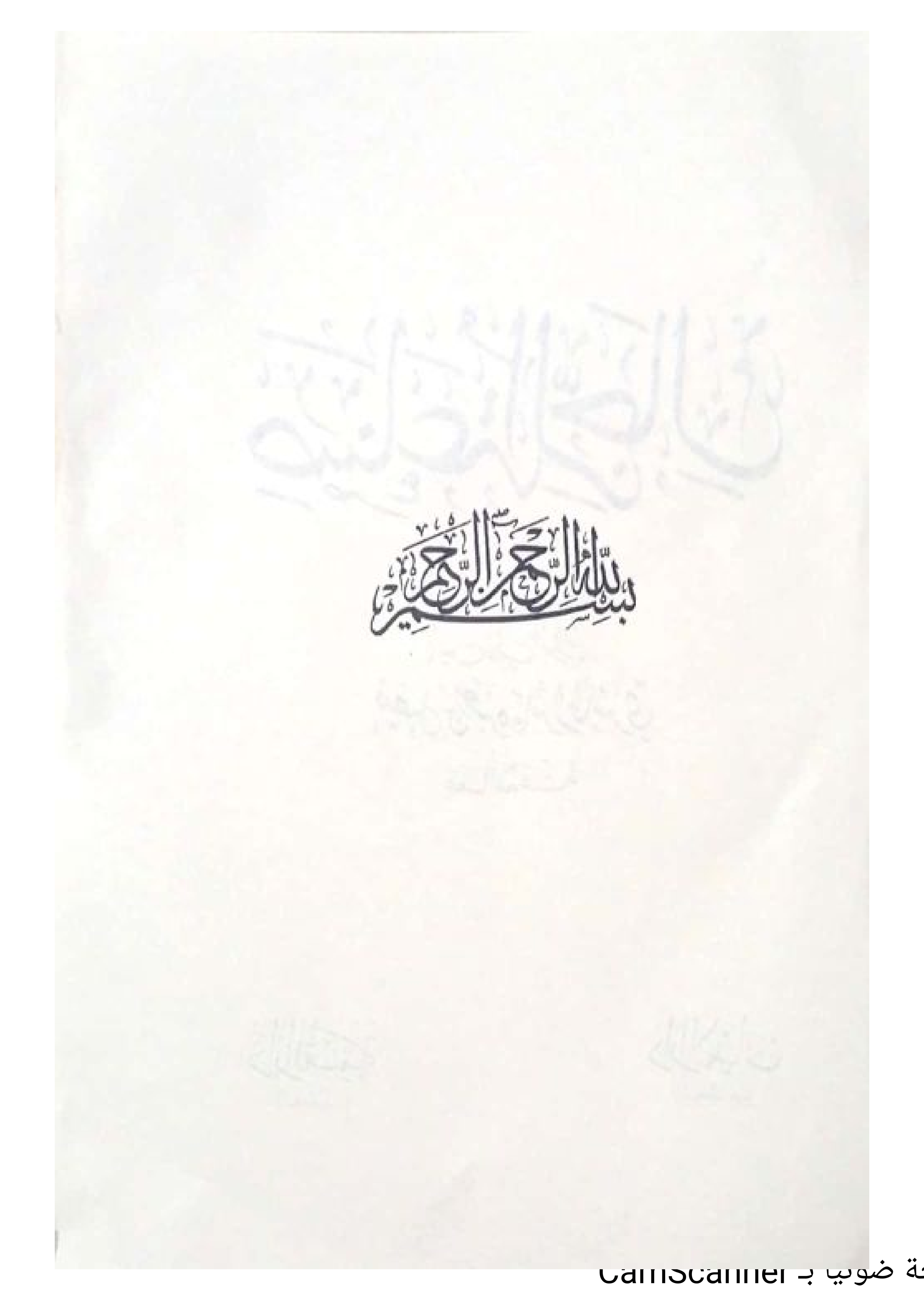
فرعنا في الجمهورية اليمنية

دار الإيمان المتحدة

أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة

مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار

جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المُرْسَلِين، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

أما بعدُ:

وريحانُ النباتِ يعيشُ يومًا ... وليسَ يموتُ ريحانُ المَقالِ

فيا أيُّها الرَّجُلُ بينَ يديك «صناعةُ الرجالِ».

ذكرتُ فيهِ الرجولةَ وسماتِها وحاجَةَ الأمةِ لها، ثم عَرَّجْتُ علىٰ ذِكْرِ قُوَّةِ الشخصيةِ بعيونِ أربابِها وعَرَضْتُ أَهَمَّ قواعِدِها في شَخْصِ نبيِّنا ﷺ فإذا هي بضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا، وبَيَّنْتُ أنَّ قُوَّةَ الشخصيةِ يقابلُها الرجولةُ الحَقَّةُ، ودَلَّلْتُ علىٰ ذلكَ، ثم ذكرتُ أسبابَ اكتسابِ الرجولةِ، وخَتَمْتُ بذكرِ أسبابِ تَنْمِيَةِ رُجولةِ الأطفالِ.

ومن فَضْلِ الله – ولَهُ الحَمْدُ – لم أُلَطِّخْ كتابي بذكر إنسانٍ من أهلِ الكفرِ باللهِ كميزانٍ للرجولةِ – معاذَ اللهِ – وأينَ الرجولةُ مِمَّنْ وصَفَهُمُ اللهُ – العليمُ الخبيرُ – بقولِهِ: {أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦} [البينة: ٦]؟!

وحاولتُ جاهدًا تقليلَ الفُضُولِ، وتشذيبَ أطرافِ الفصُولِ، ولم أَتَّبِعْ شُجُونَ الأحاديثِ – وللحديثِ شُجُونٌ – فجاء الكتابُ من أصْغَرِ الدواوينِ حجمًا، ولكنَّهُ

كُنيفٌ مُليءَ عِلمًا(١).

فإنْ أَصَبْتُ فمِنْ توفيقِ اللهِ ولَهُ الحمدُ وَحْدَهُ وإنْ كانتْ الثانيةُ فأستغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه(٢).

فدونَكَ:

فوائدُ قد أتتْكَ على ارتجالٍ	سَتَلْبَثُ بهنَّ ألبابَ الرجالِ
فإنْ أنشدتُها يومًا بحفلٍ	ملأتْ بها السجالَ إلى السِّجالِ

وكَتَبَه

أبو عبد اللهِ

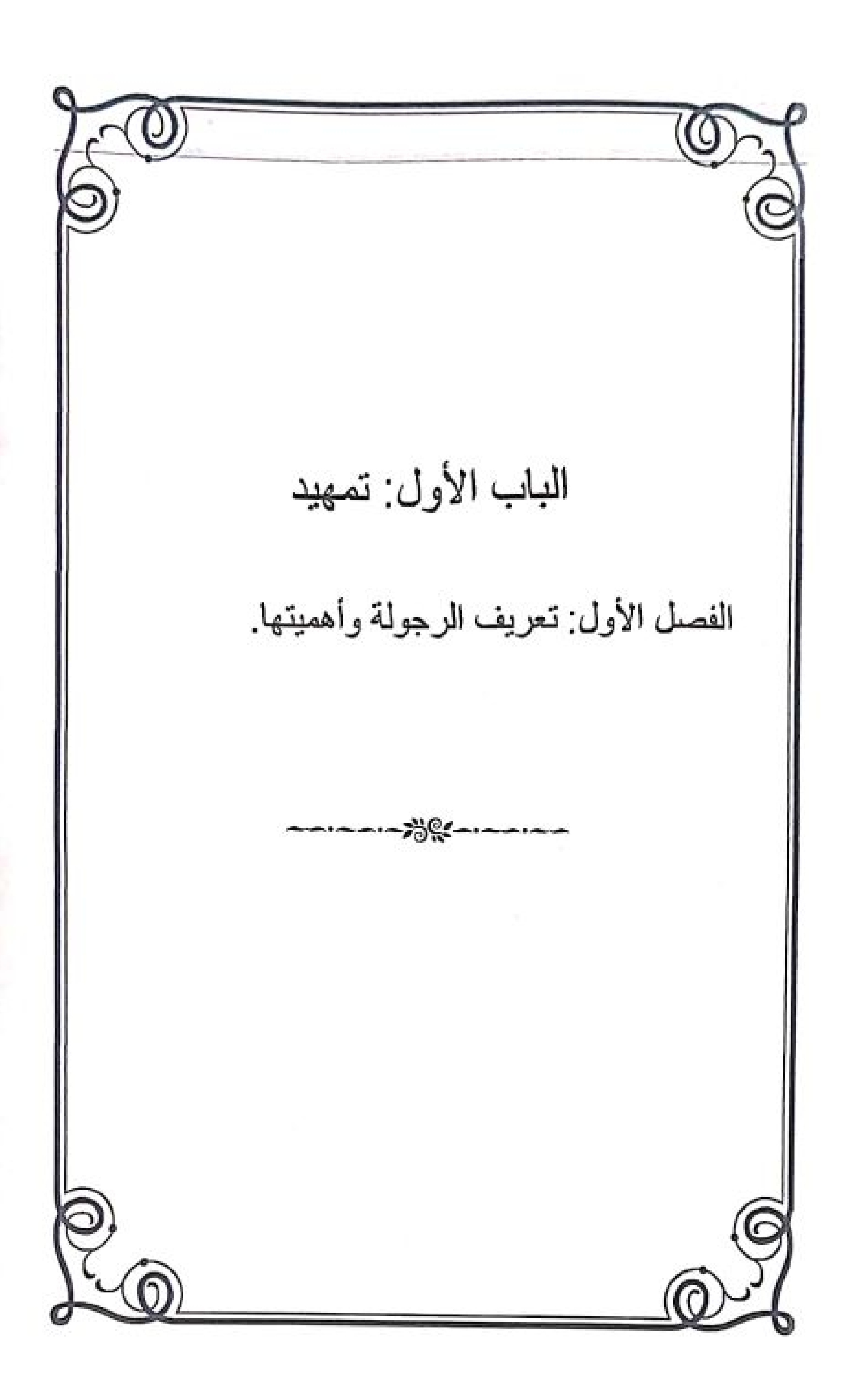
فيصلُ الحاشديُّ

مكةُ ٣٠/ ١١/ ١٤٤٠

---

(١) «كنيفٌ» تصغيرُ كَنَفٍ: وعاءُ الراعي يَجْعَلُ فيه آلتَهُ. قال عمرُ بنُ الخطابِ في ابنِ مسعودٍ رضي الله عنهما: «كنيفٌ مُلِيءَ عِلْمًا»، أي: أنَّهُ وعاءُ علمٍ، والتصغيرُ هنا للتعظيم.
انظر: المستدركَ، (٣/ ٣١٨) وصحَّحَهُ الحاكِمُ علىٰ شَرْطِ الشيخين، وأقرَّه الذَّهبِيُّ، ووافَقَهما الألبانيُّ في «الإرواء» (٧/ ٢٨٠).

(٢) هنا تنبيه وهذا ما ذكرته في بعض الحواشي بقولي قاله أستاذنا فالمقصود عبد الكريم بن محمد العماد - حَفِظَهُ اللهُ -.



الباب الأول: تمهيد

الفصل الأول: تعريف الرجولة وأهميتها.

الرجولة في اللغة

أحكمتْ من لغةِ البيانِ أصولَها ... وجمالِ أسلوبٍ أغرَّ مُبينِ[١]

الرجولةُ تَدُلُّ بأصْلِ وَضْعِها في اللغةِ علىٰ طائفةٍ كبيرةٍ من المعاني، غيرِ الذكورةِ المُقابلةِ للأنوثةِ في بني الإنسانِ، تقولُ العَرَبُ في المُفَاضَلَةِ بين الاثنينِ وتفوُّقِ أحَدِهما علىٰ صاحِبِهِ: أَرْجَلُ الرَّجُلَيْنِ، وهذا أرْجَلُ الرَّجُلين أي: أشدُّهما، أو فيه رجليةٌ ليسَتْ في الآخَرِ[٢].

وللدلالةِ علىٰ القدرةِ علىٰ التَّصَدِّي للأحداثِ: رَجُلِ الساعةِ، وفي ختامِ المباهاةِ بالشَّرَفِ والثناءِ تقولُ: هو من رجالاتِ قومِهِ.

فالرجولةُ وَصْفٌ اتَّفَقَ العقلاءُ علىٰ مَدْحِهِ والثناءِ عليه، ويكفيكَ إنْ كُنْتَ مادحًا أنْ تَصِفَ إنسانًا بالرجولةِ، أو أنْ تنفِيَها عنه لتبلغَ الغاية في الذَّمِّ.

ومن هنا يمكنُ تعريفُ الرَّجولةِ بأنَّها اتصافُ المَرْءِ بما يتَّصِفُ به الرَّجُلُ عادةً.

لغةُ الفنِّ أنتِ والسحرِ والشِّعْـ ... ـرِ ونُورُ الْحِجَا وَوَحْيُ الْجَنانِ

رُبَّ جَيْشٍ من الْحَديدِ تَوَلَّى ... واجِفَ القلبِ مِن حَديدِ اللِّسانِ

وبيَانٍ بَنَى لِصاحِبِه الْخُلْـ ... ـدَ مَطِلًّا مِن قِمَّةِ الأزْمانِ[٣]

---

(١) ديوانُ أحمدِ سحنونَ (٢٥١).

(٢) لسانُ العَرَبِ لابنِ منظورٍ (١١/ ٢٦٥ – ٢٦٧).

(٣) ديوانُ علي الجارمِ (٦٦).



الرجولة في القرآنِ والسُّنَّة

أولا: المقصودُ من الرجولةِ في القرآن الكريمِ:

سورُ القرآن الغرُّ فيكمْ أنزلتْ ... ولكمْ تصاغُ محاسنُ الأشعارِ(١)

فقد ذكرَ اللهُ الرجولةَ في القرآنِ الكريمِ في أكثرِ من خمسينَ موضعًا، فذَكَرَ الرجلَ، والرَّجُلَينِ، والرِّجالَ، وقَرَنَ الرجلَ بالمرأةِ في آيتين اثنتين، والرجالَ بالنساءِ في عَشَرَةِ مواضِعَ، ولنا مع الرجولةِ الوقفاتُ التاليةُ:

الوقفةُ الأولى: المقصودُ بالرجولةِ:

ذكرَ اللهُ الرجولةَ في القرآنِ، وذكَرَها النبيُّ ﷺ في سُنَّتِهِ، وأرادَ اللهُ بالرجولةِ النوعَ تارةً، وأرادَ بها الصِّفَةَ تارةً أخرى، وأرادَ بها النوعَ والصِّفَةَ تارةً ثالثةً.

أما النوعُ:

فيُقصَدُ بالرجولةِ الذكورةُ، فقد قال ﷻ: {وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} [النساء: ١]، وقال: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ} [النساء: ٣٢]، وقال ﷻ: {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١)} [الأعراف: ٨١].

وأمّا الصِّفَةُ:

فيُقصَدُ بالرجولةِ توافُرُ صفاتِ الرجولةِ في الذَّكَرِ فقد قال ﷻ {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

---

(١) ديوانُ أبي تمامٍ (٤٨٧).

{صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾} [الأحزاب: ٢٣]، فكلمةُ المؤمنين جَمْعُ مُذَكَّرٍ سالمٌ، ولم يَقُلِ اللهُ ﷻ كُلُّ المؤمنين رجالٌ وإنما قال: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ، ومِنْ للتبعيضِ أيْ: لَيْسَ كُلُّ ذَكَرٍ رجلًا وإنما كُلُّ رَجُلٍ ذَكَرٌ، فأرادَ ها هنا صِفَةَ الرجولةِ ولم يُرِدْ النوعَ أي: الذكورة.

النوعُ والصفةُ:

وأمّا النوعُ والصِّفَةُ: فَيَذْكُرُ اللهُ ﷻ الرجولةَ ويريدُ بها توافُرَ النوعِ والصفةِ، ومن ذلك قولُهُ تعالىٰ: {ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ} [النساء: ٣٤]، فلا بُدَّ للقِوامةِ مِنَ الذكورةِ ومن الرجولةِ، فنحنُ رجالًا تقودُهُم النساءُ وذلك راجعٌ إلىٰ انتفاءِ الصِّفَةِ مع وجودِ النوعِ.

الوقفةُ الثانيةُ: الاشتراكُ في الحُكْمِ:

إذا وَرَدَ لفظُ الرَّجُلِ في القرآنِ الكريم والسُّنَّةِ ولم يَرِدْ دليلٌ علىٰ اختصاصِ الرجُلِ بالحُكْمِ، فالأصْلُ دخولُ النساءِ في الحُكْمِ مع الرجالِ، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرجلِ يَجِدُ البَلَلَ وَلا يَذْكُرُ احْتِلامًا، قال: «يَغْتَسِلُ»، وَعَنِ الرجلِ يَرَىٰ أَنَّهُ قَدِ احْتَلَمَ وَلا يَجِدُ الْبَلَلَ، قال: «لا غُسْلَ عَلَيْهِ». فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: الْمَرأَةُ تَرَىٰ ذلك أعلَيْهَا غُسْلٌ؟ قال: «نَعَمْ، إِنَّما النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجالِ»[1].

فحديثُ السَّبْعَةِ الذينَ يُظَلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ جاء فيه السبعةُ بِلَفْظِ (رَجُلٌ)[2]، ومعَ ذلك فهذا الحديثُ يَشْمَلُ الرجالَ والنساءَ، فمن النساءِ مَنْ سَيُظِلُّهُنَّ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ.

---

(١) (صحيحٌ)، أخرجَهُ أحمدُ (٦/ ٢٥)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٣٣٣).

(٢) رواهُ البخاريُّ رقم (٦٦٨) ـ ومسلمٌ رقم (١٠٣١).

الوقفةُ الثالثةُ: صفاتُ الرجولةِ في القرآنِ:

أولًا: الرجولةُ في القرآنِ الكريمِ:

١- الطهارةُ:

الطهارةُ بِشِقَّيْها الماديُّ والمعنويُّ: {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾} [التوبة: ١٠٨].

كلمةُ رِجَالٌ هنا كلمةُ ثَنَاءٍ وَمَدْحٍ مِنَ اللهِ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا بالماءِ من النجاساتِ والأقذارِ، كما يَتطهَّرون بالتَّورُّعِ والاستغفارِ من الذنوبِ والمعاصي، واللهُ يحب المُتطَهِّرين.

٢- الصِّدق مع اللهِ:

يا من ترجيت من مولاك مغفرةً اصدقْ مع اللهِ يصدقْكَ الذي وعدا(١)

قال اللهُ ﷻ {مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴿٢٣﴾} [الأحزاب: ٢٣]، رِجَالٌ هنا كلمةُ ثَنَاءٍ وَمَدْحٍ من اللهِ: أَوْفَوا بالصبرِ على البأساءِ والضَّرَّاءِ إذْ قد عاهدوا اللهَ أنْ يَصْبِروا إذا امتُحِنُوا.

ثم قالَ: {فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ} أي: فَرَغَ من العملِ الذي قَدَّرهُ اللهُ وأوجَبهُ له على نَفْسِهِ، فاسْتُشْهِدَ بعضٌ يومَ بَدْرٍ وبعضٌ يومَ أُحُدٍ وبعضٌ في غيرِ ذلك من المواطِنِ.

{وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ} قضاءَهُ والفراغَ منه على الوفاءِ لِلَّهِ بعهدِهِ أي: الشهادةُ.

{وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا} أي: ما بَدَّلوا العَهْدَ الذي عاهدوا اللهَ عليه.

---

(١) قاله أستاذنا – حَفِظَهُ اللهُ –.

٣ – إيثارُ الآخرةِ على الدنيا:

ومَنْ يـؤثِرِ الـدنيا فقـد خـابَ ظنُّـهُ وإنَّ اللبيبَ الحقَّ من آثر الأُخرى(١)

{رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾} [النور: ٣٧].

كلمةُ (رِجَالٌ) هنا كلمةُ ثناءٍ ومدحٍ من اللهِ – تباركَ وتعالى – قال: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ}، أي: لا يَشْغَلُهم عن صلاتِهم في هَذِهِ المساجِدِ شيءٌ. وذِكْرُ اللهِ هنا: الصلاةُ المكتوبَةُ.

٤ – القِوامَةُ وحُسْنُ التوجيهِ لبيوتِهم وذَوِيهِم:

{ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ} [النساء: ٣٤]، كلمةُ (الرجالُ) هنا – أيضًا – كلمةُ ثناءٍ ومدحٍ من الله أي: يقومونَ على النساءِ، يؤدِّبونَهنَّ ويأخُذُون على أيدِيهِنَّ.

{بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}، أي: بتفضيلِهِ لهم عليهِنَّ بالعِلْمِ والعَقْلِ والولايةِ وغيرِ ذلكَ، {وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ}، وبما أنفقوا عليهِنَّ من أموالِهم، تكونُ في المهورِ وغيرِ ذلكَ.

٥ – الإيجابيةُ: وتتفصَّلُ في:

أ – مؤمِنُ «يس» والسعيُ لتبليغِ دعوةِ اللهِ ومناصرةِ الأنبياءِ:

قال اللهُ ﷻ {وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾} [يس: ٢٠].

---

(١) قاله أستاذنا – حَفِظَهُ اللهُ –.

ب - التَّحَرُّكُ السريعُ لِدَرْءِ الخَطَرِ وبَذْلِ النصيحةِ:

{وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾} [القصص: ٢٠].

رِجَلٌ هنا كلمةُ ثناءٍ ومدحٍ من اللهِ فقد ذكر الأوصافَ قبل ذكرِ الموصوفِ وهذا أبلغُ في المَدحِ من تقديمِ ذِكْرِهِ علىٰ وَصْفِهِ؛ فإنَّ الناسَ يقولون: الرئيسُ الأَجَلُّ فلانٌ، فَنَظَرْتُ فإذا الذي زِيْدَ في مدحِهِ، وهو صاحِبُ يس أَمَرَ بالمعروفِ، وأعانَ الرُّسُلَ، وصَبَرَ علىٰ القَتْلِ، والآخَرُ إنما حَذَّرَ موسىٰ من القتلِ، فَسَلِمَ موسىٰ بِقَبُولِهِ مَشُوَرَتَهُ، فالأَوَّلُ هو الآمِرُ بالمعروفِ، والناهي عن المُنْكَرِ، والثاني هو ناصِرُ الآمِرِ بالمعروفِ، فاسْتَحَقَّ الأولُ الزيادةَ، ثمَّ تَأَمَّلْتُ ذكرَ أقصىٰ المدينةِ، فإذا الرَّجُلانِ جاءا من بُعْدٍ في الأَمْرِ بالمعروفِ، ولم يَتَقَاعَدا لِبُعْدِ الطريقِ.

ج - مؤمنُ آلِ فرعونَ والدفاعُ عن رَمْزِ الدعوةِ ضِدَّ مؤامرةِ الكُفَّارِ:

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ } [غافر: ٢٨].

رِجَلٌ هنا كلمةُ ثناءٍ ومَدْحٍ من اللهِ ﷻ فقد دافَعَ رَجُلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يَكْتُمُ إيمانَهُ عن موسىٰ ﷺ، وَحَذَّرَ فرعونَ وآلَهُ بطْشَ اللهِ، غيرَ خائفٍ ولا مبالٍ به وبسلطتِهِ، ضارِبًا الأمثالَ بالأُمَمِ الخاليةِ، أي: أَتَقْصُدُونَ قَتْلَهُ كراهَةَ أَنْ يقولَ: رَبِّيَ اللهُ وَحْدَهُ من غيرِ رَوِيَّةٍ منكم في أَمْرِهِ، وقد جاءكم بالمعجزاتِ الظاهرةِ الشاهدةِ علىٰ صِدْقِهِ.

وهذا إنَّما هو قَطْرَةٌ من مَطْرةٍ وإلا ففي كتابِ اللهِ من الدُّرَرِ والعِبَرِ ما لا يَخْطُرُ علىٰ بالٍ، ولقد أَحْسَنَ الذي يقولُ:

وهــل ككــلامِ اللهِ أعظــمُ نعمــةً
على النــاسِ نقضــي بــاليقينِ علــى

ولا ينفــعُ القــرآنُ دونَ تــدَبُّرٍ
كما لا يُخاضُ البَحْرُ إلا على السُّفُنِ[١]

الرجولةُ في السُّنَّةِ:

لَـكَ فـي رَسُـولِ اللهِ أعْظَـمُ أُسْـوَةٍ
وأجلُّهـا فـي سُـنَّةٍ وكتـابِ

صفاتُ الرجولةِ في السُّنَّةِ:

١- القيامُ بالفرائضِ:

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ. قَالَ: «تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شيئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ». قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا. فَلَمَّا وَلَّىٰ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَذَا»[٢].

فَالظَّاهِرُ مِنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلِمَ أَنَّهُ يُوفِي بِمَا الْتَزَمَ وَأَنَّهُ يَدُومُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ؛ لهذا كانتْ كلمةُ رجل هنا كلمةَ ثناءٍ ومدحٍ منه ﷺ.

٢- الصَّلاحُ:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ فِي يَدِي قِطْعَةَ إِسْتَبْرَقٍ، وَلَيْسَ مَكَانٌ أُرِيدُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلا طَارَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَقَصَصْتُهُ عَلَىٰ حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهُ حَفْصَةُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَرَىٰ عَبْدَ اللهِ رَجُلًا صَالِحًا»[٣].

---

(١) ديوانُ سحنونَ (٢٧).

(٢) رواهُ البخاريُّ (١٣٩٧)، ومسلمٌ (١٥).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٧٠١٥)، ومسلمٌ (٢٤٧٨).

فكلمةُ رجلٍ هنا كلمةُ ثناءٍ ومدحٍ وشهادةٌ من رسولِ اللهِ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما والصالحُ هو القائمُ بحدودِ اللهِ – سبحانه – وحقوق العبادِ وكأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ اسْتَحْسَنَ رُؤْيَتَهُ للجَنَّةِ في المنامِ.

٣- الصَّبْرُ على الشدائِدِ:

وكـان أصـبرَ خلـقِ اللهِ إنْ نزلـتْ ... بـه الشدائدُ أو حلَّت بـه الكُرَبُ(١)

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟. فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ بِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُم تَسْتَعْجِلُونَ»(٢).

وهذا – أيضًا – ثناءٌ وَمَدحٌ من رسولِ اللهِ ﷺ لرجالٍ في غابِرِ الدَّهْرِ إِذْ ضَرَبَ بهم المَثَلَ تسليةً لأتباعِهِ ليتأسَّوْا بهم في الصَّبرِ والثباتِ وأيُّ رجالٍ ضَرَبَ لنا بهم المَثَلَ من رجالٍ يُنْشَرون بالمناشِيرِ ويُمَشَّطُونَ بأَمْشاطِ الحديدِ فما يَصُدُّهُم ذلك عن دينِهِم.

٤- الثَّبات:

وعنه: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَىٰ مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي القَتْلَ وَالمَوتَ مَظَانَّهُ أَوْ

(١) قاله أُسْتاذُنَا – حَفِظَهُ اللهُ –.

(٢) رواهُ البخاريُّ (٣٦١٢).

رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلا فِي خَيْرٍ»[1].

وهذا – أيضًا – مدحٌ وثناءٌ لِرَجُلٍ وأيُّ رَجُلٍ خَيْرٌ من رَجُلٍ ممسك بعنانِ فَرَسِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي القَتْلَ وَالْموتَ مَظَانَّهُ أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي وَادٍ مِن هَذِهِ الأَودِيَةِ يعبدُ اللهَ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلا فِي خَيْرٍ.

٥- الأمانَةُ والقَنَاعَةُ والحِكْمَةُ:

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا، فَوَجَدَ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ، إِنَّما اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَشْتَرِ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُما: لِي غُلَامٌ، وقالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قال: أَنكِحَا الغُلَامَ الجَارِيَةَ، وأَنفِقَا عَلَى أَنْفُسِهِما مِنْهُ وَتَصَدَّقَا»[2].

ففي الحديثِ – أيضًا – ثناءٌ وَمَدْحٌ لرجالٍ وأيُّ رجالٍ، فأَنْتَ تلاحِظُ تَوَرُّعَ البائعِ والمشتري، وإنصافَ الحاكِمِ بينهما، وعَدَمَ طَمَعِهِ، وأينَ نَجِدُ أمثالَ هؤلاءِ الرجالِ إلَّا في صَفَحاتِ الكُتُبِ وبُطونِ الثَّرَى.

أَعِـدْ ذِكْـرَ قَـالَ اللهُ قَـالَ رسـولُهُ هـمـا المِسْكُ مـا كَرَّرْتَـهُ يَتَضَـوَّعُ

---

(١) رواهُ مسلمٌ (١٨٨٩).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٣٤٧٢)، ومسلمٌ (١٧٢١).

الرجولة خُلُقٌ من أخلاقِ الأنبياءِ[1]

ويسيرُ بلوغُ هاتِيكَ جدًا   تلكَ عُليا مراتبِ الأنبياءِ[2]

الأنبياءُ والرُّسُلُ كلهم رِجالٌ كاملو الرجولةِ ولهم من هذهِ الصفاتِ الاسْمُ الأكْمَلُ قَبْلَ الوَحْيِ وبعدَهُ حتىٰ ذَكَرَ اللهُ لنا في كتابِهِ بعضَ صفاتِ الرجولةِ والشَّهَامَةِ ما يُحِبُّ أَنْ يُمدحَ بها العاقِلُ ويُثْنَىٰ بها علىٰ الرَّجُلِ.

فَدَعْنا نُبْحِرُ في كتابِ اللهِ في بعضِ هذه الخِلالِ عسانا أنْ نكونَ من المُقْتَدين.

صُوَرٌ من رجولَةِ الأنبياءِ:

١- الشَّجَاعَةُ والثَّبَاتُ:

قال تعالىٰ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٧ - ٥٨].

تَأَمَّلْ هذا الموقِفَ البُطُوليَّ الذي تَضْطَرِبُ له فرائِصُ الشُّجْعانِ في مواجهةِ قبيلةٍ بأكْمَلِها!! بل بتحطيمِ الرَّمْزِ الدينيِّ الذي حَوْلَهُ يجتمعون وعليه يَتَفَرَّقُونَ فها هو الخليلُ واجَهَ الموقِفَ بشجاعةٍ من طِرازٍ خاصٍّ ليس له مثيلٌ.. وثباتٍ قَلَّ العيونُ أَنْ ترىٰ مِثْلَهُ..!!

وفِعلًا.. تَمَّ الحَدَثُ وَحَفِظَ اللهُ إبراهيمَ..

٢- الكَرَمُ وَبَسْطُ اليدِ:

قال تعالىٰ عن إبراهيمَ: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا

---

(١) انظرْ: مقالٌ عن الرجولةِ منشورٌ في الألوكةِ بِتَصَرُّفٍ.

(٢) الذخائرُ والعبقرياتُ (١/ ١٧٩).

تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾} [الذاريات: ٢٦ - ٢٧].

وانظرُ حالَ الموقفِ أناسٌ غُرَباءَ أتوا دارَهُ فتمَّتْ المقابلةُ بالسلامِ ثم الرَّوْغ وهو التَّسَلُّل بِخُفْيَةٍ حتىٰ لا يُحْرِجَ الضَّيْفَ ثم العِجْلِ السَّمِينِ..

أيُّ كَرَم هذا؟!

٣- حِفْظُ الضَّيْفِ:

وإنـيَ لَجارُ الضيفِ أحمـي وِفـادَهُ   وأدفـع عنـه مـا يخـافُ واسـترُ(١)

قال تعالىٰ: { وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾} [الحجر: ٦٧ - ٦٩].

فكان من سُمُوِّ خُلُقِ لوطٍ ﷺ أنْ دافَعَ عن الضَّيْفِ الغريبِ وحمايةُ عِرْضِهِ ونَفْسِهِ.. ولو قارنْتَ بحالِ اليومِ لَوَجَدْتَ كثيرًا من البَشَرِ لا يُطيقُ الضَّيْفَ فضْلًا أنْ يَحْمِيَهُ..

إنَّ هذا الدينَ إذا أُشْرِبَ المَرْءُ فَهْمَهُ ومَحَبَّتَهُ لَحَمَلَ الأوامِرَ علىٰ كَفِّ التَّذَلُّلِ والتسليمَ والنواهِي علىٰ كَفِّ الترهُّبِ والتعظيمِ مهما يكونُ الثَّمَن..

وإلا ما حاجَةُ لوطٍ ﷺ لهذا العَنَاءِ إلَّا لتعظيمِ أمْرٍ وممَّا حباهُ اللهُ من صفاتِ الرجولةِ والشَّهَامَةِ..

٤- حِفْظُ الفَضْلِ وعَدَمُ نُكْرانِ الجَميلِ:

قال تعالىٰ: {وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ

---

(١) قالهُ أُسْتاذُنا – حَفِظَهُ اللهُ –.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣]، وقولُ يوسُفَ ﷺ ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ علىٰ أشهرِ القولَين يعني بِهِ سَيِّدَهُ لا اللهَ ﷻ وهو أكملُ؛ لِأَنَّ مَنْ حَفِظَ فَضلَ البَشَرِ كانَ أَولَىٰ أَنْ يَحفَظَ فَضلَ رَبِّ البَشَرِ وخاصَّةً في مِثلِ يوسُفَ.

وهذا الخُلُقُ المُتَرَسِّخُ في يوسَفَ ﷺ نابعٌ من حُسْنِ إنباتِ اللهِ له وسُمُوِّ تَربِيَةِ يعقوبَ له.. وإلا أيُّ جامعةٍ أو مدرسةٍ في شَرْقِ المعمورةِ وغَرْبِها تُزَكِّي هذهِ النَّفْسَ في هذا الموقِفِ...؟!!

يوسُفُ في غُرْبَةٍ وأعزَبُ في أَوْجِ شبابِهِ علىٰ مَأْمَنٍ في مَخْدَعِ امْرأةِ العزيزِ وثورانُ الشهوةِ بَلَغَ مَبْلَغَهُ في هذا الوقْتِ ترىٰ العِفَّةَ وحِفْظَ الفَضْلِ من سَيِّدِهِ تَتَدَفَّقُ من يوسُفَ ﷺ..

الرُّجُولَةُ والفُتُوَّةُ

حقًّا إِنَّهُ صَبْرُ الرِّجالِ..!!

٥- النَّخْوَةُ والشَّهَامَةُ:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٣-٢٤].

في وَقْتٍ يُطارِدُ فيه موسىٰ ﷺ طاويًا بَطْنَهُ من الجُوْعِ تَعْلُو علىٰ قَلْبِهِ سحابةٌ من خَوْفٍ ينتظرُ ملاذًا يُسكِنُ خَوفَهُ أو زادًا يَطْرُدُ جوعَهُ في هذا الوقتِ تَعتَرِيهِ شهامَةٌ مُوسَوِيَّةٌ من دافِعِ الإيمانِ فَلَيْسَتْ المرأتانِ الضَّعيفتانِ بِأَقَلَّ من الذي اسْتغاثَهُ بالأمسِ.. حتىٰ أكمَلَ المطلوبَ ﷺ..

ما حالُ مَنْ وَجَدَ امرأةً في عِزِّ شبابها في حاجةٍ لخدمةٍ معيَّنةٍ في سوقٍ مثلًا؟؟ ترىٰ الشبابَ مُهْطعينَ لها أسرابًا، جُلُّهم يرجو منفعةً شيطانيةً وقليلٌ منهم التي تأخُذُهُ هذهِ الشهامَةُ الموسويَّةُ النابعةُ من رجاءِ ثوابِ اللهِ ﷻ لا رجاءِ ثوابِ أحَدٍ..

٦- التضحية من أجل المبدأ:

{ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾} [ص: ٣٢ - ٣٣].

أي: آثرْتُ حُبَّ الخَيْلِ حتىٰ فاتتني صلاةَ العَصْرِ، وتوارَتْ الشَّمْسُ بالحجابِ لما فاتَتْ سليمانَ عليه السلام صلاةُ العَصْرِ بسبب انشغالِهِ بالخَيْلِ وهي عندَهُ مِن أحَبِّ مَتاعِ الدنيا ضحَّىٰ بما أحَبَّ لِمَنْ يُحِبُّ، فعَوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِمَّا أحبَّ، فالمبادئُ لا تعيشُ إلا بتضحياتِ رجالِها وحامِليها وأعظمُ المبادِئِ وأولاها في الدنيا للمؤمِنِ رضا اللهِ ﷻ فلو انفَرَدَتْ سالِفَةُ المؤمِنِ وأضنَىٰ نَفْسَهُ وكابَدَ عَيْشَهُ من أجْلِ هذا المبدأِ لكانَ قليلًا..

والأنفسُ الأبيَّةُ السليمانيَّةُ لم تَرْضَ أنْ يكونَ شيءٌ من حطامِ الدنيا حاجزًا بينَه وبينَ أعظمِ مقصودٍ فضحَّىٰ بالنفيس لَدَيهِ.. وهكذا شَأْنُ الرجالِ..!!

فيا أيها السالِكُ لمعالي الأمورِ..

ويا أيها المثابِرُ لِرِضَىٰ الغَفورِ..

زَكِّ قلبَكَ وربِّ نفسَكَ وابذرْ لها صفاتِ الرجولةِ، فالإيمانُ والرجولَةُ قرينانِ وحالُ النبيِّ ﷺ علىٰ ذلك شاهِدٌ فلا أقَلَّ إنْ لم تكُنْ من الأوائِلِ أنْ تَضْربَ من أخلاقِ الأنبياءِ بِسَهْمٍ..

وما أبعدَ الجَنَّةَ من البخيلِ الجَبانِ، وما يُنْصَرُ هذا الدينُ إلا بالكَرَمِ والشجاعةِ والتضحيةِ.

٧- الحزمُ:

المـرءُ بـالحزمِ لا بالجسـمِ تَعرفُـهُ والعزمُ بالقلبِ لا بالطولِ والقِصَرِ (١)

موقفُ موسىٰ ﷺ لما رَجَعَ من الطورِ بعد أن ناجىٰ ربَّهُ وعاد بالألواحِ، وقد عَلِمَ من اللهِ بخبرِ عبادةِ قومِهِ للعِجْلِ وعايَنَ الأمْرَ، أقبلَ علىٰ قومِ فَعَنَّفَهم ووبَّخهم وعاتَبَ أخاهُ هارونَ: { قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ } [طه: ٩٢ - ٩٣]، ثم أقبلَ علىٰ السامريِّ: { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ } [طه: ٩٥]، وهذا دعاهُ عليهِ بألَّا يَمَسَّ أحدًا ثم توعَّدَهُ في الأُخرىٰ فقال: { قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ } [طه: ٩٧]، وبعد ذلك عَمِدَ إلىٰ العجلِ فَحَرَّقَهُ وذراهُ في البَحرِ: {وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾} [طه: ٩٧]. والقرآنُ يَصِفُ الموقفَ بصورةِ حَزْمٍ واضحةٍ إذ يشعُرُ القارئُ للقِصَّةِ في كتابِ اللهِ بِسُرْعَةِ اتخاذِ الموقفِ والقضاءِ علىٰ الفتنةِ برمَّتِها وبحَزْمٍ سريعٍ يكادُ يكونُ خاطفًا فلم يتردَّدْ أو يتكاسَلْ بل إنَّ الوضوحَ والإصرارَ كان ملازمًا لتصرفاتِهِ في القضاءِ علىٰ الأمرِ، وهذا هو معنىٰ الحَزْمِ الذي نتحدَّثُ عَنْهُ.

الرجولةُ ليستْ بشَكْلِ الجِسْمِ:

لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عِظَمٍ جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ (٢)

وليستْ الرجولةُ بِبَسْطَةِ الجسمِ، وطولِ القامةِ، وقوةِ البِنْيةِ، فقد قال اللهُ عن طائفةٍ من المنافقين: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [المنافقون: ٤]، ومع هذا فهم {كَأَنَّهُمْ

(١) قاله أُستاذُنا - حَفِظَهُ اللهُ -.

(٢) ديوانُ حسانَ (١١٢).

خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وفي الحديثِ الصحيحِ: «يأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامةِ فلا يَزِنُ عند اللهِ جناحَ بعوضةٍ، اقرءوا إن شئتمْ قولَهُ تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥][١].

إذا فقتَ الذميمَ بحسنِ جِسْمٍ ... فلا يَسْبِقْكَ بالشيمِ الشريفةْ

فيصبحُ أفضلَ الرجلينِ نفسًا ... وتصبحُ أعظمَ الرجلينِ جيفةْ[٢]

وكان عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ نحيفًا نحيلًا، فانْكَشَفَتْ ساقاهُ يومًا - وهما دقيقتان هَزيلتان - فضَحِكَ بعضُ الصحابةِ، فقال الرسولُ ﷺ: «أتَضْحَكُونَ من دِقَّةِ ساقَيْهِ؟ والذي نفسي بيدِهِ لهما أثقلُ في الميزانِ من جَبَلِ أُحُدٍ»[٣].

تَرى الرَّجُلَ النَّحيفَ فتَزْدَريهِ ... وفي أثوابِهِ أَسَدٌ هَصورُ

ويُعْجِبُكَ الطَّريرُ فتَبْتَليهِ ... فيُخْلِفُ ظنَّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ

بُغاثُ الطيرِ أطولُها رِقابًا ... ولَمْ تَطُلِ البُزاةُ ولا الصُّقورُ

خشاشُ الطيرِ أكثرُها فِراخًا ... وأمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزورُ

ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زَئيرًا ... وأصْرَمُها اللَّواتي لا تَزيرُ

وقَدْ عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لُبٍّ ... فلَمْ يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البَعيرُ

يُنَوَّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بالهَراوى ... فلا عُرْفٌ لَدَيْهِ ولا نَكيرُ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٤٧٢٩)، ومسلمٌ (٢٧٨٥).

(٢) ديوانُ المعاني (١٨٩).

(٣) (حَسَنٌ)، أخرجَهُ أحمدُ: (٣٩٩١)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في تحقيقِهِ «للسُّنَّةِ» لابنِ أبي عاصمٍ [٦/ ١٢]، وحَسَّنَهُ شيخُنا الوادعيُّ رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحِ المُسْنَدِ (٨٣٧).

يُقَوِّدُه الصَّبيُّ بكلِّ أرضٍ ... ويَنْحَرُه على التُّرْبِ الصَّغيرُ

فما عِظَمُ الرِّجالِ لَهُم بِزَيْنٍ ... ولكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وخَيرُ(١)

الرجولةُ مظهرٌ وجوهرٌ:

أُنظُرْ فما هذي المفاخِرُ والحُلَى ... إلا مظاهِرُ للمآثِرِ والنَّدى

الرجولةَ في الجوهرِ أكثرُ مِمَّا يَمَسُّ البَدَنَ والظاهِرَ، فربَّ إنسانٍ أوتي بسطةً في الجسمِ وصحةً في البدنِ يطيشُ عقلُهُ فيغدو كالهَباءِ، ورُبَّ عبيدٍ مُعَوَّقِ الجَسَدِ قعيدِ البَدَنِ وهو مع ذلك يعيشُ بهمَّةِ الرجالِ. فالرجولةُ جوهَرٌ قبلَ أنْ تكونَ مظهرًا، فابْحَثْ عن الجوهَرِ، وأكثرُ الناسِ تأسِرُهم المظاهِرُ وَيسْحَرُهُم بريقُها، فالعظيمُ في عيونِهم قَد يكونُ ليس بذاكَ الرجلِ، ومن يَحْتَقِرُونَهُ وَيَزْدَرُونَهُ قد يكونُ من أولياءِ اللهِ وعبادِهِ الصالحين، فعَنْ سَهْلٍ ﷺ قَالَ: مَرَ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا».

قولُهُ (حَرِيٌّ) فلانٌ حَرِيٌّ بهذا الأمرِ، أي: خليقٌ به وجديرٌ.

ولا نعني بهذا إهمالَ المرءِ لِمَظْهَرِهِ، فالاهتمامُ بالمظهَرِ - السَّمْتُ الحَسَنُ - من أركانِ الرجولةِ الحَقَّةِ، وإنما المقصودُ الاهتمامُ بالمَظْهَرِ والجَوْهَرِ في وقتٍ مَعًا.

---

(١) أمالي القالي (١/ ٤٧).

لـيسَ الجمـــالُ بمئـــزرٍ ... فـــاعلَم وإنْ رُدِّيــتَ بُـــرْدا
إن الجمـــالَ معـــادنٌ ... ومناقـــبٌ أورثْـــنَ مجْـــدا(١)

الرجالُ أقْدَرُ على التَّحمُّلِ:

لا فلَّ ريبُ الدَّهرِ غربَ عزائمٍ ... مدَّتْ علىٰ الإسْلامِ سِترًا مُسْبَلا(٢)

الرجالُ أصبرُ علىٰ تَحمُّلِ الصِّعَابِ لما يتحلَّوْنَ به من الصَّبْرِ والعزيمةِ والشَّجَاعةِ الأدبيَّةِ.

وَلِذَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ لِوَلَدِهِ، فِيمَا قَصَّ اللهُ عَنْهُ: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)}، فأمَرَهُ أولًا أنْ يأمُرَ بالمعروفِ وأنْ ينهىٰ عن المُنكَرِ وأتْبَعَ ذلكَ بأمْرِهِ له بالصَّبْرِ وأخبرَهُ أنَّ ذلك مِمَّا أمَرَ اللهُ بِهِ مِن الأمورِ عزمٌ منه وهذا لا يقومُ به إلا الرجالُ الذين تَتوافَرُ فيهم صفاتُ الرجولةِ الحَقَّةِ، وقد كان السَّلفُ يتمنَّونَ رجالًا يُبلِّغون عن اللهِ، قال ابنُ القيمِ - رحمهُ اللهُ تعالىٰ -: «وكَانَ بعضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَقُولُ: «يا لَهُ من دينٍ لو أنَّ لَهُ رِجالًا»(٣).

حاجَةُ الأمةِ إلى الرِّجَالِ:

همـومُ أنـاسٍ فـي أمـورٍ كثيـرةٍ ... وهمِّي من الدُّنيا خليلٌ مساعِدُ(٤)

الأُمَّةُ بحاجةٍ إلىٰ الرجالِ أمثالِ أبي بكرٍ وعُمَرَ ليعودَ لها عِزُّها ومَجْدُها، فَعَنْ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أعِزَّ الدِّينَ بأحبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ:

---

(١) الوساطةُ بين المتنبي وخصومِهِ (٣٤٣).

(٢) ابنُ حيوسَ (١٤٠).

(٣) مفتاحُ دارِ السعادةِ (٢ - ٣٠٩).

(٤) الزهرةُ (٢٢٠).

بأبي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ أو عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَحَبُّهما إليه عُمَرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه»(١).

وعن زيدِ بنِ أسلمَ عن أبيهِ، عن عُمَرَ رضي الله عنه أنه قالَ لأصحابِهِ: تمنَّوا، فقال بعضُهم: أتمنَّىٰ لو أنَّ هذه الدارَ مملوءةٌ ذهبًا أُنفِقُهُ في سبيلِ اللهِ؛ وأتصدَّقُ. وقال رجلٌ: أتمنَّىٰ لو أنَّها مملوءةٌ زَبَرْجَدًا وجَوْهَرًا فأُنْفِقُهُ في سبيلِ اللهِ، وأتصدَّقُ. ثم قال عمرُ: تَمَنَّوا، فقالوا: ما نَدْرِي يا أميرَ المؤمنين. فقال عُمَرُ: أتمنَّىٰ لو أنَّها مملوءةٌ رجالًا مِثْلَ أبي عبيدةَ بنِ الجَرَاحِ، ومعاذِ بنِ جَبَلٍ، وسالِمٍ مولىٰ أبي حذيفةَ، وحذيفةَ بنِ اليَمَانِ(٢).

نُدْرَةُ الرجالِ:

ولم أرَ أمثالَ الرِّجالِ تفاوتتْ ... لدى المجدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ(٣)

الرجالُ في عالَمِ الناسِ عُمْلَةٌ نادرةٌ أعِزَّةٌ قِلَّةٌ دلَّ علىٰ ذلك حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»**(٤).

دَلَّ الحديثُ علىٰ أنَّ الرجالَ من الناسِ وهُمُ المَرْضِيُّونَ في أماناتِهِمْ وكفاءَتِهِمْ عزيزو الوجودِ (١٪) كما هو الحالُ في نُدْرَةِ (الرواحِلِ) من الإِبِلِ النَّجِيبَةِ، وهي المتميزةُ بسهولَةِ الانقيادِ والصلاحِيَّةِ للركوبِ والأسفارِ. كما قِيلَ:

يُعَدُّ بألفٍ من رجالِ زمانِهِ ... ولكنَّهُ في الألمعيةِ واحِدُ(٥)

---

(١) (حَسَنٌ)، رواهُ ابنُ حِبَّانَ (٢١٧٩ - مواردُ)، حَسَنٌ صحيحٌ، «المشكاةُ» (٦٠٣٦/ التحقيقُ الثاني).

(٢) (حَسَنٌ)، أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ في الفضائلِ (٢/ ٧٤٠) رقم (١٢٨٠)، وهو حديثٌ حَسَنٌ بمجموعِ طُرُقِهِ علىٰ شَرْطِ مسلمٍ.

(٣) الوساطَةُ بين المتنبي وخصومِهِ (٣٦٢).

(٤) رواهُ البخاريُّ (٦١٣٣)، ومسلمٌ (٢٥٤٧).

(٥) من رحيقِ الشِّعْرِ (٢٤١).

وقال أبو بكرِ بنُ دُرَيْدٍ:

النَّـــاسُ أَلْـــفٌ مِـــنْهُمْ كَوَاحِـــدٍ   وَوَاحِـدٌ كَـالأَلْفِ إِنْ أَمْـرٌ عَنَـى[1]

وقال أبو نواسٍ:

ولـــــيس للهِ بِمُسْــــــتنكَرٍ   أن يَجْمَـعَ العـالَمَ فـي وَاحِـدِ[2]

فالصالحون - عادةً - كُثُرٌ، لكنَّ الرجالَ قِلَّةٌ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ لِدَغْفَلَ: صِفْ لِي النَّاسَ، فَقَالَ: ذرْوَةُ جَبَلٍ مَنِيعٍ وَرَبْوَةٍ شَامِخٍ اتَّصَلَتْ بِهِ وَرِيَاضٌ لَمْ يُسْتَغْنَ عَنْهَا ثُمَّ أَلْحِقِ البَاقِيْنَ بِالبَهَائِمِ[3].

يُثْقِلُـــوْنَ الأرضَ مِـــنْ كَثْـــرَتِهِمْ   ثُـم لا يُغْنُـــونَ فـــي أَمْـــرٍ جَلَـلْ

وقال آخَرُ:

مـا أكثَـرَ النـاسَ لا بـل مـا أقَلَّهُـمُ   اللهُ يعلَـمُ أنِّـي لـم أقُـلْ فَنَـدا

إنِّـي لأفـتَحُ عينـي حـينَ أفتَحُهـا   علـى كثيـرٍ ولكـنْ لا أرى أحَـدا[4]

ولكنَّ الإسلامَ دائمًا ما يراهِنُ - وفي أحلَكِ الظروفِ - علىٰ إخراجِ النجائِبِ من الرواحِلِ والتي تستطيعُ أنْ تَبْلُغَ بالرسالةِ ما شاءَ اللهُ لها أن تَبلُغَ وإنْ قَلَّتْ.

وإن شئتَ أنْ تُدَلَّلَ علىٰ ذلكَ، فالتاريخُ أعْدَلُ شاهِدٍ.

---

(١) الدرُّ الفريدُ وبيتُ القصيدِ (٤/ ٤٢٤).

(٢) أبو الطيبِ ما لَهُ وما عليه (٦١).

(٣) الدرُّ الفريدُ وبيتُ القصيدِ (٤/ ١٨٧).

(٤) الذخائرُ والعبقرياتُ (٢/ ١٦٣).

بَنِي الدنيا سَلُوا التاريخَ عنَّا ... ألَسْنا أرفعَ الأقوامِ شأنا
رسولُ اللهِ والخُلَفاءُ مِنَّا ... بنوا للخُلْدِ ما شاءوا وشِئْنا(١)

ميزانُ الرجالِ:

وإذا تَناسَبَتِ الرِّجالُ فما أرَى ... نَسَبًا يُقاسُ بصالِحِ الأعمالِ

ما من شكٍّ أنَّ التَّفتيشَ عن الرجالِ بينَ ركامٍ هائلٍ مِن تدنِّي الأخلاقِ، وتَدَنُّسِ النفوسِ، وخَوَرِ العزائِمِ؛ لَيَسِيرٌ علىٰ مَنْ يَسَّرَ اللهُ عليه وأَقْصَرُ الطَّرِيقِ إلىٰ ذلك طريقُ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ فإذا لَمْ يَكُنْ النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ هم الرجال فلا ندري من هم الرجال، وميزان أهل السنة أن الرجال هم علىٰ مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في العقيدةِ والسلوكِ والأخلاقِ والعملِ، هذا هو الميزانُ لا ميزانَ غيرُهُ ومَنَ سَلَكَ هذا السلوكَ حازَ الكمالَ في الرجولةِ والقُرْبَ عندَ اللهِ ﷻ، قَالَ: «إنَّ بني إسرائيلَ تفرقَتْ علىٰ اثنينِ وسبعينَ مِلَّةً وتَفْتَرِقُ أُمتي علىٰ ثلاثٍ وسبعينَ مِلَّةً كلُّهم في النارِ إلَّا ملَّةً واحدةً، قالوا: ومَنْ هي يا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: ما أنا عليه وأصحابي»(٢).

---

(١) ديوانُ الشعرِ العربيِّ (٨٩/ ٤٤٨).

(٢) رواهُ التِّرمِذِيُّ في سُنَنِهِ، (٥/ ٢٦)، واللفظُ له، وحديثُ الافتراقِ لم يَرِدْ في أيٍّ من الصَّحِيحَينِ، دلالةً علىٰ أنه لم يَصِحَّ علىٰ شرطِ واحدٍ منهما، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ بعضَ رواياتِ الحديثِ لم تَذْكُرْ أنَّ الفِرَقَ كُلَّها في النارِ إلا واحدةً، وممَّا قالَه الشَّوْكَانيُّ في فتحِ القديرِ (٢/ ٥٦)، الزيادةُ ضَعَّفَها جماعةٌ من المُحَدِّثين، بل قَالَ ابنُ حَزمٍ: إنَّها موضوعةٌ، وأجابَ الألبانيُّ: إنَّني لا أعلمُ من المحدِّثين ضَعَّفَ الزيادةَ، بل الجماعةُ قد صحَّحوها. (مِجلةُ الجامعةِ الإسلاميَّةِ، العددُ (٥٧)، ص (٥١)، وأما الحديثُ فقد حَسَّنَهُ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ، وصحَّحَهُ ابنُ تيميَّةَ بتعدُّدِ طُرُقِهِ ورجَّحَ =

كُنْ كالصحابةِ في زهدٍ وفي ورعٍ ... القومُ هُم ما لهم في الناسِ أشباهُ

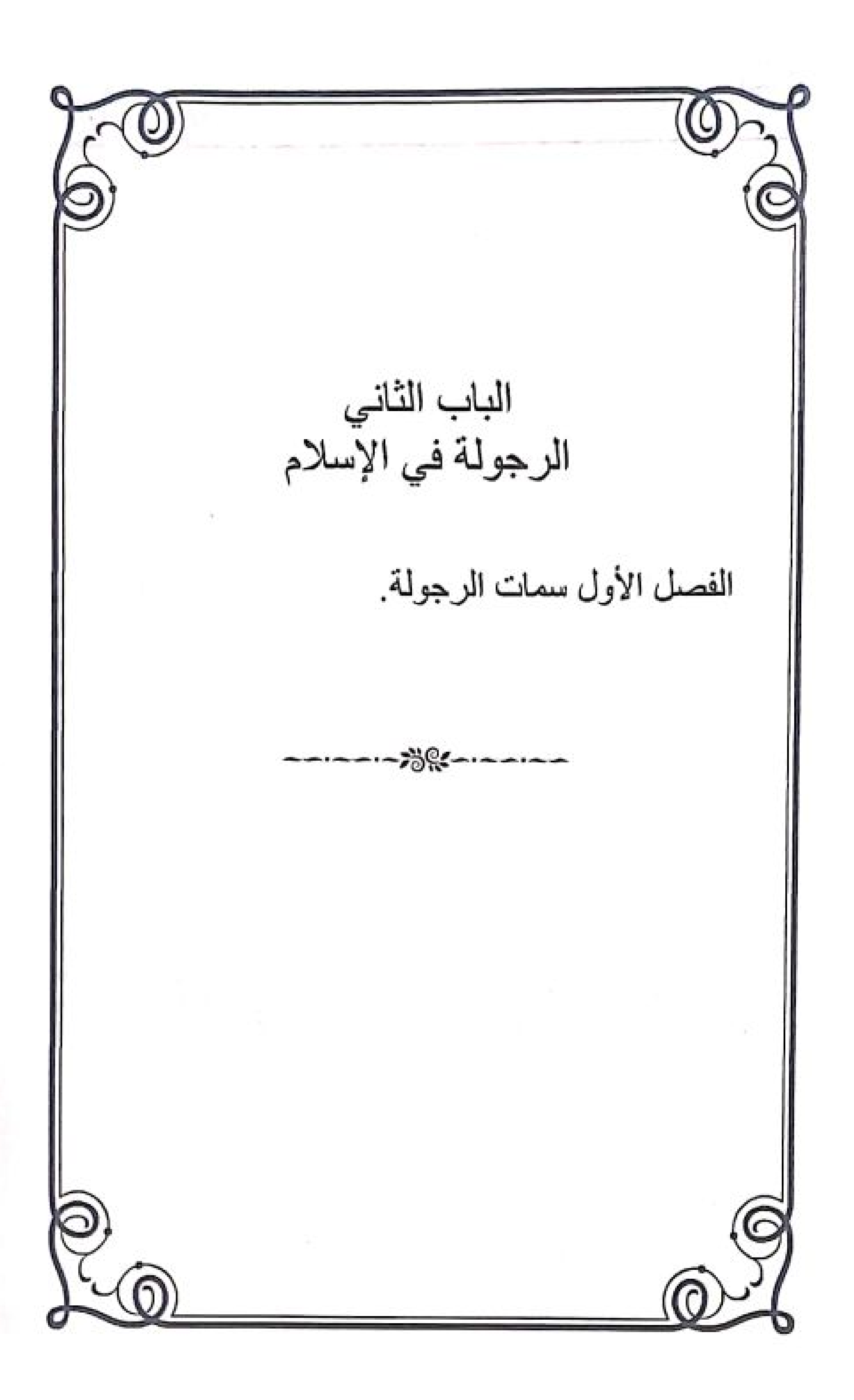
عُبّادُ ليلٍ إذا جَنَّ الظلامُ بهم ... كَمْ عابدٍ دمْعُهُ في الخدِّ أجراهُ

وأسْدُ غابٍ إذا نادى الجهادُ بهم ... هبُّوا إلى الموتِ يَستَجْدُونَ رؤياهُ

يا رَبِّ فابعَثْ لنا من مثْلِهِم نفرًا ... يُشَيِّدون لنا مَجْدًا أضعناهُ

= سليمُ بنُ عبد الهلالي أنّه حديثٌ حَسَنٌ وهو الحَقُّ، انظر الشّاطِبِيّ: الاعتصامُ، تحقيقُ الهلاليّ، (٢/ ٦٩٨).


٣٠



الباب الثاني
الرجولة في الإسلام

الفصل الأول سمات الرجولة.

سماتُ الرِّجال

وللحسنِ الفعلُ الذي هو كاسْمِه وما كلُّ أسماءِ الرجالِ سِماتُ(١)

تقدَّمَ القولُ أنَّ الرجولةَ الحقَّةَ هي مِثْلُ ما كانَ عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ في العقيدةِ والسلوكِ والأخلاقِ والعملِ، فالعَرَبُ كانوا على أخلاقٍ توارَثُوها عن إبراهيمَ الخليلِ ﷺ مِثْلِ النجدةِ والشجاعةِ والكَرَمِ، فَبَعَثَ اللهُ نبيَّنا ﷺ لِيُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(٢)

وهُناكَ سِماتٌ متىٰ تَمَسَّكَ بها المَرْءُ وَعَضَّ عليها ناجِذَتَهُ فهو الرَّجُلُ الكاملُ في رجولتِهِ.

ومن تِلْكَ السِّماتِ ما يأتي:

١- التَّسْمِيةُ

وقَلَّما أبْصَرَتْ عَيْناكَ ذا لَقَبٍ إلا وَمَعْناهُ إنْ فَكَّرْتَ في لَقَبِهْ

التَّسْمِيةُ الحَسَنَةُ ترمزُ للرجولةِ وتَسْمُو بالنَّفْسِ إلىٰ معالي الأمورِ وأشرافِها كما قال رَجُلٌ في ولدِهِ وقد سَمَّاه عليًّا:

سَمَّيْتُهُ بعليٍّ كَيْ يدومَ لهُ عِزُّ العَلاءِ وخيرُ العِزِّ أدْوَمُهُ

وبالضِدِّ من ذلكَ الأسماءُ الرَّخْوَةُ المُهَلْهَلَةُ فإنها تَهْوِي بأصحابِها إلىٰ دَرَكاتٍ من سفاسِفِ الأمورِ فلا يحومُ أخو السفاسِفِ إلا حولَها ولا يعرِفُ غَيْرَها، كما قِيلَ:

---

(١) النُّكَتُ العَصْرِيَّةُ (١٨١).

(٢) أخرجَهُ أحمدُ (٢/ ٣٨١)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في الصحيحةِ (٤٥).

إذا نُسِبُوا لم يَعْرِفُوا غيرَ ثَعْلَبٍ ألا إنَّ أشرارَ السِّباعِ الثَّعالِبُ

وقيل: (أكثرُ السَّفَلَةِ أسماؤهم تُناسِبُهم، وأكثرُ الشُّرَفاءِ والعِلْيَةِ أسماؤهم تناسِبُهم!!).

سُئِلَ أعرابيٌّ لِمَ تُحْسِنونَ أسماءَ مواليكم بخِلافِ أولادِكم، إذْ كانَتْ أسماءُ مواليهم: نافِعٌ، وسالِمٌ، وسَهْلٌ، وهكذا....، وأسماءُ أولادِهم: حربٌ، ومُرَّةٌ، وضِرارٌ..

فقال الأعرابيُّ: نُسَمِّي موالِيَنا لأنْفُسِنا رجاءَ نَفْعِهم، ونُسَمِّي أولادَنا لأعدائِنا[1].

ومن المشهورِ في كلامِ الناسِ:

الألْقابُ تَنْزِلُ من الأسماءِ، فلا تكادُ تَجِدُ الاسمَ الغليظَ الشَّنيعَ إلا علىٰ مُسَمَّىً يناسِبُهُ وعَكْسُهُ بِعَكْسِهِ، ومن المُنْتَشِرِ قولُهم: «لِكُلِّ مُسَمَّىً من اسْمِهِ نصيبٌ».

وهَبْ أنَّ أحدًا سَمَّىٰ وَلَدَهُ (جَبانًا) فلا شَكَّ أنَّ هذا الاسْمَ لا يزالُ يُؤَثِّرُ فيه إلىٰ أنْ يصيرَ في عِدادِ الجبناءِ، وهكذا.

ومن دُرَرِ ابنِ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِلْأَسْمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي الْمُسَمَّيَاتِ، وَلِلْمُسَمَّيَاتِ تَأَثُّرٌ عَنْ أَسْمَائِهَا فِي الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالْخِفَّةِ وَالثِّقَلِ، وَاللَّطَافَةِ وَالْكَثَافَةِ كَمَا قِيلَ:

وَقَلَّمَا أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهْ

(وَكَانَ ﷺ يَسْتَحِبُّ الاسْمَ الْحَسَنَ، وَأَمَرَ إِذَا أَبْرَدُوا إِلَيْهِ بَرِيدًا أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الاسْمِ حَسَنَ الْوَجْهِ».

---

(١) محاضرات (٢/ ٣٦٩).

وَكَانَ يَأْخُذُ الْمَعَانِيَ مِنْ أَسْمَائِهَا فِي الْمَنَامِ وَالْيَقَظَةِ كَمَا «رَأَىٰ أَنَّهُ وَأَصْحَابَهُ فِي دَارِ عُقْبَةَ بنِ رافعٍ، فَأُتُوا برُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابَ، فَأَوَّلَهُ بِأَنَّ لَهُمُ الرِّفْعَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَاقِبَةَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي قَدِ اخْتَارَهُ اللهُ لَهُمْ قَدْ أَرْطَبَ وَطَابَ، وَتَأَوَّلَ سُهُولَةَ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ مَجِيءِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو إِلَيْهِ[1]»[2].

ومن روائعِ العلامةِ محمدِ البشيرِ الإبراهيميِّ - رحمهُ اللهُ تعالىٰ - قولُهُ: «مِنْ سُنَنِ العَرَبِ أنَّهم يَجْعَلونَ الاسْمَ سِمَةً للطُّفولَةِ، والكُنْيَةَ عنوانًا علىٰ الرجولةِ؛ لذلك كانوا لا يَكْتَنُونَ إلا بنتاجِ الأصلابِ وثمراتِ الأرحامِ من بَنِينَ وبناتٍ؛ لأنَّها الامتدادُ الطبيعيُّ لتاريخِ الحياةِ بهم، ولا يَرْضَونَ بهذه الكُنَىٰ والألقابِ الرِّخْوةِ إلا لعبيدهم، وما راجَتْ هذه الكُنَىٰ والألقابُ المُهَلْهَلَةُ بينَ المسلمينَ إلا يومَ تراخَتْ العُرَىٰ الشادَّةُ لِمُجْتَمَعِهِم، فراجَ فيهم التَّخَنُّثُ في الشمائلِ، والتَّأَنُّثُ في الطِّباعِ، والارتخاءُ في العزائمِ، والنفاقُ في الدِّينِ؛ ويومَ نَسِيَ المسلمونَ أنْفُسَهُمْ فأضاعوا الأعمالَ التي يَتَمَجَّدُ بها الرجالُ، وأخذوا بالسفاسفِ التي يَتَلَهَّىٰ بها الأطفالُ، وفاتَتْهُمُ العَظَمَةُ الحقيقيةُ فالتمسوها في الأسماءِ والكُنَىٰ والألقابِ؛ ولقد كان العَرَبُ صُخورًا وجنادِلَ يومَ كان من أسمائِهِم صَخْرٌ وجَنْدَلَةُ، وكانوا غُصَصًا وسَمومًا يومَ كان فيهم مُرَّةُ وحَنْظَلَةُ؛ وكانوا أشواكًا وأحساكًا يومَ كان فيهم قَتادَةُ وعَوْسَجَةُ.

فانظرْ ما هم اليومَ.

وانظرْ أيَّ أثرٍ تَتْرُكُهُ الأسماءُ في المُسَمَّياتِ.

واعتبرْ ذلك في كلمةِ (سيِّدِيْ) وأنَّها ما راجَتْ بيننا وشاعَتْ فينا إلا يومَ أَضَعْنا

(١) مسلمٌ رقم (٢٢٧٠).

(٢) زادُ المَعَادِ (٢/ ٣٠٧ - ٣٠٨).

السيادةَ، وأَفْلَتَتْ من أيدينا القيادةُ. ولماذا لم تَشِعْ في المسلمين يومَ كانوا سادةَ الدنيا علىٰ الحقيقةِ؛ ولو قالَها قائلٌ لِعُمَرَ لهاجَتْ شِرَّتُهُ، ولبادَرَتْ بالجوابِ دِرَّتُهُ»(١).

٢- الكَرَمُ:

أُعجُوبـةٌ فـي الـوَرى أنَّ البخيلَ - فَقْدِ الرُّجُولـة - يُدعَى بينهم رَجُلا

الكَرَمُ عِنوانُ الرجولةِ بل سَناها وبهاؤها، ومَنْ غابَ عنه الكَرَمُ لم يبلُغْ مَبْلَغَ الرجالِ، فما سادَ أَحَدٌ قومَهُ في الجاهليةِ أو الإسلامِ وفيه مَسْحَةٌ من بُخْلٍ، فلا يُسَوِّدُون عليهم إلا كريمًا، والسَّيِّدُ فيهم مَنْ اجتمعتْ فيه صفاتُ الرجولةِ الحَقَّةِ، فَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بني سَلَمَةَ؟ قُلْنَا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَىٰ أَنا نُبَخِّلُهُ، قَالَ: وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَىٰ مِنَ الْبُخْلِ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وَكَانَ عَمْرو يَعْتَرِضُ علىٰ أصنامِهم فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يُولِمُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا تَزَوَّجَ»(٢).

وقـالَ رسـولُ اللهِ والقـولُ قولُـهُ لِمَنْ قـال مِنَّـا مَنْ تُسَمُّونَ سَيِّدَا
فقالوا لـه جَدُّ بنُ قيسٍ على الّتي نُبَخِّلُـهُ مِنَّـا وإنْ كـانَ أسـودا
فَسَوَّدَ عمرو بنَ الجموحِ لِجُودِهِ وحَقَّ لعمرٍو بالنَّدَى أَنْ يُسَوَّدا(٣)

ولم يعرفُ العَرَبُ في تاريخِهم رَجُلًا أكرمَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ؛ إذْ كان يُؤْثِرُ علىٰ نَفْسِهِ، ولا يَلْتَفِتُ إلىٰ الدنيا، وهذا غايةُ الكَرَمِ والسَّخاءِ، فعن ابنِ عَبَّاس قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ

---

(١) الآثارُ (٣/ ٥٣٩).

(٢) رواهُ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الأدبِ المفردِ» (٢٠٧)، وقال شَيْخُنا الوادعيُّ: هذا حديثٌ حَسَنٌ. وقال الشيخُ الألبانيُّ: صحيحٌ، كما في «صحيحِ الأدبِ المُفْرَدِ» [٢٩٦].

(٣) زَهْرُ الأَكَمِ (١/ ١٤٠).

أجودَ النَّاسِ، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاهُ جبريلُ، وكان يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ فيُدارسُهُ القرآنَ، فلرسُولُ اللهِ ﷺ أجودُ بالخيرِ من الرِّيحِ المُرسَلَةِ[1].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: كان رسولُ اللهُ عليه وسلم - يقبلُ الهديَّةَ ويُثيبُ عليها[2].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قال: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئًا قطُّ فقال: لا[3].

ما قالَ: لا قطُّ إلَّا في تَشَهُّدِهِ ... لولا التَّشهُّدُ كانتْ لاءَهُ نَعَمُ

عَمَّ البَرِيَّةَ بالإحسانِ فانْقَشَعَتْ ... عَنْها الغَياهِبُ والإمْلاقُ والعَدَمُ[4]

وقال آخرُ:

جوابُهُ نعَمٌ في إثْرِها نِعَمٌ ... ولا تُلائِمُ فاهُ اللامُ والألِفُ

ما يبلغُ الشُّكْرُ ما يُولِيهِ من مِنَنٍ ... إنعامُهُ فوقَ ما نُثْني وما نَصِفُ[5]

وعَنْ أنسٍ قال: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ علىٰ الإسلامِ شيئًا إلَّا أعطاهُ، قال: فجاءهُ رَجُلٌ فأعطاهُ غنمًا بين جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إلىٰ قومِهِ، فقال: يا قومِ! أسْلِمُوا؛ فإنَّ مُحمدًا يُعطي عطاءً، لا يَخْشَىٰ الفَاقَةَ[6].

وفي روايةٍ أُخرىٰ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا سَألَ النبيَّ ﷺ غنمًا بينَ

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ (٦)، ومسلمٌ (٢٣٠٨).

(٢) أخرجَهُ البخاريُّ (٢٥٨٥).

(٣) أخرجَهُ مسلمٌ (٢٣١١).

(٤) ديوانُ الفَرَزْدَقِ (٨٩).

(٥) ديوانُ أسامةَ بنِ مُنْقِذٍ (٣٩٩).

(٦) أخرجَهُ مسلمٌ (٢٣١٢).

جَبَلَيْنِ، فأعطاهُ إيَّاهُ فأتَىٰ قَوْمَهُ، فقال: أيْ قَوْمُ! أسلِمُوا فو اللهِ إنَّ محمدًا ليُعطي عطاءَ ما يخافُ الفقرَ.

فقالَ أنسُ: إن كانَ الرَّجُلُ ليُسلِمُ ما يُرِيدُ إلا الدُّنيا، فما يُسلِمُ حتَّىٰ يكُونَ الإسلامُ أَحَبَّ إليه من الدُّنيا وما عَلَيها[1].

كَرِيمٌ متى اسْتُوهِبتَ ما أنتَ رَاكِبٌ ... وقَد لَقِحَتْ حَرْبٌ فإنَّكَ بـاذِلُ[2]

وقال آخر:

كـريمٌ كـريمُ الأُمَّهـاتِ مُهَـذَّبٌ ... تحلـبَ كفـاهُ النـدى وأنامِلُـهُ

هو البَحْرُ من أي النواحي أتَيْتَهُ ... فَلُجتُهُ المعروفُ والجودُ ساحِلُهُ

تـراهُ إذا مـا جِئتَـهُ مـتَهَلِّلًا ... كأنَّـكَ تُعطيـهِ الـذي أنْـتَ نائلُـهُ

ولو لم يَكُنْ في كَفِّهِ غيرُ رُوحِهِ ... لجـادَ بهـا فَليَتَّـقِ اللهَ سـائِلُهُ[3]

٣- الضِّيافَةُ:

نُسـائِلُكمْ هـل مـن قِـرًى لنَـزِيلِكمْ ... بمِـلْءِ جُفـونٍ لا بمِـلْءِ جِفـانِ[4]

الضيافةُ سِمَةٌ من سِماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ إذْ هي خِلَّةٌ مِنْ مَكَارِمِ الأَخلَاقِ ومحاسِنِ الشِّيَمِ وكان العربيُّ لا يَسُودُ قَوْمَهُ حتىٰ يكونَ فيه هذه الخِلَّةُ، فَمَنْ عَدِمَها فالسيادةُ منه بعيدٌ.

---

(١) أخرجهُ مسلمٌ (٢٣١٢).

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه (٤٤٩).

(٣) الكشكول (١/ ٢٦٠).

(٤) ريحانةُ الألِبَّا (٣٢٦).

ومِمَّا جاءَ فِي إِكْرَامِ الضَّيفِ وَالزَّائِرِ وَأَنَّهُ حَقٌّ واجِبٌ، كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنَّ لِزَوْرِكَ[1] عَلَيكَ حَقًّا»[2].

وعَنْ أَبِي شُرَيحٍ الْكَعْبِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيفَهُ، جَائِزَتُهُ يَومٌ وَلَيْلَةٌ[3] وَالضِّيافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ، حَتَّىٰ يُحْرِجَهُ[4]»[5].

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا خَيرَ فِيمَنْ لَا يُضِيفُ»[6].

وتَظْهَرُ رجولَةُ الرَّجُلِ ليسَ في المبالغةِ في الكَرَمِ من إعدادِ الطعامِ وذَبحِ الذبائحِ، إنما في إظهارِ الفَرَحِ بالضيفِ وشُكرِهِ علىٰ تَفَضُّلِهِ ومَجيئِهِ ومُلاطَفَتِهِ بِطيْبِ الحديثِ والبَسْطِ والتأنيسِ يَفْعَلُ هذا مع كُلِّ مَنْ حَضَرَ وإِنْ كان العَدَدُ كثيرًا، قال الأَحْنَفُ: «لو

---

(١) إنَّ لَزَورِكَ: أي: إنَّ للزائرِ الذي يَزورُكَ.

(٢) رواهُ البخاريُّ (١٨٧٣)، مسلمٌ (١١٥٩).

(٣) جائِزَتُهُ يومٌ وليلةٌ: الجائزةُ هي الإكرامُ الزائدُ عن المعتادِ، معناه أنه يَتَكَلَّفُ له يومًا وليلةً فيزيدُهُ في البِرِّ وفي اليومين الآخَرين يُقَدِّمُ له ما يَحْضُرُه فإذا مَضَىٰ الثلاثُ فقد مَضَىٰ حَقُّهُ وما زادَ عليها فهو صدقةٌ، قولُهُ «والضيافةُ ثلاثةُ أيامٍ»، يُحتملُ أن يريدَ به بعد اليومِ الأَوَّلِ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَدْخُلَ فيه اليومُ والليلةُ.

(٤) يثوي عنده حتىٰ يُحْرِجَهُ: يَثْوِي: أي: يُقيمُ، عنده: عند المضِيفِ، يُحْرِجَهُ، أي: يوقِعَهُ في الحَرَجِ وهو الإثمُ؛ لأنه قد يُكدِّرُه، فيقولُ: هذا الضيفُ ثقيلٌ أو قد ثَقُلَ علينا بطولِ إقامتِهِ أو يَتَعَرَّضُ له بما يُؤْذِيهِ أو يَظُنُّ به ما لا يجوزُ. نيلُ الأوطارِ (١٣/ ٦٣).

(٥) رواهُ البخاريُّ (٥٧٨٤).

(٦) (صحيحٌ)، أخرجَهُ أحمدُ (١٧٤٥٥)، تعليقُ شعيبِ الأرنؤوطِ «حديثٌ حَسَنٌ»، تعليقُ الألبانيِّ «صحيحٌ»، صحيحُ الجامعِ (٧٤٩٢)، الصحيحةُ (٢٤٣٤).

جَلَسْتُ إلىٰ مائةٍ لأَحْبَبْتُ أَنْ أَلْتَمِسَ رِضَىٰ كُلِّ واحدٍ منهم»[١].

والعَرَبُ تقولُ: «مِنْ تمامِ الضيافةِ الطَّلاقَةُ عند أَوَّلِ وهْلَةٍ، وإطالةُ الحديثِ عند المؤاكَلَةِ»[٢].

وقيلَ للأوزاعِيِّ: «ما إكرامُ الضَّيْفِ؟ قال: طَلاقةُ الوَجْهِ، وطِيبُ الكَلامِ»[٣].

قال حاتِمُ الطائيُّ:

سلي الجائعَ الغَرْثانَ يا أمَّ مُنْذِرٍ ... إذا ما أتاني بين ناري ومَجْزَري

هَلَ ابْسُطُ وجهي إنه أَوَّلُ القِرى ... وأَبْذُلُ معروفي له دونَ مُنْكَرِي[٤]

وقال مِسكينُ الدَّارِميُّ:

لحافي لحافُ الضيفِ والبَيْتُ بيتُهُ ... ولم يُلْهِنِي عَنْهُ غزالٌ مُقَنَّعُ[٥]

أُحَدِّثُهُ إنَّ الحديثَ من القِرى ... وتَعْلَمُ نفسي أنَّهُ سوف يَهْجَعُ[٦]

وقال الآخَرُ:

وإني لطلقُ الوجهِ للمُبْتَغِي القِرى ... وإنَّ فِنائي للقِرى لَرَحِيبُ

أُضاحِكُ ضيفي قَبْلَ إنزالِ رَحْلِهِ ... فَيَخْصِبُ عندي والمَكانُ جديبُ

---

(١) بهجةُ المجالسِ (١/ ٤٥).

(٢) البيانُ والتبيينُ للجاحظِ (١/ ١٠).

(٣) روضةُ العُقَلاءِ ص ١٦١

(٤) ديوانُ حاتمٍ دراسةٌ وتحقيقُ د. عادلُ سليمان جمال، (٢٠٢).

(٥) غزالٌ مُقَنَّعٌ: يعني به الزوجَةَ.

(٦) البيانُ والتبيينُ (١/ ١٠).

وما الخِصْبُ للأضيافِ أنْ يَكْثُرَ ... ولكنَّما وَجْهُ الكريمِ خَصيبُ[1]

٤- الشَّجَاعَةُ:

هو الليثُ يمشي والمنايا نوازلٌ ... كأنَّ حِمامَ الموتِ غيثٌ مبشِّرُ[2]

الشَّجاعَةُ سمةٌ من سماتِ الرجولةِ بل الشجاعةُ للرجولةِ كالقَلْبِ للجَسَدِ إذا صَلُحَتْ صَلُحَتْ الرجولَةُ وإذا فَسَدَتْ فَسَدَتْ الرجولةُ.

وَتُعْرَفُ الشَّجَاعَةُ بأنها:

قُوَّةُ القَلْبِ وثباتُهُ وإقدامُهُ علىٰ الأقوالِ والأفعالِ في موضِعِ الإقدامِ بحِكْمَةٍ وحِنْكَةٍ، فإنْ أقْدَمَ عليها في حالٍ لا يَحِلُّ له الإقدامُ قيل لذلك: تَهَوُّرٌ وجراءةٌ وحُمْقٌ وإلقاءٌ بالنَّفسِ إلىٰ التَّهْلُكَةِ، وأما الجُبنُ فهو ضِدُّ الشجاعةِ ويُعرفُ بأنَّهُ: ضَعفُ القَلْبِ وخَوَرُهُ، وَيَتْبَعُ ذلك خَوَرُ الأعمالِ والخَوفُ مما لا يُخافُ، وهيبةُ مَنْ لا يُهابُ، فالشجاعَةُ خُلُقٌ فاضِلٌ جليلٌ بين خُلُقَيْنِ ذَمِيمَيْنِ رَذِيلَيْنِ: بينَ التَّهَوُّرِ، الذي هو غُلُوٌّ وزيادةٌ عن الحَدِّ، وبين الجُبْنِ، الذي هو تَفْرِيطٌ وتقصيرٌ وضَعْفٌ وخَوَرٌ[3]

ولا الشجاعَةُ عن خَسْمٍ ولا جَلَدٍ ... ولا الأمانَةُ إرثٌ عن أبٍ فأبِ
لكنها هِمَمٌ أدَّتْ إلى نُجُحٍ ... في كُلِّ ذاكَ بطَبْعٍ غَيْرِ مُكْتَسِبِ[4]

---

(١) روضَةُ العُقلاءِ ص ١٦١ – ١٦٢.

(٢) قالهُ أُسْتاذُنا – حَفِظَهُ اللهُ –.

(٣) تيسيرُ اللَّطيفِ المَنَّانِ في خلاصَةِ تفسيرِ القرآنِ للسَّعْدِيِّ (٢/ ٣٦٣).

(٤) البصائِرُ والذخائِرُ (٤/ ٩٨).

مَحَلُّ الشَّجَاعَةِ:

فَضْلُ الرجالِ علينا أنْ شيمتَهُمْ ... جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهانُ

والشجاعَةُ محلُّها القَلْبُ؛ لهذا وُصِفَ الجَبَانُ بَأنَّهُ لا قَلْبَ له، لما أُرِيْدَ به المبالغَةُ في وَصْفِهِ بالجُبْنِ

إنَّ الشجاعَةَ في القلوبِ كثيرةٌ ... ووَجَدْتُ شُجْعانَ العُقولِ قليلا(١)

الشجاعَةُ عند العَرَبِ:

فليسَ الفرارُ اليومَ سَهْلًا على ... إذا عُرِفَتْ منه الشَّجاعَةُ بالأَمْسِ

كانت الشجاعَةُ عند العَرَبِ صِنْوَ الكَرَمِ في تَعَشُّقِهِم لها، وافتخارِهم بها..

فهي مَفْخَرَةُ العربيِّ.. وذلك لأنَّ أهلَ الباديةِ بعيدون عن الحاميةِ، يحْمِلونَ السلاحَ دائمًا، يعيشون في العَرَاءِ غيرَ مُحْتَمِين بأسوارٍ وجُدْرانٍ أو أبوابٍ، قال بَعْضُهُم:

أَشُدُّ على الكتيبةِ لا أبالي ... أَحَتْفِي كان فيها أمْ سِواها(٢)

فالشجاعَةُ من الأخلاقِ الفاشيةِ عندَهم لا يعتدُّون بأحَدٍ منهم ما لم تكُنْ فيه، وقد سَهَّلَ علىٰ نفوسِهِم انطباعُ هذا الخُلُقِ فيهم تناقُلُهم حديثَ الشُّجْعانِ، وإقدامُهم في الشدائِدِ حتىٰ فضُلُوا، قال بَعْضُهم:

ومن الدَّليلِ على الشجاعةِ للفتى ... أَثَرُ الجِراحِ بوجْهِهِ والمَقْدَمِ(٣)

---

(١) من رحيق الشِّعْرِ (١٣١).

(٢) التذكرةُ الحمدونيةُ (٤/ ٢١٧).

(٣) دميةُ القصْرِ (١/ ٣٥٨).

كما كانوا يَتناقَلُون حديثَ الجبناءِ وإحجامَهم فيها حتىٰ رَذُلُوا، وكانوا لا يَعْتَدُّونَ بالجَبانِ، ولا يَعُدُّونَهُ شيئًا مذكورًا.

وكان الشِّعْرُ في الشَّجاعةِ والشُّجْعانِ يَفْعَلُ في النفوسِ فِعْلَ السِّحْرِ، فَيَسْتَنْزِلُها من الخَوْفِ علىٰ الحياةِ والهَرَبِ بها إلىٰ الخَوفِ علىٰ الشَّرَفِ حتىٰ تَهُونَ النفوسُ في سبيلِهِ، كَقَولِ عنترةَ وهو أَحَدُ مشهوري شُجْعانِهِمْ:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الحُتُوفُ كأنني ... أصبَحْتُ عن غَرَضِ الحُتُوفِ
فأجَبْتُها إنَّ المنيةَ مَنْهَلٌ ... لا بُدَّ أنْ أُسْقَى بكأسِ المَنْهَلِ
فاقْنِي حياءَ لا أبا لَكِ واعلمي ... أنّي امرؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقْتَلِ(١)

لقاحُ الشجاعةِ:

صحةُ الرأيِ لقاحُ الشجاعةِ، فإذا اجتَمَعا كان النَّصْرُ والظَّفَرُ، وإنْ فُقِدَا فالخُذلانُ والخَيْبَةُ، وإنْ وُجِدَ الرَّأيُ بلا شجاعةٍ فالجُبْنُ والعَجْزُ، وإنْ حَصُلَتْ الشَّجاعةُ بلا رأيٍ فالتَّهَوُّرُ والعَطَبُ.

قال أبو الطيبِ:

الرأيُ قَبْلَ شجاعةِ الشجْعانِ ... هُوَ أوّلٌ وهي المَحَلُّ الثاني
فإذا هما اجتمعا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَتْ من العلياءِ كُلَّ مكانِ(٢)

---

(١) أشعارُ الشُّعراءِ السِّتَّةِ الجاهليِّينَ (٨٢).

(٢) أبو الطيبِ ما لَهُ وما عليه (٩٤).

شجاعة النبي ﷺ:

وجدتك أعطيت الشجاعة حقها ... غداة لقيت الموت غير هيوب[١]

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشْجَعَ النَّاسِ، فَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَىٰ فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لن تُرَعُوا»، قَالَ الْبُخَارِيُّ: اسْتَقْبَلَهُمْ وَقَدِ اسْتَبْرَأَ الْخَبَرَ»[٢].

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: «كَانَ إِذَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَهُوَ كَانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ الْعَدُوِّ مِنَّا»[٣].

فَمَا الشَّجَاعَةُ إِلَّا دونَ نَجْدَتِهِ ... وَمَا الْمَوَاهِبُ إِلَّا دونَ مَا يَهَبُ[٤]

وَالشَّجَاعَةُ تُفَسَّرُ بِشَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: قُوَّةُ الْقَلْبِ وَثَبَاتُهُ عِنْدَ الْمَخَاوِفِ.

وَالثَّانِي: شِدَّةُ الْقِتَالِ بِالْبَدَنِ، بِأَنْ يَقْتُلَ كَثِيرًا، وَيَقْتُلَ قَتْلًا عَظِيمًا.

وَالْأَوَّلُ: هُوَ الشَّجَاعَةُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَيَدُلُّ عَلَىٰ قُوَّةِ الْبَدَنِ وَعَمَلِهِ.

وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ كَانَ قَوِيَّ الْقَلْبِ، وَلَا بِالْعَكْسِ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ الرَّجُلَ الَّذِي يَقْتُلُ كَثِيرًا وَيُقَاتِلُ إِذَا كَانَ مَعَهُ مَنْ يُؤَمِّنُهُ، إِذَا خَافَ أَصَابَهُ الْجُبْنُ، وَانْخَلَعَ قَلْبُهُ.

---

(١) دواوينُ الشِّعرِ العربيِّ (٣٩/ ٣٤٩).

(٢) الْحَدِيثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ فِي: الْبُخَارِيِّ، مُسْلم (١٨٠٣).

(٣) (صحيحٌ)، أخرجهُ أحمد رَقْمَ (١٣٤٦)، وَصَحَّحَه الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِر رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) الحماسة المغربية (١/ ٢٢٧).

وَتَجِدُ الرَّجُلَ الثَّابِتَ الْقَلْبِ، الَّذِي لَمْ يَقْتُلْ بِيَدَيْهِ كَثِيرًا، ثَابِتًا فِي الْمَخَاوِفِ، مِقْدَامًا عَلَىٰ الْمَكَارِهِ. وَهَذِهِ الْخَصْلَةُ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي أُمَرَاءِ الْحُرُوبِ وَقُوَّادِهِ وَمُقَدَّمِيهِ أَكْثَرَ مِنَ الأُولَىٰ؛ فَإِنَّ الْمُقَدَّمَ إِذَا كَانَ شُجَاعَ الْقَلْبِ ثَابِتًا، أَقْدَمَ وَثَبَتَ وَلَمْ يَنْهَزِمْ، فَقَاتَلَ مَعَهُ أَعْوَانُهُ، وَإِذَا كَانَ جَبَانًا ضَعِيفَ الْقَلْبِ ذَلَّ وَلَمْ يُقْدِمْ وَلَمْ يَثْبُتْ، وَلَوْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الشَّجَاعَةِ، الَّتِي هِيَ الْمَقْصُودَةُ فِي أَئِمَّةِ الْحَرْبِ، وَلَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ إِلَّا أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، قَتَلَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ أَحَدًا لَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا. وَكَانَ أَشْجَعَ مِنْ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ، حَتَّىٰ إِنَّ جُمْهُورَ أَصْحَابِهِ انْهَزَمُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَىٰ بَغْلَةٍ، وَالْبَغْلَةُ لَا تَكِرُّ وَلَا تَفِرُّ، وَهُوَ يُقْدِمُ عَلَيْهَا إِلَىٰ نَاحِيَةِ الْعَدُوِّ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

فَيُسَمِّي نَفْسَهُ، وَأَصْحَابُهُ قَدِ انْكَفُّوا عَنْهُ، وَعَدُوُّهُ مُقْدِمٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُقْدِمٌ عَلَىٰ عَدُوِّهِ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ، وَالْعَبَّاسُ آخِذٌ بِعِنَانِهَا.

وَكَانَ عَلِيٌّ - وَغَيْرُهُ - يَتَّقُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ أَشْجَعُ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ قَدْ قَتَلَ بِيَدِهِ، أَكْثَرَ مِمَّا قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ.

شَفَعَ الشَّجَاعَةَ بِالْخُشُوعِ لِرَبِّهِ ... ما أَحسَنَ المِحرابَ في المِحرابِ(١)

شجاعةُ الصديقِ رضي الله عنه:

أيقنتُ أنَّ مِنَ السَّماحِ شجاعةً ... تَدمَى وأنَّ مِنَ الشجاعةِ جُودا(٢)

وَإِذَا كَانَتِ الشَّجَاعَةُ الْمَطْلُوبَةُ مِنَ الأَئِمَّةِ شَجَاعَةَ الْقَلْبِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ أَشْجَعَ

---

(١) مجاني الأدبِ (٦/ ٣١٩).

(٢) أحسنُ ما سمعتُ (٨٥).

مِنْ عُمَرَ، وَعُمَرُ أَشْجَعُ مِنْ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَهَذَا يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُ سِيَرَهُمْ وأَخْبَارَهُمْ؛ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه بَاشَرَ الْأَهْوَالَ الَّتِي كَانَ يُبَاشِرُهَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ آخِرِهِ، وَلَمْ يَجْبُنْ وَلَمْ يَحْرَجْ وَلَمْ يَفْشَلْ، وَكَانَ يُقْدِمُ عَلَىٰ الْمَخَاوِفِ، يَقِي النَّبِيَّ ﷺ بِنَفْسِهِ، يُجَاهِدُ الْمُشْرِكِينَ تَارَةً بِيَدِهِ وَتَارَةً بِلِسَانِهِ وَتَارَةً بِمَالِهِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُقْدِمٌ[1].

لقد أقمتَ مقامًا كان موقِفُهُ ... بَـرْدًا على كَبِدِ العلياءِ سلسالُ

حُـزْتَ الشجاعةَ أفعالًا وتسميةً ... إذْ لم يَرَوِّعْكَ آسادٌ وأصلالُ[2]

أسبابُ الشجاعةِ:

الذي يَبْعَثُ علىٰ الشجاعةِ والإقدامِ هو الإيمانُ باللهِ؛ لأنَّهُ يَمْلَأُ قَلْبَ المؤمِنِ بالخوفِ من اللهِ، والخَشْيَةِ له، وتعظيمِهِ، وإجلالِهِ.

والإيمانُ بالقَدَرِ - أيضًا -؛ لِأَنَّهُ يَبْعَثُ فِي القلوبِ الشجاعةَ علىٰ مواجَهَةِ الشدائِدِ، ويُقَوِّي فيها العزائِمَ فَتَثْبُتُ في ساحاتِ الجهادِ ولا تخافُ الموتَ؛ لأنها توقِنُ أنَّ الآجالَ محدودةٌ لا تَتَقَدَّمُ ولا تتأَخَّرُ لحظةً واحدةً.

وكُلُّ واحدٍ نصيبُهُ من الشجاعةِ علىٰ قَدْرِ نصيبِهِ من الإيمانِ باللهِ وتوحيدِهِ

وما في الشجاعةِ حَتْفُ الشُّجاعِ ... ولا مَدُّ عُمْرَ الجبانِ الجُبْنُ[3]

٥- الشهامةُ:

مهما امْتُحِنْتَ فأنتَ أنتَ شهامةٌ ... وسمُوُّ أهدافٍ وكَسْبُ مفاخِرِ

---

(١) انظر «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٧).

(٢) النكتُ العصريةُ (٣١٩).

(٣) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (١٩/ ٢٢٧).

الشهامةُ سمةٌ من سماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ بل هي روحُ الرجولةِ ونَفحةٌ من نَفَحاتِها ومَنْ لا شهامةَ لَهُ لا رجولَةَ لَهُ وتعرَفُ الشهامةُ أنَّها: (عِزَّةُ النَّفسِ وحرصُها على مباشرةِ أمورٍ عظيمةٍ تَستَتْبِعُ الذِّكْرَ الجميلَ)[1]. كما قيل:

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ... فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ[2]

الحَثُّ على الشهامةِ:

حَثَّ اللهُ ﷻ المؤمنين على الشهامةِ ورغَّبَهُم فيها، فقال ﷻ: {وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾} [النساء: ١٠٤].

قال السعديُّ: (ذَكَرَ - سبحانه - ما يُقَوِّي قلوبَ المؤمنين، فَذَكَرَ شيئين:

الأولَ: أنَّ ما يصيبُكم من الألمِ والتَّعَبِ والجِراحِ ونحوِ ذلك فإنه يصيبُ أعداءَكُمْ، فليس من المُروءةِ الإنسانيةِ والشهامةِ الإسلاميةِ أن تكونوا أضْعَفَ منهم، وأنتم وهم قد تساويتم فيما يوجبُ ذلك؛ لأنَّ العادةَ الجاريةَ لا يَضْعُفُ إلا مَنْ توالَتْ عليه الآلامُ وانتصرَ عليه الأعداءُ على الدوامِ، لا مَنْ يُدالُ مَرَّةً، ويَدالُ عليه أُخرى)[3].

فيا عُظْمَ شوقي إلى الفاتحين ... رجالِ الشهامةِ والأريحيَّةْ

ويا عُظْمَ شوقي إلى العاقدين ... مع اللهِ تلك العقودَ الوفيَّةْ[4]

---

(١) «المعجمُ الوسيطُ» لإبراهيم مصطفى، وآخرين (ص: ٤٩٨).

(٢) أشعارُ الشعراءِ الستةِ الجاهليين (١١٢).

(٣) «تيسير الكريمِ الرحمنِ في تفسيرِ كلامِ المنانِ» للسعديِّ (ص: ١٩٩).

(٤) ديوانُ محمدِ العيدِ خليفة (٣٨١).

صورٌ من شهامةِ الرِّجالِ

١- شهَامةُ موسىٰ - عليه الصلاةُ والسلامُ -:

وهَبٌ كما هَبَّ الحُسامُ شهامةً   وعَبٌّ كما عَبَّ الخِضَمُّ تبرُّعا(١)

ذكر اللهُ ﷻ شهامةَ نبيِّهِ وكليمِهِ موسىٰ - عليه الصلاةُ والسلامُ - في كتابِهِ، فقال: { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾} [القصص: ٢٣ - ٢٤].

قال الحجازيُّ: (فثارَ موسىٰ، وتحركَتْ فيه عوامِلُ الشَّهامةِ والرجولةِ، وسَقَىٰ لهما، وأدْلَىٰ بِدَلْوِهِ بينَ دِلاءِ الرِّجالِ حتىٰ شَرِبَتْ ماشِيَتُهما)(٢).

شَهامةُ نَفْسٍ في سَلامةِ مَذْهَبٍ   كما الماءُ للرّاحِ الشَّمولِ قِطابُ(٣)

٢- شهامةُ النبيِّ ﷺ:

إنْ حَلَّ فهو مِنَ الجلالةِ مَحفِلٌ   أو سار فهو من الشَّهامةِ جَحفَلُ(٤)

كان للنبيِّ ﷺ النصيبُ الأَوْفَىٰ من هذه الصِّفَةِ، فكان - صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه - كما قال خَدَّامُهُ أنسٌ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ الناسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ

(١) نزهةُ الأبصارِ (٥٨).

(٢) «التفسيرُ الواضِحِ» للحجازيِّ محمدِ محمود (٢/ ٨٢٥).

(٣) ديوانُ ابنِ زيدونَ (١١٣).

(٤) ديوانُ السريِّ الرفاءِ (٧٣٨).

النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: «لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا» وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: «لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا - أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ»(١).

قال القرطبيُّ: (في هذا الحديثِ ما يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان قد جُمِعَ له من جَوْدَةِ ركوبِ الخَيْلِ، والشجاعةِ، والشهامةِ، والانتهاضِ الغائيِّ في الحروبِ، والفروسيَّةِ وأهوالِها، ما لم يَكُنْ عند أحَدٍ من الناسِ؛ ولذلك قال أصحابُهُ عنه: إنَّهُ كان أشجَعَ الناسِ، وأجرأ الناسِ في حالِ الباسِ؛ ولذلك قالوا: إنَّ الشجاعَ منهم كان الذي يلوذُ بجَنَابِهِ إذا التَحَمَتْ الحروبُ، وناهيكَ به؛ فإنَّهُ ما ولَّى قطُّ مُنْهَزِمًا، ولا تحدَّثَ أحَدٌ عنه قَطُّ بِفِرارٍ)(٢).

٣ - شهامةُ الصحابةِ:

رأفــةٌ فــي شــهامة وعفــافِ ... في اقتدارٍ وسطوةٍ في حياءِ(٣)

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَبَايَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا وَكَانَتْ امْرَأَةً حُلْوَةً مُلَّاحَةً(٤) لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ فَأَتَتْ رَسُولَ ﷺ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٠٤٠)، واللفظُ له ومسلمٌ (٢٣٠٧).

(٢) «المفهمُ لما أشْكَلَ من تلخيصِ كتابِ مسلمٍ» للقرطبيِّ (٦/ ١٠٠).

(٣) ديوانُ ابنِ القيسرانيِّ (٨).

(٤) مُلَّاحةِ: بضمِّ الميمِ وتشديدِ اللامِ: أي شديدَةَ المَلَاحةِ وهو من أبنيةِ المبالغةِ، انظر: النهايةَ في غريبِ الحديثِ لابنِ الأثيرِ (٤/ ٣٥٥)، وَكَنَّتْ به عائشةُ عن جَمالِها.

والمُلَّاحُ أَبْلَغُ مِنَ المَلِيحِ فِي كَلَامِ العَرَبِ، وَكَذَلِكَ الوَضَّاءُ أَبْلَغُ مِنَ الوَضِيءِ.

فهو مُسْتَعارٌ مِنْ قَوْلِهِمْ طَعَامٌ مَلِيحٌ إذا كَانَ فِيهِ مِنَ المِلْحِ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ؛ وَلَذَلِكَ إِذَا بَالَغُوا في =

تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِي فَكَرِهْتُهَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَرَىٰ مِنْهَا مَا رَأَيْتُ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ فَكَاتَبْتُهُ عَلَىٰ نَفْسِي فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَىٰ كِتَابَتِي، قَالَ: «فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟» قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ»، قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ»، قَالَتْ: وَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَىٰ النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ، قَالَتْ: فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَىٰ قَوْمِهَا مِنْهَا»[1]

= الْمَدْحِ، قَالُوا: مَلِيحٌ قَزِيحٌ، فَمَلِيحٌ مِنْ مَلَحْتَ الْقِدْرَ وَقَزِيحٌ مِنْ قَزَحْتَها إذا طَيَّبْتَ نَكْهَتَهَا بِالْأَفَاوِيهِ وَهِيَ الْأَقْزَاحُ وَبِذَلِكَ عَلَىٰ بُعْدِ هَذَا الْمَعْنَىٰ مِنَ الْبَيَاضِ قَوْلُهُمْ فِي الْأَسْوَدِ مَلِيحٌ، وَفِي الْعَيْنَيْنِ إِذَا اشْتَدَّ سَوَادُهُمَا وَحُسْنُهُمَا قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الْحُسْنُ فِي الْعَيْنَيْنِ وَالْجَمَالُ فِي الْأَنْفِ وَالْمَلَاحَةُ فِي الْفَمِ، وَقَالَتْ امْرَأَةُ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ لِبَعْلِهَا: إِنَّكَ لَجَمِيلٌ يَا أَبَا صَفْوَانَ، فَقَالَ: وَكَيْفَ وَلَيْسَ عِنْدِي رِدَاءُ الْجَمَالِ وَلَا بُرْنُسُهُ وَلَا عَمُودُهُ؟ ثُمَّ قَالَ: عَمُودُهُ الطُّولُ وَأَنَا رَبْعَةٌ، وَبُرْنُسُهُ سَوَادُ الشَّعْرِ وَأَنَا أَشْمَطُ، وَرِدَاؤُهُ الْبَيَاضُ، وَأَنَا آدَمُ، وَلَكِنْ قُولِي: إِنَّكَ مَلِيحٌ ظَرِيفٌ.

فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمَلَاحَةَ قَدْ تَكُونُ مِنْ صِفَةِ الْأُدْمِ، فَهِيَ إِذَنْ لَيْسَتْ مِنْ مَعْنَىٰ الْبَيَاضِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ ضِدُّ الْمَسَاسَةِ.

وقال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ كما في صيدِهِ (٣٨٠): «الفَرْقُ بين الجميلةِ والمليحةِ: أنَّ الجميلةَ هي التي تأخُذُ البَصَرَ عن بعد فإذا دَنَتْ لم تَكُنْ كَذَلِكَ، والمليحةُ هي التي كلما كَرَّرْتَ فيها بَصَرَكَ ازدادتْ حُسْنًا».

(١) مسندُ أحمدَ (٢/ ٢٧٧) وأبو داودَ (٢/ ٧٤٥)، وأبو داودَ (٢/ ٧٤٥)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في صحيحِ أبي دواد (٣٩٣١)، والوادعيُّ في الصحيحِ المُسْنَدِ مما ليس في الصحيحين (١٦٢٠).

فتأمَّلْ إلىٰ شهامةِ الصحابةِ فقد أَعْتَقُوا حين علموا بزواجِ النبيِّ ﷺ من جويرة فأعْتقوا كُلَّ الأَسْرَىٰ من قبيلتِها، وهذا يعكِسُ أَثَرَ الشهامةِ لديهم كما يعكسُ أَثَرَ النَّسَبِ (المصاهرةِ) في حِسِّ العَرَبِ

إنَّ الفضيلةَ في الأنامِ غَدَتْ على ... شَرَفِ النفوسِ الشُّمِّ أقوى حجَّةِ

فإذا ادعيتَ بأنَّ أصلَكَ يا فتى ... من سادةِ الأبطالِ أهلِ الهمَّةِ

أوْضِحْ لنا نورَ الشهامةِ مِثْلَهم ... وعلى رفيعِ المجدِ أحسنَ غيرةِ[1]

شهامةُ عُمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه:

علىٰ السيفِ مِن تِلكَ الشهامةِ ... وفي الروضِ من تلك الطلاقةِ زُخْرفُ[2]

عَنْ أَسْلَمَ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِلَىٰ السُّوقِ، فَلَحِقَتْ عُمَرَ امْرَأَةٌ شَابَّةٌ، فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلَكَ زَوْجِي، وَتَرَكَ صِبْيَةً صِغَارًا، وَاللهِ مَا يُنْضِجُونَ كُرَاعًا[3]، وَلَا لَهُمْ زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ[4]، وَخَشِيتُ أَنْ تَأْكُلَهُمُ الضَّبُعُ[5] وَأَنَا بِنْتُ خُفَافِ بْنِ إِيمَاءَ الْغِفَارِيِّ، وَقَدْ شَهِدَ أَبِي الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَقَفَ مَعَهَا عُمَرُ وَلَمْ يَمْضِ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِنَسَبٍ قَرِيبٍ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَىٰ بَعِيرٍ ظَهِيرٍ[6] كَانَ مَرْبُوطًا فِي الدَّارِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ غِرَارَتَيْنِ مَلأَهُمَا طَعَامًا، وَحَمَلَ بَيْنَهُمَا نَفَقَةً وثِيَابًا، ثُمَّ نَاوَلَهَا

---

(١) تاريخُ الآدابِ العربيةِ (٨٧).

(٢) ديوانُ ابنِ زيدونَ (٣١).

(٣) الكُراعُ بضمِّ الكافِ: ما دونَ الكَعْبِ من الشاةِ.

(٤) ولا لهم ضِرْعٌ: ليس لهم ما يَحْلُبونهُ.

(٥) الضَّبُعُ: السَّنَةُ المُجْدِبةُ، ومعنىٰ تأكُلُهم: تُهلِكُهُمْ.

(٦) بعيرٌ ظهيرٌ: أي: قويُّ الظهرِ مُعَدٌّ للحاجةِ.

بخطامِهِ، ثُمَّ قَالَ: اقْتَادِيهِ، فَلَنْ يَفْنَىٰ حَتَّىٰ يَأْتِيَكُمُ اللهُ بِخَيْرٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْثَرْتَ لَهَا، قَالَ عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَاللهِ، إِنِّي لأَرَىٰ أَبَا هَذِهِ، وَأَخَاهَا، قَدْ حَاصَرَا حِصْنًا زَمَانًا، فَافْتَتَحَاهُ، ثُمَّ أَصْبَحْنَا نَسْتَفِيءُ سُهْمَانَهُمَا فِيهِ[1].

لكَ فِي الشهامةِ والصرامةِ موقفٌ ... لصفاتِهِ إعجازُ كُلِّ مُفَوَّهِ

أَهَبُ الثَّنَاءَ لِمَجْدِ بَيْتِكَ طَائِعًا ... وأبيعُهُ لسواكَ بَيْعَ الْمُكْرَهِ

شهَامَةُ الشريفِ المُرْتَضَىٰ:

ومن عجائبِ الشهامةِ الحَقَّةِ ما ذَكَرَهُ [الخطيبُ التبريزيُّ] اللغويُّ أَنَّ [أبا حَسَنٍ الفاليَّ]: وهو من أئمةِ اللغةِ والأدبِ أنَّه كانَ يَقْتَنِي نسخةً من الجمهرةِ بِخَطِّ مؤلِّفها أبي بكرِ بنِ دُريدٍ وكان قد أُعطِيَ بها ثلاثمائةِ مِثْقالٍ فأبَىٰ ولمْ يقبلْ ثمَّ اشْتَدَّتْ به الحاجَةُ حتىٰ اضطَرَّتْهُ أنْ يبيعَها بأربعين مثقالًا إلَّا أنَّ الذي اشْتراها - وهو الشريفُ المرتَضَىٰ - أعادَها له ومَعَها أربعون دينارًا مَنَحَهُ إياها بباعِثِ الشهامةِ والمروءةِ ومكارِمِ الأخلاقِ حيثُ رأىٰ عليها بخَطِّه هذه الأبياتَ:

أَنِسْتُ بِهَا عِشْرِينَ عَامًا وبِعْتُهَا ... وقَدْ طَالَ وَجْدِي بَعْدَهَا وحَنِينِي

ومَا كَانَ ظَنِّي أنني سأبيعُهَا ... وَلَو خَلَّدتْني فِي السُّجونِ دُيُونِي

وَلَكِنْ لعجزٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ ... صِغارٍ علَيْهِمْ تَستهلُّ شُئُونِي

فقُلْتُ وَلم أمْلِك سَوابقَ عَبْرَتِي ... مقَالةَ مَكْويِّ الفؤادِ حَزِينِ

وقَدْ تُخْرِجُ الحاجَاتُ يَا أُمَّ مالِكٍ ... كَرائمَ مِنْ رَبٍّ بِهِنَّ ضَنِينِ[2]

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٤١٦٠). ونستفي سهمانَنا أي: نسترجعُ أنصباءَنا من الغنيمِ.

(٢) انظر المنتظَم (١٦/ ١٠)، وتاجَ العروسِ (١/ ٣٩).

٦- الوفاءُ:

نحفظ العهدَ ونقضي من غدر إنما الدينُ عهودٌ وذمم[١]

الوفاءُ سمةٌ من سماتِ الرجولةِ ويُعرفُ بأنَّهُ ضِدُّ الغدرِ وهو الصَّبْرُ على ما يبذلُهُ الإنسانُ من نفسِهِ ويَرْهَنُ به لسانَهُ، والخروجُ مما يَضمَنُهُ وإن كان مُجحفًا به[٢].

الفَرْقُ بين الوفاءِ والصِّدْقِ:

(قِيلَ: هما أعَمُّ وأخَصُّ، فَكُلُّ وفاءٍ صِدْقٌ، وليسَ كُلُّ صدقٍ وفاءً.

فإنَّ الوفاءَ قد يكونُ بالفِعْلِ دونَ القَوْلِ، ولا يكونُ الصدقُ إلا في القَولِ؛ لأنه نوعٌ من أنواعِ الخَبَرِ، والخَبَرُ قَوْلٌ)[٣].

منزلةُ الوفاءِ:

إنَّ الوفـاءَ علـى الكـريمِ فريضَـةٌ واللـوْمُ مقرونٌ بـذي الإخـلافِ[٤]

الوفاءُ خُلُقٌ ملاصِقٌ للرجولةِ بدونِهِ تَفْقِدُ الرجولةُ روحَها، فهو أخو الصِّدْقِ والعدلِ، والغَدْرُ أخو الكَذِبِ والجَوْرِ، وذلك أنَّ الوفاءَ صِدْقُ اللسانِ والفِعْلِ معًا، والغَدْرَ كَذِبٌ بهما؛ لأنَّ فيه مع الكَذِبِ نَقْضَ العَهْدِ.

والوفاءُ يَخْتَصُّ بالرجولةِ فَمَنْ فُقِدَ فيه فَقَدْ انْسَلَخَ من الرجولةِ كالصِّدْقِ.

---

(١) ديوانُ أحمدُ محرم (٤٧١).

(٢) «تهذيبُ الأخلاقِ» للجاحظِ (ص: ٢٤).

(٣) «الفروقُ اللغويةُ» لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص: ٥٧٥).

(٤) من رحيقِ الشعرِ (٢١٥).

وقد جعلَ اللهُ ﷻ العَهْدَ من الإيمانِ وصَيَّرَهُ قوامًا لأمورِ الناسِ، فالناسُ مُضطرُّونَ إلى التعاونِ ولا يتِمُّ تعاونُهم إلا بمراعاةِ العَهْدِ والوفاءِ، ولولا ذلك لتنافرتْ القلوبُ وارتفعَ التعايُشُ؛ ولذلك عظَّمَ اللهُ ﷻ أمرَهُ فقالَ ﷻ: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٤٠} [البقرة: ٤٠]، وقال ﷻ: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ} [النحل: ٩١](١).

وقال اللهُ ﷻ: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝١٧٧} [البقرة: ١٧٧]، وقال ﷻ: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧٦} [آل عمران: ٧٦].

صُوَرٌ مِنْ وفاءِ النبيِّ ﷺ:

هِمَمِـي معلَّقـةٌ عليـك رِقابُهـا ... مغلولـةٌ إن الوفـاءَ إسـارُ(٢)

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ قال: اسْتَقْرَضَ مِنِّي النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعِينَ أَلْفًا فَجَاءَهُ مَالٌ فَدَفَعَهُ إِلَيَّ، وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْحَمْدُ وَالأَدَاءُ(٣).

فقد وَفَّىٰ له وزادَ أن أتبَعَ الوفاءَ بالشُّكرِ والحَمْدِ.

ومن وفائِهِ ﷺ لزوجِهِ خديجةَ ﵂:

ذَكَـرَ الحبيـبُ حبيبَـهُ ففـؤادُهُ ... مثلُ الجناحِ من الصبابةِ يَخْفِقُ(٤)

---

(١) «الذريعةُ إلىٰ مكارمِ الشريعةِ» (ص: ٢٩٢).

(٢) أبو الطيبِ ما له وما عليه (٣٦).

(٣) (صحيحٌ)، أخرجَهُ النسائيُّ (٧/ ٣١٤)، وابنُ ماجةَ (٢٤٢٤)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الجامعِ» (٢٣٥٣).

(٤) أمالي القالي (١٦٦).

كانَ ﷺ يُكرِمُ صديقاتِ زوجَتِهِ خديجةَ رضي الله عنها بعد موتِها، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِالشَّيْءِ، يَقُولُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى بَيْتِ فُلانَةَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ خَدِيجَةَ(١).

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «ما غِرْتُ على أحدٍ من أزواجِ النبيِّ ﷺ ما غِرْتُ على خديجةَ، وما بِيَ أنْ أكونَ أدْرَكْتُها، وما ذاكَ إلا لِكَثْرَةِ ذِكْرِ رسولِ اللهِ ﷺ لها، وإنْ كان لَيَذْبَحُ الشَّاةَ، فَيَتَتَبَّعُ بها صدائِقَ خديجةَ، فيُهْدِيها لَهُنَّ»(٢).

يـا مـن يُسـائلُ أيـنَ حـلَّ حبيبُـهُ جهـلًا ويتركُـهُ لبعـدِ مـزارِهِ
لـو كـان قلبُـك صـادقًا فـي حبِّـهِ رَحلتْ بِكَ الأشواقُ في آثارِهِ(٣)

الغَدْرُ:

لا تـركَنَنَّ إلـى مَـنْ لا وفـاءَ لـه الذئبُ مِن طبعِهِ إنْ يقتَدِرْ يَثِبِ(٤)

الغَدْرُ ضِدُّ الوفاءِ، وقد جاءَ في الحديثِ أنَّهُ لَيُرْفَعُ لِكُلِّ غادِرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ يُعْرَفُ به، وهذا غايةُ السُّقوطِ ونهايةُ الخُذْلانِ - نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ -.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إذا جَمَعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخِرِين يَوْمَ القِيامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غادرٍ لِوَاءٌ، فقيل: هَذِه غَدْرَةُ فُلَانِ بنِ فلانٍ»(٥).

---

(١) (حَسَنٌ) رواهُ البخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٢٣٢)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الأدبِ المُفْرَدِ» (١٧٢).

(٢) (صحيحٌ) رواهُ الترمذيُّ (٤/ ٣٦٩)، وقال: حَسَنٌ صحيحٌ غريبٌ، وصحَّحهُ الألبانيُّ في «صحيح الترمذيِّ» (٢٠١٧).

(٣) المُحِبُّ والمحبوبُ (٥٢).

(٤) من رحيق الشعر (٢٧٧).

(٥) رواهُ مُسلمٌ (١٧٣٥).

قال القرطبيُّ: (هذا خِطابٌ منه للعَرَبِ بِنَحْوِ ما كانت تَفْعَلُ؛ لأنَّهم كانوا يَرْفَعون للوفاءِ رايةً بيضاءَ، وللغَدْرِ رايةً سوداءَ لِيَلُوموا الغادِرَ وَيذُمُّوهُ، فاقْتَضَى الحديثُ وقوعَ مِثْلِ ذلك للغادِرِ لَيَشْتَهِرَ بصفتِهِ في القيامةِ فَيَذُمَّهُ أهلُ الموقِفِ)[1].

عِشْ ألفَ عامٍ للوفاءِ وَقلَّما ... سادَ امرؤٌ إلا بِحِفْظِ وفائِهِ
لَصَلاحِ فاسِدِهِ وشَعبِ صدوعِهِ ... وبيانِ مُشْكِلِهِ وكشفِ غِطائِهِ[2]

ذَمُّ الغَدْرِ:

سَجايا كلُّها غدرٌ وخُبثٌ ... تَوارَثَها أُناسٌ عن أُناسِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[3].

ولْيَحْذَرِ الرجُلُ من إخلافِ الوَعدِ ولو بِكلمةٍ؛ لأنَّ ذلكَ أمارةُ النفاقِ وَخَدْشٌ في جِدارِ الرجولةِ

إذا قلتَ في شيءٍ «نَعَمْ» فأتِمَّهُ ... فإنَّ «نَعَمْ» دَينٌ على الحُرِّ واجِبُ
وإلَّا فقُلْ «لا» واسْتَرِحْ وأَرِحْ بها ... لكيلا يقولَ الناسُ إنكَ كاذِبُ[4]

---

(١) «فتحُ الباريِّ» لابنِ حَجَرٍ (٦/ ٢٨٤).

(٢) دميةُ القَصْرِ وَعَصْرَةُ أهلِ العَصْرِ (١/ ٦٥٨).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٣٤)، ومسلمٌ (٥٨).

(٤) العقدُ الفريد (١/ ٢٠٥).

صُوَرٌ من الوفاءِ:

ومن المُثُلِ العاليةِ للوفاءِ المَتِينِ وفاءُ الوزيرِ الوليدِ بنِ عبد الرحمنِ بنِ غانمٍ للوزيرِ هاشِمِ بنِ عبد العزيزِ.

نقرأُ في تاريخِ الأندلُسِ أنَّ الوزيرَ هاشِمًا بَعَثَهُ السلطانُ محمدُ بنُ عبد الرحمنِ الأمويُّ علىٰ رأسِ جيشٍ، فَوَقَعَ هذا الوزيرُ أسيرًا في يدِ العَدُوِّ، وجرىٰ ذِكْرُهُ يومًا في مَجْلِسِ السلطانِ محمدِ بنِ عبد الرحمنِ، فاسْتَقْصَرَهُ السلطانُ، ونَسَبَهُ للطَّيْشِ والعَجَلَةِ والاستبدادِ بالرأيِ، فلم يَنْطِقْ أحَدٌ من الحاضِرِين في الاعتذارِ عنه بكلمةٍ، ما عدا صديقَهُ الوليدَ؛ فإنه قال: «أصلحَ اللهُ ﷻ الأميرَ، إنَّهُ لم يَكُنْ علىٰ هاشِمٍ التَّخَيُّرُ في الأمورِ، ولا الخروجُ عن المقدورِ، بل قد استعملَ جَهْدَهُ، واستفرغَ نُصْحَهُ، وقَضَىٰ حَقَّ الإقدامِ، ولم يَكُنْ مَلاكُ النَّصْرِ بيدِهِ، فَخَذَلَهُ مَنْ وَثِقَ بِهِ وَنَكَلَ عنه من كان مَعَهُ، فلَمْ يُزَحْزِحْ قَدَمَهُ عن موطِنِ حِفاظِهِ، حتىٰ مُلِكَ مُقْبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ، مُلَبِّيًا غيرَ فَشِلٍ، فجُوزِيَ خيرًا عن نفسِهِ وسلطانِهِ، فإنه لا طريقَ للمَلامَةِ عليه، وليسَ عليه ما جَنَتْهُ الحَرْبُ الغَشُومُ.

وأيضًا فإنَّه ما قَصَدَ أنْ يجودَ بِنَفْسِهِ إلا رِضًا للأميرِ، واجتنابًا لِسَخَطِهِ، فإذا كان ما اعْتَمَدَ فيه الرضا جالبَ التقصيرِ، فذلك معدودٌ في سُوءِ الحَظِّ».

وقع هذا الاعتذارُ من السلطانِ موقعَ الإعجابِ، وشَكَرَ للوليدِ وفاءَهُ لهاشِمٍ، وَتَرَكَ تفنيدَ هاشِمٍ، وسَعَىٰ في تَخْلِيصِهِ.

ووصلَ خَبَرُ هذا الاعتذارِ إلىٰ هاشِمٍ، فَكَتَبَ خطابَ شُكْرٍ للوليدِ ومِمَّا يقولُ في هذا الخطابِ: «الصديقُ من صَدَقَكَ في الشِّدَّةِ لا في الرخاءِ، والأخُ من ذَبَّ عَنْكَ في الغَيْبِ لا في المَشْهَدِ، والوفيُّ من وَفَىٰ لك إذا خانَكَ زمانٌ».

ومما جاء في هذا الخطاب من الشِّعرِ:

أيا ذاكري بالغيبِ في مَحْفَلٍ به ... تَصَامَتَ جَمْعٌ عن جوابٍ به
أَتَتْنِيَ والبيداءُ بيني وبينها ... رُقَى كلماتٍ خلَّصَتْني من الأَسْرِ
لَئِنْ قَرَّبَ اللهُ اللقاءَ فإنَّني ... سأَجْزِيكَ ما لا يَنْقَضِي غابرَ الدَّهْرِ

فكتبَ إليه الوليدُ جوابًا يقولُ فيه:

«وَصَلَنِي شُكْرُكَ علىٰ أنْ قُلْتُ ما عَلِمْتَ، ولم أَخْرُجْ عن النُّصْحِ للسلطانِ بما ذَكَرْتُهُ للسلطانِ مِنْ ذلك، واللهُ ﷻ شاهِدٌ علىٰ أنّي أَتَيْتُ ذلك في مجالِسٍ غيرِ المَجْلِسِ المنقولِ إلىٰ سَيِّدي، إنْ خَفِيَتَ عن المخلوقِ فما تَخْفَىٰ عن الخالِقِ، ما أَرَدْتُ بها إلا أداءَ بعضِ ما أَعْتَقِدُهُ لك، وكَمْ سَهِرْتَ وأنا نائمٌ، وقُمْتَ في حَقِّي وأنا قاعِدٌ، واللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ من أَحْسَنَ عَمَلًا»[1].

٧- مراعاةُ الذِّمامِ:

ونحنُ على العَهْدِ نَرْعَى الذِّمامَ ... وعَهْدُ المُحِبِّين لا يَنْقَضِي

من الرجولةِ مراعاةُ الذِّمامِ؛ فالرَّجُلُ لا يصيرُ رَجُلًا ما لَمْ تَكُنْ فيه هذهِ الخِلَّةُ.

و (الذِّمَامُ) الْعَهْدُ والأمانُ وَالْكَفَالَةُ والْحَقُّ وَالْحُرْمَةُ[2].

وقيل: الذِّمَامُ والذِّمَامَةُ: كُلُّ حُرْمَةٍ تَلْزَمُكَ مَذَمَّةٌ إذا ضَيَّعْتَها، وأَهْلُ الذِّمَّةِ من ذلك. ورَعَيْتُ ذِمَّ فلانٍ: أي ذِمَّتَه. ووَفَىٰ فلانٌ بما أَذَمَّ: أي ما أعطىٰ من الذِّمَامِ[3].

---

(١) الصداقةُ بينَ العلماءِ لمحمدِ الحَمَدِ (٣١ - ٣٢).

(٢) المعجمُ الوسيطُ (١/ ٣٥١).

(٣) المحيطُ في اللغةِ (٢/ ٣٩٦).

ذَمَّ اللهُ ﷻ من لا يُراعي الذِّمَامَ.

قال اللهُ ﷻ: {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾} [التوبة: ٨] أي: لا يراعونَ فيكم قَرابةً ولا عهدًا.

قال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «{يَرْقُبُوا} معناه: يَحْفَظُوا ويُرَاقِبُوا ويُرَاعُوا.

والذمَّةُ: مَعْنَاهُ العَهْدُ، وكُلُّ ما تَجِبُ المحافظةُ عليه ويُؤَاخَذُ بِنَكْثِهِ تُسَمِّيهِ العَرَبُ (ذِمَّةً). وهو هنا: العَهْدُ، وهذا معنىٰ قولِهِ: {لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً}، {يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ} يعني: يَبْذلون لكم الكلامَ الطَّيِّبَ الحُلْوَ باللِّسانِ دونَ ما في القلوبِ؛ لأنَّ ما في قلوبِهم من البُغْضِ وإضمارِ العداوةِ والشَّحْناءِ لا يُساعِدُ وما تجري به ألسنتُهم، فالألْسِنَةُ تقولُ شيئًا وما تَنطَوِي عليه الصُّدُورُ شيءٌ آخَرُ»[1].

قُلْتُ: هكذا أصبحَ حالُ أشباهِ الرجالِ في زمانِنا فإلىٰ اللهِ المُشْتَكَىٰ.

إلى اللهِ أشكو منهُمْ عهدَ مَعْشَرٍ ... تَحايدَ عن حِفظِ الذِّمامِ ذمائمُهْ

إذا سرَّ منهم ظاهرٌ ساءَ باطنٌ ... تَدِبُّ إلى نهشِ الصَّديقِ أراقمُهْ[2]

ذِمَّةُ المسلمين واحدةٌ:

فإنّا لا نُضيعُ لنا ذِمامًا ... ولا حَسَبًا إذا ضاعَ الذِّمامُ

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ «ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا

---

(١) العَذْبُ النميرُ (٥/ ٢٩٤).

(٢) القاموسُ الفِقْهِيُّ (١٣٨).

فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ...»(١).

قوله: ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ أي: أمانُهم صحيحٌ فإذا أَمَّنَ واحدٌ منهم الكافِرَ حَرُمَ علىٰ غيرِهِ التَّعَرُّضُ له.

سواءٌ أكان المسلمُ رَجُلًا، أو امرأةً، حرًّا، أو عبدًا، شريفًا أو وضيعًا؛ لأنَّ المسلمين كنَفْسٍ واحدةٍ.

صونوا الذمامَ فإنَّ الحُرَّ مَنْ صانا ... وَجَدِّدوا من قديمِ العَهْدِ ما كانا(٢)

الوصيةُ بحِفْظِ الذِّمامِ:

عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ(٣)، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا، فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِمًا»(٤).

قال النوويُّ: «وَأَمَّا الذِّمَّةُ فَهِيَ الْحُرْمَةُ وَالْحَقُّ وَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى الذِّمَامِ، وَأَمَّا الرَّحِمُ فَلِكَوْنِ هَاجَرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ وَأَمَّا الصِّهْرُ فَلِكَوْنِ مَارِيَةَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُمْ»(٥) وتلك مَنْقَبَةٌ لأهْلِ مِصْرَ قال شاعِرُهُم:

تلكَ الوفودُ من المشارِقِ أقْبَلَتْ ... تَقْضِي الذمامَ لقومِها والآلِ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (١٨٧٠).

(٢) ديوانُ أحمد محرم (٩٩٦).

(٣) (القيراطُ) قال العلماءُ: القيراطُ جزءٌ من أجزاءِ الدينارِ والدرهَمِ وغيرِهما، وكان أهلُ مِصْرَ يُكثِرون من استعمالِهِ والتكلُّمِ بِهِ.

(٤) مسلمٌ «٢٥٤٣» «٢٢٦».

(٥) شرحُ مسلمٍ «١٦/ ٩٧».

من كُلِّ واضحةِ الجبينِ يزينُها ... بَأسُ الكُماةِ ونجدةُ الأبطالِ(١)

والذِمَّةُ لا تَقتَصِرُ علىٰ أهلِ الذِّمَّةِ بل شاملةٌ جميعَ الخَلْقِ وأحَقُّ النَّاسِ بالتَّذَمُّمِ القريبُ والجارُ والصاحِبُ ومَنْ له حَقٌّ كالشَّيْخِ والمعلمِ ومَنْ له عندك يَدٌ سالفةٌ ولا يقومُ بذلك إلا الرجالُ الذين كَمُلَتْ أهليَّتُهم ورَسَخَتْ في ميدانِ الرجولةِ أقدامُهم.

فمِنْ أدنى مراتِبِكَ المعالي ... ومِنْ أسنَى مواهِبِكَ الذِّمامُ(٢)

وقال آخرُ:

هل المروءةُ إلَّا ما تقومُ به ... من الذمامِ وحِفظِ الجارِ إنْ عَتَبا

وحتى الضيفُ تقضي ذِمامَهُ مَلِكًا ... إذا حَضَرَ أسيرًا إذا نَزَلَ شاعرًا إذا

فارْعَ الذِّمامَ وكُنْ بضيفِكَ طَالِبًا ... إنَّ الذمامَ على الكَريمِ مُؤيَّدُ

وحتىٰ مَنْ بينَك وبينَه معرفةٌ سالفةٌ له عليك حَقُّ التَّذَمُّمِ فإنَّ الحُرَّ مَنْ راعَىٰ وِدادَ لَحْظَةٍ.

وبيننا لو رَعَيتُم ذاكَ مَعْرِفَةٌ ... إنَّ المعارِفَ في أهْلِ النُّهَى ذِمَمُ(٣)

وقد كان العَرَبُ يُضْرَبُ بهم المَثَلُ في التَّذَمُّمِ فَمن لم تكُنْ فيه هذهِ الخِلَّةُ فالكَلْبُ مُقَدَّمٌ عليه بينَهم وكَفَىٰ بذلك ذَمًّا لَهُ وزجرًا لأمثالِهِ

إنَّ قومًا رأوكَ شِبْهًا لِكَلْبٍ ... لا رأوا للظَّلامِ صُبْحًا مُضِيًّا

أنتَ لا تحفظُ الذِّمامَ لِخَلْقٍ ... وهو يرعَى الذِّمَامَ رعيًا وفيًّا

يَشْكُرُ النَّزْرَ مِنْ كريمِ فِعالٍ ... آخِرَ الدهرِ لا تراهُ نسيًّا

---

(١) ديوانُ أحمد محرم (١٠٥٥).

(٢) سُلافَةُ العَصْرِ في محاسِنِ الشعراءِ بِكُلِّ مِصْرٍ (٢٠٢).

(٣) أبو الطيبِ ما لَهُ وما عليه (١١٢).

وتناديـــه مـــن مكـــانٍ بعيـــدٍ فيوافيـــك طائعًـــا مُنْـــتَحِيًا[١]

إن سُـــؤْلي وبُغْيَتـــي ومنـــايَ أن أراكَ الغـــداةَ كَلْبًـــا سَـــوِيًّا[٢]

٨- النَّجْدَةُ:

لنا الجفناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضحى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دما[٣]

النجدةُ سمةٌ من سِماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ مَنْ عَرِيَ منها فليسَ برجلٍ ولو اجتمعتْ له جميعُ سماتِ الرجولةِ.

وتُعْرَفُ النَّجْدَةُ بأنَّها: الفَزَعُ فِي أيِّ وَجْهٍ كَانَ، وَيُقَالُ: اسْتَنْجَدَ فلانٌ فلانًا فَأَنْجَدَهُ، أيْ: أعانَهُ[٤].

وسُئِلَ بعضُهم عن الشجاعةِ فقال: جبلَّةُ نفسٍ أبيَّةٍ، قيل له: فما النجدةُ؟ قال: ثِقَةُ النفسِ عند استرسالِها إلى الموتِ، حتى تُحْمَدَ بفعلِها دونَ خوفٍ[٥].

وغالبًا ما يسبقُ النجدةَ صُراخٌ كما قال اللهُ ﷻ: {فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ} [القصص: ١٨].

فَإِذَا: فُجائيةٌ. وَيَسْتَصْرِخُهُ: أي: يَسْتَغِيثُ به، مَأخوذٌ من الصُّراخِ وهو رَفْعُ

---

(١) كان الرَّجُلُ في الباديةِ إذا ضَلَّ الطريقَ وهالَهُ الليلُ نَبَحَ نباحَ الكلابِ لِتَنْبَحَ كلابُ الحيِّ فيتبعَ أصواتَها حتى يصيرَ إلى الحيِّ!

(٢) فَضْلُ الكلابِ على كثيرٍ مِمَّنْ لَبِسَ الثيابَ (٤٥).

(٣) أمالي المرزوقي (٤٣).

(٤) أمالي القالي (١/ ٣٦).

(٥) نهايةُ الأربِ (٣/ ٢٢٠).

الصوتِ؛ لأنَّ مِنْ عادةِ المستغيثِ بغيرِهِ أنْ يرفَعَ صوتَهُ طالبًا النجدةَ والعونَ[١].

والعَرَبَ تَعارَفُوا النَّجْدةَ إِذا استُنْجِدُوا وَلَوْ كَانَ لِأَمْرٍ يَضُرُّ بِالْمُنْجِدِ. وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: «لَوْ دُعِيَ الْكَرِيمُ إِلَىٰ حَتْفِهِ لَأَجابَ»، ويروى: «إنَّ الكريمَ لو دُعِيَ إِلىٰ طَعْنَةٍ بِلَيْلٍ لأَجابَ»[٢]

إِذَا اسْتُنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمُ ... لِأَيَّـةِ حَـرْبٍ أَمْ بِـأَيِّ مَكَـانِ[٣]

عَنْ سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾} [الشعراء: ٢١٤]، خَرَجَ حَتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا، فَنَادَىٰ: يَا صَبَاحَاهْ (كَلِمَةٌ يُنَادِي بِهَا مَنْ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ)، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»[٤]

فقولُهُ (فاجْتَمَعوا إليهِ) دليلٌ أنَّ العَرَبَ كانوا أنجادًا وهي صِفَةٌ ملازمةٌ لهم عُرِفوا بها فقد جاءَ في بَعْضِ الرواياتِ للحديثِ أنَّهُ لم يَتَخَلَّفْ منهم أحَدٌ وَمَنْ تَخَلَّفَ لِعُذْرٍ بَعَثَ آخَرَ مكانَهُ.

النبيُّ ﷺ أسرعُ النَّاسِ نَجْدَةً:

ولقـدْ جمعـتَ حمايـةً وتكرمًـا ... منْ غارَ يعلمهُ ومنْ قدْ أنجدا[٥]

كان النبيُّ ﷺ أسرعَ الناسِ نجدةً، فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: «... فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ،

---

(١) التفسيرُ الوسيطُ للطنطاويِّ (١٠/ ٣٣٩).

(٢) نهايةُ الأربِ في فُنُونِ الأدبِ (١٧/ ٧٥).

(٣) (التذكرةُ الحمدونيةُ) ٢/ ٤٠٣.

(٤) البخاريُّ (٤٦٢٧)، ومسلمٌ رقم (٢٠٨).

(٥) ديوانُ جريرٍ (١٧٥).

فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَىٰ فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا...»[١].

فَتَأَمَّلْ سرعةَ نجدةِ النبيِّ ﷺ وهو الرَّجُلُ الفَرْدُ في الرجالِ بل كان أسرعَ إجابةً من الصحابةِ والصحابةُ كُلُّهم أنجادٌ لكنْ كما قال أنسٌ: «فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ».

تلك هي النجدةُ؛ فإذا رأيتَ الخطرَ مُحْدِقًا بأخيكَ دَقَّ أو جَلَّ فلا تتردَّدْ لحظةً أنْ تُنْجِدَهُ، فالمواقفُ وحدَها هي التي تُظْهِرُ معادِنَ الرجالِ ولا تقتصرُ النَّجدةُ على ما سَبَقَ فقد يَسْتنجِدُكَ عزيزٌ لنازلةٍ فتَبْذُلُ له مالَكَ وجاهَكَ كما قيل:

أغارَ على حالي الزمانُ بعَسْفِهِ ولكِنْ ندى كفَّيكَ في الحالِ أنجدا[٢]

وأجملُ ما تكونُ النَّجْدةُ أنْ تَرُدَّ عن أخيكَ قالَةَ السُّوءِ بِظَهْرِ الغَيْبِ كما قيل:

أجِرْني من الواشي الذي جارَ وغابر بِحُبٍّ غارَ بي ثم أنجدا[٣]

ولا يَعْزُبُ[٤] عنك حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٥].

---

(١) البخاريُّ (٢٩٠٨)، ومسلمٌ (٢٣٠٧).

(٢) ديوانُ ابنِ نباتةَ (٥٩٠).

(٣) ديوانُ البحتريِّ (٤٩).

(٤) «لا يَعْزُبُ»: بضمِّ الزاي وكسرِها، أي: لا يَبْعُدُ ولا يَغيبُ.

(٥) البخاريُّ (٢٤٤٢)، ومسلمٌ (٢٥٨٠).

فطوبىٰ لِمَنْ قيلَ له أو فيه:

فتًى لم يَزَلْ يَسْمو إلى كُلِّ نَجدةٍ … فَيُدرِكُ ما أعْيَتْ يدُ المتناوِلِ

فَحسْبُك بي عِلمًا به وبفَضْلِه … إذا ذُكِرَ الأقوامُ أهلُ الفضائِلِ

٩- التَّغافُلُ:

تغافلْتَ عن أشياءَ مِنْهُ ورُبَّما … يَسُرُّكَ في بعضِ الأُمورِ التَّغافُلُ(١)

التغافُلُ صِفَةٌ يَتَّصِفُ بها عُظماءُ الرجالِ وقَلَّ أنْ تَجِدَ رَجُلًا تَحَلَّىٰ بالرجولةِ من غيرِ أنْ يَتَدثَّرَ التَّغافُلَ.

ويُعْرَفُ التغافُلُ بِأنَّهُ إعراضُكَ عن أمْرٍ صَدَرَ مِنْ عدوٍّ أو صديقٍ وأنْتَ تَتيَقَّنُ غَرَضَهُ السَّيِّءَ منه، فَتَتَصَنَّعُ الغَفْلَةَ والتَّظاهُرَ بها.

والمتغافِلُ هو المُتَجاهِلُ عن الشيءِ مع عِلْمِهِ به.

قيل لِأعرابيٍّ: من العاقلُ؟ قال: الفَطِنُ المُتَغافِلُ.

وفي المَثَلِ: «الكَلِمَةُ الَّتي تُؤذيكَ طَأطِيءْ لَهَا رَأسَكَ فَإنَّها تَتخطَّاكَ»

ومما يَدُلُّ علىٰ التَّغافُلِ:

قال الله ﷻ: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾} [التحريم: ٣].

ففي هذهِ الآيةِ دليلٌ علىٰ التغافُلِ فتأمَّلْ كيفَ تَصرَّفَ النبيُّ ﷺ مع بَعْضِ نسائِهِ في هذا البابِ.

---

(١) خُلاصةُ الأثرِ (٢/ ٨٣).

قال تعالى: {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ}، أي: أخبرتْ به، {وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ}، أي: لم يُعاتِبْها في الحديثِ كُلِّه، إنما عاتَبَها في بَعْضِ الحديثِ، وتغافَلَ عن الباقي، فنستفيدُ فائدةً أنَّ المرأةَ إذا أخطأَتْ في عَشَرَةِ أخطاءٍ أنْ لا نؤاخِذَها بالأخطاءِ العَشَرَةِ، وإنما نؤاخِذُها بواحِدٍ منها مثلًا أو ثلاثةٍ، ونتغافَلَ عن الباقي؛ لقولِ اللهِ ﷻ: {عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ}.

وعن عائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: «دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَهْلًا، يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»(١).

قال العلَّامةُ ابنُ مُفْلِحٍ: «استُنْبِطَ منه استحبابُ تغافُلِ أهلِ الفَضْلِ عن سَفَهِ المُبْطِلِين، إذا لم يترتَّبْ عليه مفسدةٌ»(٢).

وعن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟»(٣).

فعَرَفْنا من خلالِ ما تقدَّمَ أنَّ التغافُلَ خُلُقٌ من أخلاقِ النُّبُوَّةِ.

راحةُ القلبِ في التَّغافُلِ فالْزَمْ ... وإذا ما جَهِلْتَ فلْتَتَعلَّمْ

واصرفِ القلبَ والسماعَ احتراسًا ... عِشْ مع الناسِ كالَّذي ليس يَفْهَمْ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (١٠)، ومسلمٌ (١١).

(٢) الآدابُ الشرعيةُ (١/ ٢٩٤).

(٣) رواهُ مسلمٌ (١٨٠٤).

وإذا احتاجتِ الضرورةُ يومًا فتدخَّلْ كمنقرِ الطيرِ في اليَمّ(١)

التغافُلُ من أخلاقِ الملوكِ:

التغافُلُ من أخلاقِ الملوكِ فَإِنَّهُ لما أمضَىٰ معاويةُ بيعةَ يزيدِ قال: يزيدُ: يا أَبَتِ ما أدري أنَخدعُ النَّاسَ أمْ يَخدَعونَنا بما يأْخُذون منَّا؟ فقال: يا بنيَّ مَنْ خَدعَكَ فانْخَدَعْتَ له فقد خَدَعْتَهُ(٢).

وقال أبو العباسِ السَّفَّاحُ أوَّلُ ملوكِ بني العباسِ: «التغافُلُ عن ذنوبِ الناسِ وعيوبِهم من أخلاقِ الكرامِ»(٣).

قال الجاحِظُ: «ومِنْ أخلاقِ المَلِكِ التغافُلُ عمَّا لا يَقْدَحُ في المُلْكِ، ولا يَجْرَحُ المالَ، ولا يَضَعُ من العِزِّ، ويزيدُ في الأُبَّهةِ. وعلىٰ ذلك كانت شِيَمُ ملوكِ آلِ ساسانَ»(٤).

وقال ابنُ الأثيرِ مُتحدِّثًا عن صلاحِ الدينِ الأيوبيِّ: «وكان حليمًا، حَسَنَ الأخلاقِ، متواضعًا، صَبورًا علىٰ ما يَكْرَهُ، كثيرَ التغافُلِ عن ذنوبِ أصحابِهِ، يَسْمَعُ من أحَدِهم ما يَكْرَهُ، ولا يُعْلِمُهُ بذلك، ولا يَتَغيَّرُ عليه»(٥).

وَبَلَغَني أنَّهُ كان يومًا جالسًا فرمَىٰ بعضُ المماليكِ بَعْضًا بسرموزهِ - أي حذائِهِ - فَأَخطأَتْهُ ووصلَتْ إلىٰ السلطانِ ووقَعَتْ بالقرْبِ منه فالْتَفَتَ إلىٰ الجِهَةِ الأُخرىٰ يَتَغَافَلُ عنها(٦).

---

(١) قاله أُستاذُنا - حَفِظَهُ اللهُ -.

(٢) محاضرةُ الأدباءِ (١/ ٤١).

(٣) التاجُ في أخلاقِ الملوكِ (١٠١).

(٤) اللطفُ واللطائفُ (١).

(٥) الكاملُ في التاريخِ لابنِ الأثيرِ (٩/ ٢٢٥).

(٦) المرْجعُ السابقُ (٩/ ٢٢٥).

وربَّ غبـيٍّ كنتُ أحسـنُ ودَّهُ ... وتقـبحُ لـي أقوالُـه والفعائـلُ
تغافلتُ عن أشياء منه وربَّما ... يسرُّكَ في بعض الأمورِ التَّغافلُ[١]

التغافلُ من خِصالِ الحَمْدِ:

وتغافـلْ عـن أمـورٍ إنَّـهُ ... لم يفزْ بالحَمْدِ إلا مَـنْ غفَـلْ[٢]

التغافُلُ من خصالِ الحَمْدِ التي تُمْدَحُ في الرجالِ: قَالَ عَمْرُو بنُ عُثْمَانَ الْكِيُّ: «الْمُرُوءَةُ التَّغَافُلُ عَنْ زَلَلِ الإِخْوَانِ»[٣].

وقَالَ الخُزَاعِيُّ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ زَائِدَةَ، يَقُولُ: «الْعَافِيَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ، تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي التَّغَافُلِ»، فَحَدَّثْتُ بِهِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فَقَالَ: «الْعَافِيَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ، كُلُّهَا فِي التَّغَافُلِ»[٤].

وَقَالَ كُثَيِّرٌ:

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ يَمُتْ وَهُوَ
وَمَنْ يَتَطَلَّبْ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلَا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ[٥]

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: وَجَدْتُ أَكْثَرَ أُمُورِ الدُّنْيَا لَا تَجُوزُ إِلَّا بِالتَّغَافُلِ. وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: مَنْ شَدَّدَ نَفَّرَ، وَمَنْ تَرَاخَى تَأَلَّفَ، وَالشَّرَفُ فِي التَّغَافُلِ. وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ الأَدِيبُ: الْعَاقِلُ هُوَ الْفَطِنُ الْمُتَغَافِلُ[٦].

---

(١) ريحانةُ الألبَّا (١١٨).
(٢) الكشكولُ (١/ ٢٣٦).
(٣) شُعَبُ الإيمانِ (١٠/ ٥٧٤).
(٤) المرجعُ السابقُ (١٠/ ٥٧٤).
(٥) التذكرةُ الحمدونيةُ (٤/ ٢٦٣).
(٦) آدابُ الدنيا (١٨٠).

وَقَالَ الطَّائِيُّ:

لَـيْسَ الْغَبِـيُّ بِسَـيِّدٍ فِـي قَوْمِـهِ ... لَكِـنَّ سَـيِّدَ قَوْمِـهِ الْمُتَغَـابِي(١)

ومن كلامِ بعضِ الحُكَماءِ: الكرمُ مِكْيالٌ ثُلُثاهُ التَّغابي(٢).

وجميلٌ أنْ تتغافَلَ عن حاسدٍ قد طُوِيَ كِشْحُهُ على حَسَدٍ دفينٍ فيظهرُ من كلامِهِ ما يستحقُّ التغافُلَ عنه؛ لأنَّ ما تسمَعُهُ منه يُشْبِهُ هواءَ صفارةِ الإنذارِ في قِدْرِ الضَّغْطِ وصمتُكَ وتغافُلُكَ يجعلُهُ كَمَنْ يأكُلُ نفسَهُ وما في فَتْحِهِ لك من العواقِبِ.

قال ابنُ شرفٍ:

وذي حسدٍ مستعملٍ حالةَ الرضَى ... معـي وأبـت نيرانُـهُ وسـمومُها

مـددتُ لـه سـترَ التغافُـلِ بيننـا ... وأعرضتُ عن أشياءَ عندي علومُها(٣)

وقديمًا قيل: من تَمامِ الكَرَمِ أنْ تَذْكُرَ الخدمةَ لك، وتنسىٰ النعمةَ منك، وَتَنْظُرَ الرغبةَ إليك، وتتغابىٰ عن الخيانةِ إليك، من تمامِ المروءةِ أن تنسَىٰ الحَقَّ لك، وتذْكَرَ الحَقَّ عليك. وتستكبِرَ الإساءةَ منك، وتستصغرَ الإساءةَ إليك، من أحسنِ المكارمِ عفوُ المُقْتَدِرِ، وجودُ المفتقِرِ(٤).

أُغَمِّضُ عَيْنِـي فِـي أُمُـوْرٍ كَثِيْـرَةٍ ... وَإِنِّـي عَلَـى تَرْكِ الْغُمُوْضِ قَـدِيْرُ

وَمَا عَنْ عمىً أُغْضِي وَلَكِنْ لَرُبَّمَا ... تَعَامَى وَأَغْضَى الْمَرْءُ وَهْوَ بَصِيْرُ

---

(١) المرجعُ السابقُ (١٨٠).

(٢) ريحانةُ الألِبَّا (١١٨).

(٣) الآدابُ النافعةُ (٣٢).

(٤) الفرائدُ والقلائدُ ص (٤٠).

وَأَسْكُتُ عَنْ أَشْيَاءَ لو شِئْتُ قُلْتُها ... وليس علينا في المقالِ أميرُ

أُصَبِّرُ نفسي باجْتِهادِي وَطاقَتِي ... وإنِّي بأخْلاقِ الجَمِيعِ خَبِيرُ(١)

وقال هلالُ بنُ العلاءِ البهلوليُّ: جعلتُ علىٰ نفسي منذُ أكثرَ من عشرينَ سنةً أن لا أكافئَ أحدًا بسوءٍ، وذهبتُ إلىٰ هذهِ الأبياتِ:

لَمَّا عَفَوتُ وَلَم أحقِد على أحَدٍ ... أرَحتُ نفسي مِن هَمِّ العَداواتِ

إنِّي أُحَيِّي عَدوِّي عِندَ رُؤيَتِهِ ... لأدفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بالتَّحِيَّاتِ

وَأُظهِرُ البِشْرَ لِلإنسانِ أبغِضُهُ ... كأنَّما قد حَشَى قلبي مَوَدَّاتِ(٢)

١٠- العزة:

شَهمٌ تُذِلُّ المالَ عِزَّةُ نفسِهِ ... ومنزِلُ الأموالِ دارُ هوانِها(٣)

العزةُ سمةٌ من سماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ وتُعْرَفُ بالقوةِ والشِّدَّةِ والغَلَبَةِ، يُقالُ: عَزَّ، يَعِزُّ بالفتحِ إذا اشتدَّ، ورجلٌ عزيزٌ: منيعٌ لا يُغْلَبُ ولا يُقْهَرُ.

قال الرَّاغبُ: العِزَّةُ حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ مِنْ أنْ يُغْلَبَ(٤).

الفَرْقُ بينَ العِزَّةِ والكِبْرِ:

العِزَّةُ تختلفُ عن الكِبْرِ، فالعزَّةُ: هي الشُّعورُ بالسُّمُوِّ مع معرفَةِ الإنسانِ حقيقةَ

---

(١) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (١١/ ١٨٩).

(٢) روضةُ العقلاءِ ص (١٣٣)، وتُنْسَبُ هذهِ الأبياتُ للإمامِ الشافعيِّ رَحِمَهُ اللهُ، كما سَبَقَ.

(٣) ديوانُ الأخرسِ (٧٠١).

(٤) المفرداتُ للراغِبِ (٣٣٣).

نفسِهِ، والكِبْرُ: هو غرورُ الإنسانِ بنفسِهِ بِرَدِّ الحَقِّ وغَمْطِ الناسِ حقوقَهم[١].

النفسُ تتوقُ إلى العزةِ:

وهو من محبوباتِ الإنسانِ، تتوقُ النفسُ إليه، وتنهضُ الهِمَمُ عند ذكرِهِ.

العزةُ توفيقٌ من اللهِ:

قال تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

من أرادَ العزَّةَ فلِلَّهِ العزَّةُ جميعًا، يمنحُها لِمَنْ يشاءُ من عبادِهِ؛ فتراهُ نافِذَ الكلمةِ، مالكًا للقلوبِ، كثيرَ الأعوانِ وَيَنْزِعُها ممَّنْ يشاءُ؛ فَتجِدُهُ ذليلًا، مهانًا مهيضَ الجناحِ.

والعزُّ وليدُ الكرامةِ والجاهِ، وهذا كلُّهُ بِيَدِ اللهِ ﷻ، يتصرَّفُ فيه حَسَبَ مشيئتِهِ وعلمِهِ.

العزةُ في طاعةِ اللهِ:

تُعِزُّ ضِعافَ الناسِ عِزَّةُ نفسِهِ ... وَيَقْطَعُ أنفَ الكبرياءِ من الكِبْرِ[٢]

من كان يريدُ الوصولَ إلى شَرفِ العِزِّ والسُّمُوِّ فَلْيَسْلُكْ طَريقَ العِزَّةِ بطاعةِ اللهِ، وَلْيَطْلُبْ العزَّةَ منه؛ لأَنَّهُ هو مصدرُها وواهِبُها، خلافًا لِمَنْ يَتَوَهَّمُ أنها وليدةُ كَثْرَةِ المالِ والأتباعِ؛ فَكَمْ مِن مُعْدِمٍ لا حولَ له ولا قوَّةَ ولا عشيرةَ، أعزَّه اللهُ بطاعتِهِ، وجعله مَلِكًا عزيزًا، وكم من أشدَّاءَ أُولي قوَّةٍ ومَنَعَةٍ ومالٍ أذلَّهم اللهُ بمعاصِيهم، فَلَمْ تُغنِ عنهم كَثْرَتُهم من اللهِ شيئًا، فالمَعْصِيَةُ تُورِثُ الذُّلَّ وَلا بُدَّ؛ فَإنَّ العِزَّ كُلَّ العزِّ فِي طَاعَةِ اللهِ ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. «أي: مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ

(١) القرآنُ منهاجُ حياةٍ (١/ ٤٥) غازي صبحي.

(٢) ديوانُ ذي الرُّمَّةِ (٩٧٥).

وَيطلُبُهَا فَليَطلُبهَا مِنَ اللهِ، فَللهِ العِزَّةُ جَميعًا لَيسَ لِغَيرِهِ مِنهَا شَيءٌ، فَتَشمَلُ الآيةُ كُلَّ مَنْ طَلَبَ العِزَّةَ، وَيكُونُ المقصُودُ بِهَا التَّنبيهَ لِذَوِي الأقدَارِ وَالهِمَمِ مِنْ أينَ تُنَالُ العِزَّةُ وتُستَحَقُّ، وَمِنْ أيِّ جِهَةٍ تُطلَبُ؟»[١] فَمَن «كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ، فليَطلُبهَا بِطَاعَةِ اللهِ وَذِكرِهِ، مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ»[٢].

«فَإِنَّ المُطيعَ لِلَّهِ عَزِيزٌ، وَإِن كَانَ فَقِيرًا لَيسَ لَهُ أعوَانٌ»[٣]. وَكُلَّمَا كَانَت هَذِهِ الصِّفَةُ فِيهِ أكمَلَ، كَانَ أشَدَّ عِزَّةً وَأكمَلَ رِفعَةً.

فالنَّاسُ يَتَعَرَّفُونَ إلىٰ مُلُوكِهِم وَكُبَرائِهِم، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيهِم لِينَالُوا بِهِمُ العِزَّةَ وَالرِّفعَةَ، فَتَعَرَّفْ أنتَ إلىٰ اللهِ، وَتَوَدَّدْ إِلَيهِ: تَنَلْ بِذَلِكَ غَايَةَ العِزِّ وَالرِّفعَةِ.

وَفِي دُعَاءِ القُنُوتِ: «إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَن وَالَيتَ، وَلَا يَعِزُّ مَن عَادَيتَ»، وَمَنْ أطَاعَ اللهَ فَقَد والَاهُ فِيمَا أطَاعَهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ العِزِّ بِحَسَبِ طَاعَتِهِ، وَمَن عَصَاهُ فَقَد عَادَاهُ فِيمَا عَصَاهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنْ الذُّلِّ بِحَسَبِ مَعصِيَتِهِ[٤].

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلأنصَارِ: «يَا مَعشَرَ الأنصَارِ! أَلَم تكُونُوا أذِلَّةً فَأعَزَّكُمُ اللهُ؟»، قَالُوا: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ[٥].

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لِأبِي عُبَيدَةَ بنِ الجَرَّاحِ رضي الله عنهما: «إِنَّا كُنَّا أذَلَّ قَومٍ فَأعَزَّنَا اللهُ

---

(١) «الداءُ والدواءُ» (ص: ٢٧٧).

(٢) «المجموعةُ الكاملةُ» (٣/ ٢٥٨).

(٣) «الداءُ والدواءُ» (ص: ٢٧٧).

(٤) «الداءُ والدواءُ» (ص: ٢٧٧).

(٥) رواهُ أحمدُ (٣/ ٥٧)، وإسنادُهُ صحيحٌ.

بِالإِسلَامِ، فَمَهمَا نَطلُبِ العِزَّ بِغَيرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ، أَذَلَّنَا اللهُ»(١).

يا من رأى عمرًا تكسوه بردتُه ... والزيتُ أُدمٌ له والكوخُ مأواهُ

يهتزُّ كِسرَى على كُرسيِّه فَرَقًا ... من بأسِهِ وملوكُ الأرضِ تخشاهُ

فَصَاحِبُ الطَّاعَةِ عَزِيزٌ، بِعِزَّةِ اللهِ، قَوِيٌّ، وَلَو لَم يَكُن لَهُ أَنصَارٌ إِلَّا اللهُ، مَحمُودٌ فِي أُمُورِهِ، حَسَنُ العَاقِبَةِ. وَصَاحِبُ المَعصِيَةِ ذَلِيلٌ، فَلا عِزَّ لَهُ، وَلَا قَائِمَةَ تَقُومُ لَهُ؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَن خَالَفَ أَمرِي»(٢).

«وَمُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى قِسمَينِ: أَحَدُهُمَا مَن يُخَالِفُ أَمرَهُ بِالمَعَاصِي، فَلَهُ نَصِيبٌ مِنَ الذِّلَّةِ والصَّغَارِ. وَأَهلُ هَذَا النَّوعِ خَالَفُوا الرَّسُولَ ﷺ، مِن أَجلِ دَاعِي الشَّهَوَاتِ.

وَالنَّوعُ الثَّانِي: مَن خَالَفَ أَمرَهُ مِن أَجلِ الشُّبُهَاتِ، وَهُم أَهلُ الأَهوَاءِ وَالبِدَعِ، فَكُلُّهُم لَهُم نَصِيبٌ مِنَ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ، بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِم لِأَوَامِرِهِ»(٣).

قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إِدمَانُهَا

وَتَركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصيَانُهَا

حَيَاةُ الأَبدَانِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَحَيَاةُ القُلُوبِ بِالذِّكرِ وَتَركِ الذُّنُوبِ.

وَالعَاقِلُ مِنَ النَّاسِ مَن عَرَفَ مَوَاطِنَ العِزَّةِ فَتَحَرَّاهَا، وَمَوَاطِنَ الذُّلِّ فَتَوَقَّاهَا.

---

(١) (صحيحٌ)، أخرجَهُ الحاكِمُ في «المُستَدرَكِ» (١/ ٦٢) و (٣/ ٨٢)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٥١).

(٢) قِطعَةٌ من حديثٍ رواهُ أحمدُ (٢/ ٥٠)، وَصحَّحَهُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيحِ الجامعِ» (٢٨٣١).

(٣) انظر: «الحكَمِ الجديرةِ بالإذاعةِ» (ص: ٣١ - ٣٢)، لابنِ رجبٍ رَحِمَهُ اللهُ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ المُعِزُّ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا عِزٌّ حَقِيقِيٌّ بِلَا بُطْلَانِ

وَهُوَ المُذِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ بِذِلَّةِ الـ ـدَّارَيْنِ ذُلَّ شَقًا وَذُلَّ هَوَانِ[1]

وَهَذَا الذُّلُّ والهَوَانُ الَّذِي أَصَابَ أُمَّتَنَا، لَا يُرْفَعُ إِلَّا بالرُّجُوعِ إِلَىٰ اللهِ ﷻ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ»[2].

فَقَوْلُهُ ﷺ: «إذا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ» إِشَارَةٌ إِلَىٰ نَوْعٍ مِنَ المُعَامَلَاتِ الرِّبَوِيَّةِ، ذَاتِ التَّحَايُلِ عَلَىٰ الشَّرْعِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ» إِشَارَةٌ إِلَىٰ الِاهْتِمَامِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالرُّكُونِ إِلَيْهَا، وَعَدَمِ الِاهْتِمَامِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ» وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَىٰ مَنْ شَغَلَهُ الحَرْثُ وَالزَّرْعُ عَنِ القِيَامِ بِالوَاجِبَاتِ، وَالتَّشَاغُلِ بِهَا عَنِ الدِّينِ.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ - وَرَأَىٰ سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ آلَةِ الحَرْثِ - فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ؛ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الذُّلَّ»[3].

---

(١) «الكافيةُ الشافيةُ» (ص: ٢١٣) [دارُ ابنِ الجوزيِّ - الدمَّامُ].

(٢) (صحيحٌ) رواهُ أبو داودَ (٣٤٦٢)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحِ سُنَنِ أبي داودَ» (٢/ ٣٦٥).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٢٣٢١).

وَهَذَا الحَدِيثُ تَرْجَمَ لَهُ البُخَارِيُّ بِقَوْلِهِ: «بَابُ مَا يُحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الِاشْتِغَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ، أَوْ مُجَاوَزَةِ الحَدِّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ».

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ» هُوَ ثَمَرَةُ الخُلُودِ إِلَىٰ الدُّنْيَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾} [التوبة: ٣٨].

وَقَوْلُهُ ﷺ: «سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ» فِيهِ إِشَارَةٌ صَرِيحَةٌ إِلَىٰ أَنَّ الرُّجُوعَ إِلَىٰ الدِّينِ طَرِيقُنَا إِلَىٰ رَفْعِ الذُّلِّ، وَالدِّينُ الَّذِي يَرْفَعُ الذُّلَّ هُوَ الأَمْرُ الأَوَّلُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ.

يا من تريدُ العزَّ في الدنيا وفي الـ	أُخرى عليكَ بطاعةِ الرحمنِ
إنَّ التعزُّزَ بالملوكِ وغيرِهم	ذلٌّ وأوهامٌ من الشيطانِ
فاحرصْ على مرضاةِ ربِّك تَلْقَهُ	يكفيكَ كلَّ مذلَّةٍ وهوانِ(١)

١١- الرَّزَانَةُ:

وَلَيْسَ أَخُو الرَّزَانَةِ مَنْ تَجَافَى	وَلَكِنْ مَنْ تَشَمَّرَ لِلْفَلَاحِ

الرزانَةُ سمةٌ من سماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ وهي الهدوءُ في كُلِّ شيءٍ يكونُ فيه الهدوءُ فليس من الرزانةِ الجَرْيُ في الطُّرُقاتِ بما يُخرِجُهُ عن الرزانةِ ورفعُ صوتِهِ زيادةً عن الحاجةِ، قال اللهُ ﷻ: {وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ} [لقمان: ١٩]، أو يأتي

(١) قاله أستاذُنا - حفظَهُ اللهُ -.

بِتَصَرُّفاتٍ بهلوانيةٍ تُسْقِطُهُ من الأعينِ، أو يَسْتَشْهِدُ بقولٍ ساقِطٍ أو مَثَلٍ مبذولٍ من أمثالِ السُّقاطِ أو يتكلمُ بكلامٍ يَعْتَذِرُ منه غدًا، أو يمزحُ مع غيرِ جنسِهِ من الهملِ الذين لا يَعرِفون أقدارَ الرجالِ.

وكذلك الضَّحِكُ بصوتٍ مرتفعٍ فإنه يقلِّلُ الهيبةَ ويُسْقِطُ الرَّزانَةَ، وإنما الرجلُ الرَّزينُ يَتَبَسَّمُ عند الحاجةِ للتَّبَسُّمِ.

والتبسُّمُ هو: الضَّحِكُ من غيرِ صوتٍ، قال اللهُ تعالى: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا} [النمل: ١٩]، قَالَ الزَّجَّاجُ: التَّبَسُّم أكثرُ ضَحِكِ الأنبياءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ -[١].

وعَنْ عائِشَةَ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضاحِكًا حَتَّىٰ أَرَىٰ لَهَوَاتِهِ إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ[٢].

وعَنْ جريرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قال: «ما حَجَبَني النبيُّ ﷺ مُذْ أسلمتُ ولا رآني إلَّا تبسَّمَ في وجهي»[٣].

وعن عبد اللهِ بنِ الحارثِ بنِ جَزْءٍ رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ أحدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ».

وفي روايةٍ قال: «ما ضَحِكَ رسولُ اللهِ ﷺ إلَّا تبسُّمًا»[٤]، وقال الزمخشريُّ: خيرُ

---

(١) لسانُ العَرَبِ (١٢/ ٥).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٦٠٩٢)، ومسلمٌ (٨٩٩).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٠٨٩) واللفظُ له، ومسلمٌ (٤٤).

(٤) أخرجَهُ الترمذيُّ ([٣٦٤١] و [٣٦٤٢]). وصحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الترمذيِّ [٢٨٨١]، وصحيحِ مختصرِ الشمائلِ (١٩٤)، والمشكاةِ (٥٨٢٩/ التحقيقُ الثاني).

الألسنِ المخزونُ، وخيرُ الكلامِ الموزونُ؛ فَحَدُثْ إن حدَّثْتَ بِأَفضَلَ من الصمتِ، وزيِّنْ حديثَكَ بالوقارِ وحُسْنِ السَّمْتِ.

إنَّ الطيشَ في الكلامِ يُترجمُ عن خِفَّةِ الأحلامِ، وما دَخَلَ الرفقُ بشيءٍ إلا زانَهُ، وما زانَ المُتكلِّمَ إلا الرَّزانةُ»[1].

وتَعرِفُ الرجُلَ الرزينَ في بواباتِ العياداتِ والمستشفياتِ وعندَ البيعِ والشراءِ والصرافاتِ ووقودِ السياراتِ وعند اشتدادِ الزحامِ، وحتىٰ لو حَدَثَ حادثٌ له أو لسيارتِهِ أو لأهلِهِ فإنَّهُ يَتصرَّفُ تَصرُّفًا لا يُخرِجُهُ عن الرزانَةِ.

رأيتَ أناسًا يُسرِعون تبادرًا إذا فَتَحَ البوّابُ بابَكَ إصبَعَا

ونحنُ سكوتٌ جالسُون رزانةً وحِلْمًا إلى أنْ يُفتَحَ البابُ أجْمَعَا[2]

١٢- الغَيْرةُ:

تَعْدُو الذئابُ على مَنْ لا كِلَابَ لهُ وتَتقي صَوْلَةَ المُستأسِدِ الحامي[3]

الغَيْرةُ سمةٌ من سماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ وهي: كما عرَّفها النوويُّ: (الغَيْرةُ - بِفَتحِ الغَينِ - وأصلُها المَنْعُ والرجُلُ غيورٌ علىٰ أهلِهِ أيْ يمنعُهم من التَّعلُّقِ بأجنبيٍّ بِنظَرٍ أو حديثٍ أو غيرِهِ)[4].

وعرَّفَها ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: (غَيْرةُ المُحِبِّ أنْ يشارِكَهُ غيرُهُ في محبوبِهِ، وغَيْرةُ

(١) عن أطواقِ الذَّهَبِ للزَّمَخْشَرِيِّ.

(٢) التذكرةُ الحمدونيَّةُ (٨/ ٢٠).

(٣) أشعارُ الشعراءِ الجاهلين (٣٠).

(٤) «شرحُ صحيح مسلمٍ» للنوويِّ (١٠/ ١٣٢).

المحبوبِ علىٰ مُحِبِّهِ أَنْ يُحِبَّ مَعَهُ غَيْرَهُ»[1].

فَيغارُ الرجلُ علىٰ أهلِهِ أَنْ يَأْتِينَ ما حَرَّمَ اللهُ، أو يَخْلُونَ مع غَيْرِ ذي مَحْرَمٍ، أو يتحدَّثْنَ مع أَحَدٍ بِخُضوعٍ في القولِ، أو يَخْرُجْنَ الأسواقَ بلا زِمامٍ ولا خِطامٍ، أو يُخَالِطْنَ الرِّجالَ في أيِّ مكانٍ مهما كان، أو يَشْغَلْنَ وسائِلَ التواصُلِ دونَ رقيبٍ أو حسيبٍ، أو يشاهِدْنَ الأفلامَ والمقاطِعَ دونَ رَدْعٍ أو زَجْرٍ، كُلُّ هذا وغيرُهُ مما لا يَحِلُّ للمرأةِ فعلُهُ غَيْرَةٌ محمودةٌ بل واجبةٌ.

وتُعْتَبَرُ الغَيْرَةُ من أَخَصِّ صفاتِ الرَّجُلِ الشَّهْمِ الكريمِ، وإِنَّ تَمَكُّنَها منه لَيَدُلُّ علىٰ رسوخِهِ في مقامِ الرجولةِ الحَقَّةِ الشريفةِ، فالغَيْرَةُ المعتدلةُ واجبةٌ؛ لحمايةِ الشَّرَفِ وصيانةِ العِرْضِ ومن لا يَغَارُ علىٰ أهلِهِ فهو دَيُّوثٌ ساقطُ القدرِ، مُنْحَطُّ الرجولةِ.

الغَيْرَةُ في الجاهليةِ:

فَحَسْبُكُمْ هذا التفاوتُ بيننا ... وكُلُّ إناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ

كانت الغَيْرَةُ في الجاهليةِ رُكْنَ الرجولةِ وقِوامَ أخلاقِها؛ لأنها طبيعةُ الفطرةِ البشريَّةِ الصافيةِ النقيَّةِ.

فقد رأىٰ أعرابيٌّ مَنْ ينظُرُ إلىٰ زوجتِهِ، فطلَّقها غَيْرَةً علىٰ المحارِمِ، فلما عُوتِبَ في ذلك، قال قصيدتَهُ الهائيَّةَ المشهورةَ، ومنها:

وَأَتْرُكُ حُبَّها من غيرِ بُغْضٍ ... وذاك لِكَثْرَةِ الشركاءِ فيهِ

إذا وَقَعَ الذبابُ على طعامٍ ... رَفَعْتُ يدي ونفسي تشتهيهِ

---

[1] «روضةُ المُحِبِّينَ ونزهةُ المشتاقين» لابنِ قَيِّمِ الجوزيَّةِ (ص: ٣٤٧).

وتَجْتَنِبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا رأتِ الكلابَ وَلَغْنَ فيه(١)

وهذه عربيةٌ سَقَطَ نصيفُها - خِمارُها - عن وَجْهِها، فَالْتَقَطَتْهُ بيدِها، وغطَّت وَجْهَها بيدِها الأُخرى، وفي ذلكَ قيلَ:

سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ ... فتناوَلَتْهُ واتَّقَتْنا باليَدِ

وقال أُسْتاذُنا - حَفِظَهُ اللهُ -:

أغارُ إلى أنْ يَرْجُفَ القلبُ رَجْفَةً ... إذا ذُكِرَتْ تَصْطَكُّ منها المفاصِلُ

وأُمسي كمجنونٍ تطايَرَ عقلُهُ ... شواظًا توارتْ عن كظاها العواذِلُ

الغيرةُ في الإسلامِ:

حيَّاكِ ربِّي فإنَّا لا يحِلُّ لنا ... لَهْوُ النِّساءِ وإنَّ الدِّينَ قد عَزَما(٢)

لما جاءَ الإسلامُ أعلَمَنا أنَّ الغَيْرَةَ محمودةٌ وصفةٌ من صفاتِ الرجولَةِ الحَقَّةِ، بل صفةٌ من صفاتِ اللهِ ﷻ.

قال ابن القَيِّمِ: (والغَيْرَةُ من صفاتِ الرَّبِّ - جَلَّ جلالُهُ - والأَصْلُ فيها قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣])(٣).

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ»(٤).

---

(١) أوردَه الدميريُّ في حياةِ الحيوانِ الكُبرى (١/ ١١).

(٢) أشعارُ الشعراءِ الجاهلين (٣٠).

(٣) «روضةُ المحبين» لابنِ القيمِ (ص: ٢٩٥).

(٤) رواهُ البخاريُّ (٥٢٢٣)، ومسلمٌ (٢٧٦١) واللفظُ لَهُ.

(معناهُ: أنَّ اللهَ يَغارُ إذا انْتُهِكَتْ محارِمُهُ، وليس انتهاكُ المحارِمِ هو غَيرةَ اللهِ؛ لِأَنَّ انتهاكَ المحارِمِ فِعْلُ العبدِ، ووقوعُ ذلك من المؤمِنِ أعظَمُ من وُقُوعِهِ من غيرِه. وغَيْرةُ اللهِ ﷻ من جنسِ صفاتِهِ التي يختصُّ بها، فهي ليستْ مماثلةً لِغَيْرةِ المخلوقِ، بل هي صِفةٌ تليقُ بِعظَمَتِهِ، مثلُ الغَضَبِ، والرِّضا، ونحوِ ذلك من خصائصِه التي لا يُشارِكُهُ الخَلْقُ فيها)(١).

وكان رسولُ اللهِ ﷺ أغيَرَ الخَلْقِ على الأُمَّةِ وهو الرجُلُ الفَرْدُ في الرجالِ وأصحابُهُ هم النجومُ الذينَ يهتدى بهم الرجالُ: فعن المُغيرَةِ بن شُعبةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ(٢)

فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعدٍ! وَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»(٣).

وضِدُّ الغيورِ الدَّيُّوث، وهو الذي يُقِرُّ الخُبْثَ في أهلِهِ، قال العلماءُ: الدَّيُّوثُ «هو الذي لا يَغَارُ على أهلِهِ»(٤)، وفي المُحكَمِ: «والدَّيُّوثُ: الذِي يُدْخِلُ الرِّجالَ على حُرْمَتِهِ بحَيْثُ يَراهُم»(٥)، وقد ورَدَ الوعيدُ الشديدُ في حَقِّهِ، فعنْ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ»(٦).

---

(١) «شرحُ كتابِ التوحيدِ من صحيحِ البخاريِّ» لعبدِ اللهِ الغنيمانِ (١/ ٣٣٥).

(٢) غَيْرَ مُصْفَحٍ أي: بِحَدِّهِ لَا بِوَجْهِهِ.

(٣) رواهُ البخاريُّ (٧٤١٦)، ومسلمٌ (١٤٩٩).

(٤) النهايةُ في غريبِ الحديثِ والأثرِ (٢/ ١٤٧)، مادةُ (دَيَثَ).

(٥) المحكمُ والمحيطُ الأعظمُ (٩/ ٣٩٢).

(٦) (صحيحٌ) أخرجَهُ النسائيُّ (٢٥٦٢)، واللفظُ له والإمامُ أحمدُ (٢/ ١٣٤)، وصحَّحَهُ العلامةُ الألبانيُّ في صحيحِ الترغيبِ والترهيبِ (٢٠٧٠).

حاجةُ المرأةِ لِمَنْ يَغارُ عليهَا:

فقالتْ تباعَدْ يا بنَ عمِّي فإنني ... مُنِيتُ بِذِي صَوْلٍ يَغَارُ وَيَعْنِفُ(١)

المرأةُ مهما بَلَغَ تَدَيُّنُها وشرفُها قد تَضْعُفُ وَتَرِقُّ لِغَلَبَةِ عاطِفَتِها علىٰ عَقْلِها بخلافِ الرجُلِ فَيُغْلِبُ جانبُ العَقْلِ فهي محتاجَةٌ لرجُلٍ له القِوامَةُ عليها يُكَمِّلُها، فالنساءُ جُبِلْنَ علىٰ حُبِّ الرَّجُلِ الغَيورِ، فالغَيْرَةُ جَمَالٌ مَعْنَوِيٌّ جَمَّلَ اللهُ بها الرجالَ وَيَتفَوَّقُ علىٰ أيِّ جمالٍ حِسِّيًّا كانَ أو معنويًّا، ولا أَحَدَ يُسْتَأْمَنُ علىٰ النساءِ أكثرَ مِمَّنْ له القِوامَةُ عليهِنَّ، فهذهِ هِنْد بِنْتُ المُهَلَّبِ من عُقَلاءِ النِّساءِ، وكانت تقولُ: شيئانِ لا تُؤمَنُ عليهما المَرْأَةُ: الرِّجالُ، والطِّيبُ(٢).

وهذا صحيحٌ، فالنساءُ فِتَنُ الرِّجالِ، فكَمْ ماتَ بِهِنَّ كريمٌ، وعَطِبَ عليهِنَّ سليمٌ!!.

لا تَـأْمَنَنَّ علـى النِّسـاءِ ولـو أخًـا ... مـا فـي الرِّجالِ علـى النِّسـاءِ أمينُ

كـلُّ الرِّجـالِ وإنْ تعفَّـفَ جَهْـدَهُ ... لا بُـدَّ أنَّ بنظـرةٍ سَـيَخُونُ(٣)

وقال آخرُ:

إنَّ الرجـالَ النـاظرينَ إلـى النِّسـا ... مِثْـلُ الكـلابِ تطُـوفُ باللحمـانِ

إنْ لـم تَصُنْ تلـكَ اللحـومَ أُسُودُها ... أُكِلَـتْ بـلا عِـوَضٍ ولا أثمـانِ(٤)

---

(١) المنازلُ والديارُ (٢١).

(٢) المحاضراتُ والمحاوراتُ (٢٦٩).

(٣) محاضراتُ الأدبيةِ (٢/ ١٢٤).

(٤) موسوعةُ الشعرِ الإسلاميِّ (١٤/ ٧١٨).

ومن طريفِ ما جاءَ في ترجمةِ عُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ، قال: بينما عُمَرُ بنُ أبي ربيعةَ يطوفُ بالبيتِ، إذْ رأى امرأةً تطوفُ بالبيتِ، فأعْجَبَتْهُ فَسأَلَ عنها فإذا هي من البَصْرَةِ، فَكَلَّمَها مرارًا، فَلَمْ تَلْتَفِتْ إليه وقالتْ: إليكَ عني فإنَّكَ في حَرَمِ اللهِ في موضِعٍ عظيمِ الحُرْمَةِ، فلما ألَحَّ عليها وَمَنَعَها من الطوافِ، أتَتْ مَحْرَمًا لها، وقالَتْ له تعالَ معي أرِني المناسِكَ، فَحَضَرَ معها فلمَّا رآها عُمَرُ بنُ أبي ربيعةَ عَدَلَ عنها، فتمثَّلَتْ:

تَعْدُو الذِّئابُ على من لا كِلَابَ لَهُ ... وتَتَّقِي صَوْلَةَ المستأسِدِ الحامي

فبلَغَ المنصورَ خَبَرَهما، فقال: وددْتُ أنْ لم تَبْقَ فتاةٌ في خِدْرِها إلا سَمِعَتْهُ[1].

١٣- المروءةُ:

وتكاملتْ فيكَ المروءةُ كلُّها ... وأعنْتَ ذلكَ بالفَعالِ الصَّالحِ[2]

المروءةُ: صفةٌ من صفاتِ الرجولة الحقَّةِ وتُعْرفُ بِأنها جِماعُ مكارِمِ الأخلاقِ، ومحاسِنِ الآدابِ، وكَمالِ الرُّجولةِ، فهي تبعث علىٰ إجلالِ صاحِبِهَا، وامتلاءِ الأعينِ بمهابَتِهِ وحقيقةِ المروءةِ قوةٌ للنَّفْسِ، مبدأٌ لصدورِ الأفعالِ الجميلةِ عنها، المستبعةِ للمَدْحِ شَرْعًا، وعقلًا وعُرْفًا[3]، قال ابنُ القيمِ: وحقيقةُ المروءةِ: تجنُّبٌ للدَّنايا والرَّذائلِ من الأقوالِ، والأخلاقِ، والأعمالِ، فَمُروءةِ اللسانِ: حلاوَتُهُ وطِيبُهُ، ولِينُهُ، واجتناءُ الثِّمارِ منه بسهولةٍ ويُسْرٍ، ومروءةُ الخُلُقِ: سَعَتُهُ وَبَسْطُهُ للحبيبِ والبغيضِ، ومروءةُ المالِ: الإصابةُ بِبَذْلِهِ في مواقِعِهِ المحمودةِ عَقْلًا، وعُرفًا، وشَرْعًا، ومروءةُ الجاهِ: بَذْلُهُ للمُحتاجِ إليه.

---

(١) زَهْرُ الأكَمِ (٣/ ١٠٨).

(٢) الأشباهُ والنظائرُ (١/ ١٦٢).

(٣) التعريفاتُ للجُرجاني (ص: ١١١).

ومروءةُ الإحسانِ: تَعْجِيلهُ، وتيسيرُهُ وتوقيرُهُ وعدمُ رؤيتِهِ حالَ وقوعِهِ، ونسيانُهُ بعد وقوعِهِ، فهذه مُرُوءَةُ البَذْلِ وأما مروءةُ التَّرْكِ: فَتَرْكُ الخصامِ، والمعاتبةِ، والمطالبةِ، والمماراةِ(١).

قال الشاعِرُ:

إنـي لتطربنـي الخـلالُ(٢) كريمـةً ... طَـرَبَ الغريـبِ بأوبـةٍ وتـلاقِ
ويَهُزُّنـي ذكـرُ المـروءةِ والنَّـدى ... بـين الشَـمائلِ هـزَّةَ المشـتاقِ(٣)

١٤- السكينة:

ووقـورٌ تحـت السـكينةِ مـا يَـرْ ... فَعُ من طرفِهِ ضجاجُ الخُصومِ(٤)

السكينةُ هي الطمأنينةُ والسكونُ بمعنىٰ أن الرجلَ الكاملَ في رجولتِهِ يكونُ عند الفِتَنِ المُقْلِقَةِ والنوازِلِ المدلهمَّةِ ساكِنَ القَلبِ رابِطَ الجَأْشِ بِحيثُ لو تناطَحَتْ الجبالُ بين يَدَيْهِ ما حَرَّكَتْ فيه شَعْرَةً.

تخالُهُ مطمئِنَّ القلبِ، بعيدًا عن المنازعاتِ والخصوماتِ، واللَّغَطِ ورَفْعِ الأصواتِ(٥).

ولك أن تنظرَ إلىٰ توجيهِ النبيِّ ﷺ أصحابَهُ وتربيتِهِمْ علىٰ خُلُقِ السكينةِ، فعَنْ أبي

---

(١) تهذيبُ مدارجِ السالكين (٢/ ٦٩٧ - ٦٩٩).

(٢) الخِلالُ: جمع خلةٍ وهي الخَصْلةُ الحميدةُ والصِّفةُ الكريمةُ.

(٣) جواهِرُ الأدبِ (٢/ ٢٤٨).

(٤) العقدُ المفصلُ (١٤).

(٥) انظر: كتابي: «السكينةُ الخُلُقُ المفقودُ» تَجِدْ أَلَذَّ مِنَ المُنَىٰ إن كنت للعلمِ عاشقًا وبه وامقًا.

ومـا العِلْـم إلا كالحَيَـاةِ إذا سَرَتْ ... بِجِسْمٍ حيا والمَيْتُ مَنْ فاتَهُ العِلْمُ

قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قَالُوا: اسْتَعْجَلْنَا إِلَى الصَّلاةِ. قَالَ: «فَلا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ فامشوا إِلَى الصَّلاةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ والْوَقَارِ وَلا تسرعوا فَمَا أدركتم فصلوا وَمَا فاتكم فَأَتِمُّوا»(٢).

ففي الحديثين نهيٌ عن الاستعجالِ والإسراعِ لإدراكِ الصلاةِ والأمرُ بالتأني والسكينةِ في المجيءِ للصلاةِ والقيامِ لها(٣).

جَمَعَ العقولَ على الصواب بِحجَّةٍ	فيها احتمالُ الريبِ لا يتطرَّقُ
فمن السكينةِ والوقارِ سكوتُه	وله المقالُ الفصلُ ساعةَ يَنْطِقُ(٤)

عن الفضلِ بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وكان رديفَ رسولِ اللهِ ﷺ، أنَّه قالَ في عشيَّةِ عَرَفَةَ وغداةِ جَمْعٍ، للنَّاسِ حين دفعوا: «عليكم بالسَّكينةِ» وهو كافٌّ ناقتَه(٥)(٦).

ففي الحديثِ أشعارًا لهم أنَّ السكينةَ في العبادةِ تُثمِرُ الخُشُوعَ وتَجلِبُ الطُّمأنينة

---

(١) رواهُ البُخاريُّ (٦٣٥).

(٢) رواهُ البُخاريُّ (٦٣٦)، ومسلمٌ (٦٠٢).

(٣) انظر: «فتحُ الباريّ شرحُ صحيحِ البُخَاريِّ» لابنِ حَجَرٍ (٢/ ١١٨)، «عمدةُ القاري شرحُ صحيحِ البُخَاريِّ» لبدرِ الدينِ العيني (٥/ ١٥٠).

(٤) ديوانُ الحِلي (٢٨٥).

(٥) كافٌّ ناقَتَهُ: أي يَمْنَعُها الإسراعَ.

(٦) مُسْلمٌ (١٢٨٢).

وفي ذلك فائدةٌ آخرُ وهي بقاءُ عِزِّهِمْ ومكانتِهِمْ في القلوبِ ومنزلتِهم في النفوسِ، وهيبتِهِم ضاربةٌ سُرادِقَها.

مُتَرَجِّلين كأنَّما مالَتْ بِهِمْ راحٌ يُسَكِّرُ ذِكْرُها أو تُسْكِرُ

وترى السكينةَ والوقارَ عليهم والخيلَ من تيهٍ بها تتبخترُ[1]

١٥- الوقارُ:

عليه وقارٌ ظاهرٌ وسكينةٌ يُمثِّلُ رضوى دونَها ويَلَمْلَمُ[2]

الوقارُ سمةٌ من سماتِ الرجولةِ الحقَّةِ يُكْسِبُ صاحِبَهُ المَهابَةَ بينَ النَّاسِ ويدركُ بِهِ ما لا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ من مَعَانِ العِزِّ والشَّرفِ والرئاسةِ والمودَّةِ والقَبولِ ويبعدُهُ عمَّا لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ ويَجافِيهِ عنه عمَّا يُخِلُّ بالمروءةِ والتوقيرِ.

والوقارُ كما عَرَّفَهُ الجاحِظُ: «الإمساكُ عن فضولِ الكلامِ والعَبَثِ، وكثرةِ الإشارةِ والحركةِ، فيما يُسْتَغْنَي عن التَّحركِ فيه، وقلَّةُ الغَضَبِ، والإصغاءُ عند الاستفهامِ، والتَّوقفُ عن الجوابِ والتَّحفظُ من التَّسرُّعِ، والمباكرةُ في جميعِ الأمورِ»[3].

وعَرَّفَهُ أبو هلالٍ العسكريُّ: «الهدوءُ وسكونُ الأطرافِ وقِلَّةُ الحركةِ في المجلسِ، ويَقَعُ - أيضًا - على مفارقةِ الطيشِ عند الغضبِ، مأخوذٌ من الوَقْرِ وهو الحِمْلُ»[1].

(١) ديوانُ الأخرَسِ (٤٦).

(٢) ديوانُ الأخرَسِ (٥٣٢).

(٣) تهذيبُ الأخلاقِ للجاحِظِ (٢٢).

(١) «الفروقُ اللُّغويَّةُ» لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص: ٥٧٥).

وبينَ السكينةِ والوَقارِ خيطٌ رقيق أشارَ إليه النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ بقولِه: «الفرقُ بين السَّكينةِ والوقارِ: أنَّ السَّكينةَ هي التَّأني في الحَرَكَاتِ واجتنابُ العَبَثِ، والوقارُ في الهيئةِ كَغَضِّ البَصَرِ وَخَفْضِ الصَّوتِ وعَدَمِ الالتفاتِ»[(١)].

حَثُّ النبيِّ ﷺ على لُزُومِ الوَقَارِ:

عَن أَبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «إذا سَمِعْتُمْ الْإِقَامَة فامشُوا إِلَىٰ الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُم بالسَّكِينَةِ والْوَقار وَلَا تُسْرعوا فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتكم فَأتمُّوا»[(٢)]، عَنْ سَعِيدِ بْنُ جُبَيْرٍ مَوْلَىٰ وَالِبَةَ الْكُوفِيُّ حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَاءَهُ زَجْرًا شَدِيدًا وَضَرْبًا وَصَوْتًا لِلإِبِلِ فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالايضَاعِ»[(٣)(٤)].

فأنت ترىٰ حرصَ النبيِّ ﷺ علىٰ أنْ يلزمَ أصحابُهُ خُلُقَ السكينةِ والوقارِ حتىٰ وَهُمْ في عبادةٍ من العباداتِ فلزومُ الرَّجُلِ خُلُقَ السَّكينةِ في شأنِهِ كُلِّهِ من سماتِ الرِّجالِ فكذلك كان الصحابةُ فَمَنْ بَعْدَهُم قال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يومَ السَّقيفَةِ أَحْلَمَ منِّي وأوقَرَ، واللهِ ما تَرَكَ من كلمةٍ أعجبَتْني في تزويري[(٥)]. إلَّا قال في بديهتِهِ مِثْلَها أو أفضلَ منها حتَّىٰ سَكَتَ[(١)].

---

(١) فَتْحُ البَارِيِّ (٢/ ١٣٩).

(٢) البُخَارِيُّ – الفتحُ (٢/ ٦٣٦) واللفظُ له، مسلمٌ (٦٠٢).

(٣) الايضاعُ: هو سَوْقُ الإِبِلِ وحَمْلُها علىٰ سُرْعَةِ السَّيْرِ.

(٤) رواهُ البُخاريُّ (١٦٧١).

(٥) تزويري: التزويرُ: إصلاحُ الشيءِ وتحسينهُ وكلامٌ مزورٌ: أي مُحَسَّنٌ.

(١) البُخَاريُّ – الفَتْحُ (١٢/ ٦٨٣٠)، وهو جزءٌ من حديثٍ طويلٍ.

قال ابنُ الخَيَّاطِ يَمْدَحُ مالِكَ بنَ أنسٍ:

يَدَعُ الجوابَ فلا يُراجَعُ هيبةً ... والسائلون نواكسُ الأذقانِ

نورُ الوقارِ وعِزُّ سلطانِ التُّقى ... فهو المهيبُ وليس ذا سلطانِ[1]

وقال البُحْتريُّ يَمْدَحُ رجلًا:

لا يكفهِرُّ إذا انحازَ الوقارُ به ... ولا تطيشُ نواحيهِ إذا مَزَحا

حنَّت إلى السُّؤددِ العلياءِ نهضتُهُ ... ولو يوازِنُ رَضوى حِلْمُهُ رَجَحا[2]

وجميلٌ أنْ يكونَ الرَّجلُ جادًا وقورًا في مجالِسِ الجِدِّ، وفي غيرِ أهلِهِ وخاصَّتِهِ، وفَكِهًا مزَّاحًا بين أهلِهِ وذوي خاصَّتِهِ كما كانَ عليه الصحابَةُ، فزيدُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه يكونُ في أهلِهِ فَكِهًا مُزَّاحًا، يُؤْنِسُهُمْ بحديثِهِ وَيُفَرِّجُ عنهم، وَيَزْرَعُ البَسْمَةَ عَلَى وجوهِهِم. وإذا جَلَسَ في مجالِسِهِ العامةِ التي يَحْضُرُها القريبُ والغريبُ، أو جَلَسَ إلى القَضاءِ الْتَزَمَ الوقارَ وما حَدَّثَ إلا بالجِدِّ من القولِ، وبهذا وَصَفَهُ ثابتُ بنُ عُبيدٍ عندما قال: «كان زَيْدٌ من أفْكَهِ النَّاسِ في بيتِهِ، وأزْمتِهِمْ إذا خَرَجَ إلى الرجالِ»[3]. وهو لا يريدُ بقوله: (أزمتِهم) إلا التزامَ الوَقارِ؛ ولذلك جاء في الإصابةِ: «ما رأيْتُ رَجُلًا أفْكَهَ في بيتِهِ، ولا أوقَرَ في مجلسِهِ من زيدِ بنِ ثابتٍ»[1].

ألا إنَّ أخلاقَ الرجالِ وَإنْ نمتْ ... فأربعةٌ منها تفوقُ على الكُلِّ

---

(١) «الجامعُ» للخطيبِ (١/ ١٨٥).

(٢) الزهرةُ (١٧٣).

(٣) صفةُ الصفوةِ (١/ ٧٠٦).

(١) الإصابةُ في تمييزِ أسماءِ الصحابةِ برقم (٢٨٨٢).

وَقَارٌ بِلَا كِبْرٍ وَصَفْحٌ بِلَا أَذىً ... وَجُودٌ بِلَا مَنٍّ وَحِلْمٌ بِلَا ذُلّ[١]

١٦- حُسْنُ السَّمْتِ:

هل يجهل السَّمتَ من يستوضح ... أو يبعدُ الشمس من يستيقِنُ الفلقا[٢]

حُسْنُ السَّمْتِ سِمَةٌ من سماتِ الرجالِ يُكْسِبُهم الهَيْبَةَ والوقارَ، وبه يُسْتَدَلُّ على رجولةِ الرِّجالِ ورجاحَةِ عُقُولِهم.

ويُعْرَفُ حُسْنُ السَّمْتِ بأنَّهُ حُسْنُ المَظْهَرِ الخارجيِّ للإنسانِ من طريقةِ الحديثِ والصَّمتِ، والحركةِ والسُّكونِ والدُّخولِ والخروجِ والسِّيرةِ العمليَّةِ في النَّاسِ بحيث يستطيعُ من يراهُ أو يسمعَهُ أن ينسبَهُ لأهلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ والدِّيانةِ والفلاحِ[٣].

فهو سمةٌ من سماتِ الأنبياءِ بل جُزْءٌ من أجزاءِ النُّبوةِ، فعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الهَدْيَ الصَّالِحَ والسَّمْتَ الصَّالِحَ والاقْتِصادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[٤].

وعن حذيفةَ بنِ اليمانِ رضي الله عنه قال: «**إِنَّ أَشْبَهَ النَّاسِ دلًّا**[١] **وسمتًا**[٢] **وهديًا**[٣]

---

(١) ديوانُ البارودي (٥٢).

(٢) دواوينُ الشعر العربي (١٤/ ٤٩٨).

(٣) انظر: «نضرةَ النعيم» (٥/ ١٥٨٨).

(٤) أبو داودَ (٤٧٧٦) واللفظُ له، وأحمدُ (١/ ٢٩٦) وحسَّنَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الجامعِ (١٩٩٣).

(١) الدَّلُّ: الحالَةُ التي يكونُ عليها الإنسانُ من السكينةِ والوقارِ وحسنِ السيرةِ والطريقةِ.

(٢) السَّمْتُ: حُسْنُ المنظرِ في أمرِ الدينِ.

(٣) الهديُ: السيرةُ والطريقةُ.

برسولِ اللهِ ﷺ لابْنُ أمِّ عَبْدٍ(١)، من حينِ يخرجُ من بيتهِ إلىٰ أن يَرْجِعَ إليه، لا ندري ما يَصْنَعُ في أهلِهِ إذا خلا»(٢).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَيْرُ الحديثِ كِتابُ اللهِ وخيرُ الهَدْيِ هَدْيِي»(٣).

فعلينا أن نعرفَ هَدْيَ نَبِيِّنَا ﷺ فنقتديَ به ونهتديَ بهداهُ(٤).

وصاحِبُ السَّمْتِ غالبًا ما يَصْلُحُ لجلائِلِ الأعمالِ ومعالي الأمورِ فإنَّهُ لما اسْتُوزِرَ أبو محمدٍ المهلبيُّ وكان مهيبًا فريدَ دَهْرِهِ في حُسْنِ السَّمْتِ كَتَبَ إليه أبو محمدٍ الخلاديُّ في التهنئةِ:

الآنَ حينَ تعاطَى القوسَ باريها ... وأبصرَ السمتَ في الظلماءِ

أرى الوزارةَ تزهي في مواكِبِها ... زهوَ الرِّياضِ إذا جادَتْ غوادِيها(١)

وقال أُستاذُنا - حَفِظَهُ اللهُ -

لـه نظرةٌ فـي كُلِّ أمرٍ عميقةٌ ... وعقلٌ بتحليلِ القضايا مُجَنَّحُ

لـه مظهرٌ حُلْوٌ وسَمْتٌ مهذَّبٌ ... تـراهُ لعلياءِ المَهمّاتِ يَصْلُحُ

---

(١) ابنُ أمِّ عَبْدٍ: هو عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه.

(٢) البخاريُّ - الفَتْحُ (١٠/ ٦٠٩٧).

(٣) مسلمٌ (٨٦٧).

(٤) انظرْ: كتابي «التاجُ المفقودُ» موضوعُهُ حُسْنُ السَّمْتِ، تَجِدْ فيه بُغْيَتَكَ - إن شاءَ اللهُ -

فَإِنْ كُنْتَ مُشْتَاقًا إِلَى ذَلِكَ الجَنَا ... فَذُقْهُ تَجِدْ طَعْمًا أَلَذَّ مِنَ الشَّهْدِ

(١) معجمُ الأدباءِ (٢/ ٩٢٣).

١٧- الحِلْمُ:

والحِلمُ يطفيءُ عنكَ كلَّ عظيمةٍ كالماءِ لا تبقى به النيرانُ(١)

الحِلْمُ هو ضَبْطُ النَّفسِ عند شِدَّةِ الغضبِ مع لزومِ الطمأنينةِ وتركِ الانتقامِ ويُحْمَدُ إذا كان الأذى من الأدنىٰ للأعلىٰ، وقِيلَ: الحِلْمُ مشاركٌ لمعنىٰ الحُلُمِ؛ فصاحبُ الحِلْمِ هو الذي يُعرِضُ عمَّا يرىٰ ويَسْمَعُ كالحالِمِ في منامِهِ.

وما الحِلْمُ إلا رَدُّكَ الغيظَ في الحَشا وصفحُكَ بالمعروفِ والصدرُ واغِرُ(٢)

وهو سمةٌ من سماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ وكان العربُ لا يُسَوِّدونَ من عَرَىٰ من هذه الخلةِ قَالَ أبُو عمرةَ بْنُ العلاء كانوا لا يسوِّدُون إلا من تكامَلَتْ فيه سِتُّ خِصالٍ: السخاءُ والنجدةُ والصبرُ والحِلْمُ والبيانُ والتواضعُ وتمامُهُنَّ في الإسلامِ الحياءُ(٣).

ألـم تـرَ أنَّ الحِلْـمَ زَيْـنٌ مُسَـوَّدٌ لصاحِبِهِ والجَهْلَ لِلْمرءِ شائِنُ
فكن دافِنًا للجهلِ بالحِلمِ تَسْتَرِح من الجهلِ إنَّ الحِلمَ للجَهْلِ دافِنُ

الحِلمُ بالتَّحَلُّمِ:

تَحَلَّمْ عن الأَدْنَيْنَ واستَبْقِ وُدَّهُمْ ولن تستطيعَ الحِلْمَ حتى تَحَلَّما(١)

من الناسِ من يكونُ مطبوعًا علىٰ الحِلْمِ وهذا فَضْلٌ من اللهِ ومِنَّةٌ ومنهم من يُرَوِّضُ

---

(١) مجمعُ الحكمِ والأمثالِ (٣/ ١٧٥).

(٢) الأمالي (٣/ ٢٢٣)، والواغِرُ: ضِغْنٌ وعداوةٌ وتوقُّدٌ في صدرِهِ من الغَيْظِ.

(٣) روضةُ العقلاءِ (٢٧٤).

(١) أشعارُ الشعراءِ الجاهليين (١١٤).

نَفْسَهُ علىٰ الحِلْمِ رِياضَةَ الأَسَدِ، حتىٰ يصيرَ الحلمُ لديه تَطَبُّعًا لَا يَنْفَكُّ عنه[1].

قال ابنُ حِبَّانَ - رحمهُ اللهُ تعالىٰ -: الحِلمُ منه ما يكون سجيَّةً وطَبْعًا ومنه ما يكونُ تجرِبةً وتكلُّفًا، ومنه ما يكونُ مركبًا منهما معًا، وأوَّل الحلمِ: المعرفةُ ثمَّ التثبتُ، ثمَّ العزمُ، ثمَّ التَّصبرُ، ثم الصَّبْرُ، ثم الرضا، ثم الصمتُ، والإغضاءُ[2].

وقال ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وكما يكونُ الخُلقُ طبيعةً، فإنه قد يكونُ كسبًا، بمعنىٰ أنَّ الإنسانَ كما يكون مطبوعًا علىٰ الخُلُقِ الحَسَنِ الجميلِ، فإنه أيضًا يمكنُ أن يَتَخَلَّقَ بالأخلاقِ الحَسَنةِ عن طريقِ الكَسْبِ والمرونةِ.

ولذلك قال النبيُّ ﷺ لِأشجِّ عبدِ القيسِ: «إن فيكَ لَخُلُقَينِ يحبُّهما اللهُ: «الحِلْمُ والأَنَاةُ» قال: يا رسولَ اللهِ، أهُمَا خُلُقانِ تَخَلَّقْتُ بهما، أم جَبَلَني اللهُ عليهما، قال: «بل جَبَلَكَ اللهُ عليهما». فقال: «الحَمْدُ للهِ الذي جَبَلني علىٰ خُلُقين يحبُّهما ورسولُهُ»[1].

فهذا دليلٌ علىٰ أنَّ الأخلاقَ الحميدةَ الفاضلةَ تكونُ طبعًا وتكونُ تَطَبُّعًا، ولكنَّ الطبعَ بِلا شَكٍّ أحسنُ من التَّطبُّعِ؛ لأن الخُلُقَ الحَسَنَ إذا كان طبيعيًا صار سجيةً للإنسانِ وطبيعةً له، لا يحتاجُ في ممارستِهِ إلىٰ تكلُّفٍ، ولا يحتاجُ في استدعائِهِ إلىٰ عَناءٍ ومشقَّةٍ، ولكنَّ هذا فضلُ اللهِ يؤتيه من يَشاءُ، ومن حُرِمَ هذا - أيْ: حُرِمَ الخُلُقَ عن سبيلِ الطَّبْعِ -

---

(١) انظر: كتابي: «الأخلاقُ بين الطبعِ والتطبعِ» ففيه ما يشفي ويكفي - إن شاءَ اللهُ -.

سَلْ عَنهُ وانْطِقْ بهِ وانْظُرْ إِلَيهِ ... مِلْءَ المَسامِعِ والأفْوَاهِ وَالمُقَلِ

(٢) من روضةِ العقلاءِ (٢٠٨).

(١) أخرجَهُ أبو داودَ رقم (٥٢٢٥) كتابُ الأدبِ، وأحمدُ (٤/ ٢٠٦)، وأخرجَ مسلمٌ شَطْرَهُ الأولَ رقم (٢٥، ٢٦) كتابُ الإيمانِ، والترمذيُّ رقم (٢٠١١) كتابُ البِرِّ والصِّلَةِ.

فإنه يمكِنُهُ أن ينالَهُ عن سبيلِ التَّطَبُّعِ، وذلك بالمرونةِ، والممارسةِ[(١)].

ألا إنَّ حِلمَ المَرْءِ أكبرُ نِسْبةٍ ... يُسامِي بها عند الفَخارِ كريمُ

فيا ربِّ هَبْ لي منكَ حِلمًا فإنني ... أرى الحِلْمَ لم يندمْ عليه حليمُ

وقال أُستاذُنا - حَفِظَهُ اللهُ -

تَحَلَّمْ إذا لم تعرفِ الحِلْمَ فِطرةً ... فتسعةُ أعشارِ الوقارِ التَّحَلُّمُ

منزلةُ الحِلْمِ:

مَنْ يَدَّعِي الحِلْمَ أَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ ... لا يُعرَفُ الحِلْمُ إلَّا ساعةَ الغَضَبِ[(٢)]

الحلمُ هو كَظْمُ الغيظِ فلا يطيشُ فيه المرءُ لأحَدٍ بأذىً، لا بقولٍ ولا بفعلٍ ولا بإشارةٍ مع لزومِ السكينةِ والوقارِ، فإن أتبَعَ ذلك بالعفوِ حتىٰ لم يَبْقَ في نفسِهِ موجدةٌ فقد سما بنفسِهِ إلىٰ أُفُقٍ بعيدٍ من المكارمِ.

قال اللهُ ﷻ: {وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤} [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]، قال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ: {وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ} [آل عمران: ١٣٤]، (أي: لا يُعْمِلونَ غَضَبَهمْ في الناسِ، بل يَكُفُّونَ عنهم شَرَّهُمْ، ويَحْتَسِبونَ ذلكَ عندَ اللهِ ﷻ).

ثم قال تعالىٰ: {وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ} [آل عمران: ١٣٤] أي: مع كَفِّ الشرِّ يَعْفُون

---

(١) مكارمُ الأخلاقِ (١٣).

(٢) من رحيقِ الشعرِ (٨٥).

عَمَّنْ ظَلَمَهم في أنفسِهِم، فلا يبقىٰ في أنفسِهِم مَوجدةٌ علىٰ أحَدٍ، وهذا أكملُ الأحوالِ؛ ولهذا قال: {وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ} فهذا من مقاماتِ الإحسانِ)[١].

يقولـونَ لا تـحـرقْ بحلمِـكَ هيبـةً ... وأحسنُ شيءٍ زَيَّنَ الهيبةَ الحِلْمُ

فـلا تتـركنَّ العفـوَ عَـنْ كـلِّ زلـةٍ ... فما العفْوُ مَذمُومٌ وَإنْ عظُمَ الجُرْمُ[٢]

الحِلْمُ خُلُقٌ يُحِبُّهُ اللهُ:

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لأشَجِّ عبد القَيْسِ: «إنَّ فيكَ لَخُلُقين يُحِبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ، قال يا رسولَ اللهِ: أهما خلقانِ تخلَّقتُ بهما: أم جَبَلني اللهُ عليهما، قال: «بل جَبَلَكَ اللهُ عليهما»، فقال: «الحمدُ للهِ الذي جبَلني علىٰ خُلُقَينِ يُحِبُّهما ورسولُه»[٣].

قال ابنُ قيمِ الجوزيةِ – رحمهُ اللهُ تعالىٰ –: وَفِيهَا: مَدْحُ صِفَتَيِ الْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ، وَأَنَّ اللهَ يُحِبُّهُمَا، وَضِدُّهُمَا الطَّيْشُ وَالْعَجَلَةُ، وَهُمَا خُلُقَانِ مَذْمُومَانِ مُفْسِدَانِ لِلْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ مَا جَبَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، كَالذَّكَاءِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْحِلْمِ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الخُلُقَ قَدْ يَحْصُلُ بِالتَّخَلُّقِ وَالتَّكَلُّفِ؛ لِقَوْلِهِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: («خُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا، أَوْ جَبَلَنِي اللهُ عَلَيْهِمَا؟»، فَقَالَ: «بَلْ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا»)[١].

---

(١) تفسيرُ ابنِ كثيرٍ (٢/ ١٢٢).

(٢) ديوانُ أبي فراسٍ (٣١٤).

(٣) تقدم تخريجُهُ.

(١) زادُ المَعَادِ (٣/ ٥٣٢)، وقال – عقِبَ ذلك –: وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ – خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَخْلَاقِهِمْ، كَمَا هُوَ خَالِقُ ذَوَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، فَالْعَبْدُ كُلُّهُ مَخْلُوقٌ ذَاتُهُ وَصِفَاتُهُ وَأَفْعَالُهُ، وَمَنْ أَخْرَجَ أَفْعَالَهُ عَنْ خَلْقِ اللهِ، فَقَدْ جَعَلَ فِيهِ خَالِقًا مَعَ اللهِ.

حِلْمُ رسولِ اللهِ ﷺ:

خليمٌ إذا ما الحِلْمُ زيَّنَ أهلَهُ ... مع الحِلْمِ في عينِ العدوِّ مهيبُ(١)

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا»، ثُمَّ قَالَ: «أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ، فَقَالَ: «أَعْطُوهُ، فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً»(٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ بِرِدَائِهِ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى «نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، «فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»(١).

لا تَحْمِلَنَّ ضغينةً لِقَرابةٍ ... إن الضغينةَ للقرابةِ تَقْطَعُ

لا تَحْسَبَنَّ الحلمَ منكَ مَذَلَّةً ... إن الحليمَ هو الأعزُّ الأَمْنَعُ(٢)

١٨ - التَّأَنِّي:

الرِّفْقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ ... فَتَأَنِّ في رفقٍ تُلاقِ نَجاحا(٣)

التَّأَنِّي في الأمورِ كُلِّها دِقِّها جُلِّها صغيرِها وكبيرِها، سمةٌ من سماتِ الرجولةِ

---

(١) التذكرةُ الحمدونيةُ (١/ ٢٦٩).

(٢) البخاريُّ – الفتحُ (٤/ ٢٣٠٦)، واللفظُ لهُ، ومسلمٌ (١٦٠١).

(١) البخاريُّ – الفتحُ (١٠/ ٥٨٠٩) واللفظُ له، ومسلمٌ (١٠٧٥).

(٢) روضةُ العقلاءِ (٧٩).

(٣) «كتابُ العينِ» للخليلِ بنِ أحمدَ (٨/ ٤٠١).

الحَقِّ، وبها يُعْرَفُ رجاحَةُ عَقْلِ الرَّجُلِ ورزانتهُ وطَمَأْنِينَةُ قَلْبِهِ.

ويُعْرَفُ التأني بأنه عَدَمُ العجلةِ في طَلَبِ شيءٍ من الأشياءِ والتَّمهُّلُ في تحصيلِهِ والترَفُّقُ فيه[1].

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا أناءةٍ ... فإن فسادَ الرأيِ أن تتعَجَّلا[2]

الأناةُ وَسَطٌ بينَ العَجَلَةِ والإضاعَةِ:

قال ابنُ القيمِ: (إذا نحرفْتَ عن خُلقِ الأناةِ والرفقِ انْحَرفْتَ: إمَّا إلىٰ عَجَلةٍ وطيشٍ وعنفٍ، وإمَّا إلىٰ تفريطٍ وإضاعةٍ، والرِّفقُ والأناةُ بينهما)[3].

ويكون التَّأني في كُلِّ شيءٍ إلَّا في عَمَلِ الآخرةِ:

فعنْ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ رضي الله عنه أنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «التَّؤَدَةُ[1] في كُلِّ شيءٍ إلَّا في عَمَلِ الآخِرَةِ»[2].

تَأَنَّ لا تَتْرُكَنْ أو تَعْجَلَنَّ سُدىً ... إنَّ التأنيَ بينَ التركِ والعَجَلِ[3]

فقد تقدمَ في الحديثِ أنَّ التأني في جميعِ أمورِ الدنيا وما أجملَ التأنيَ في التَّحدُّثِ مع الآخرينَ فهو زينةُ الرجالِ يُورِثُ المتحدِّثَ الهيبةَ والجَلالَ: فعن عائشةَ رضي الله عنها

---

(١) انظر: التحريرَ والتنويرَ (١٦/ ٣١٦).

(٢) نهايةُ الأربِ (٦/ ٧٩).

(٣) «مدارجُ السالكين» لابنِ القيم (٢/ ٢٩٦).

(١) التُّؤدةُ هي التأني والتمهُّل، يقالُ: اتَّئِدْ في أَمْرِكَ (أي: تَمَهَّلْ وتأَنَّ). مختارُ الصِّحاحِ (ص: ٣١٨).

(٢) (صحيحٌ) أبو داودَ (٤٨١٠)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ أبي داودَ، أبو داودَ (٤٠٢٥).

(٣) قاله أُستاذُنا – حَفظَهُ الله –.

قالت: «إن النبيَّ ﷺ كان يُحَدِّثُ حديثًا لو عَدَّهُ العادُّ لأحصاهُ»(١). وفي لفظٍ: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ يَسْرُدُ الحديثَ كَسَرْدِكُم»(٢).

قال بدرُ الدينِ العَينيُّ: (لم يَكُنْ يَسْرُدُ أي: لم يكنْ يتابعُ الحديثَ استعجالًا، أي: كان يتكلمُ بكلامٍ متتابعٍ مفهومٍ واضحٍ على سبيلِ التأني لِئَلَّا يلتبسَ على المستمعِ)(٣).

ودُونَكَ ما جاءَ في الأناةِ عَنْ أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»(٤).

(التَّأَنِّي) أي: التثبُّتُ في الأمورِ وفعلِها رصينةً محكمةً. (من اللهِ) أي: من الصفاتِ التي يُحِبُّها اللهُ من عبدِهِ وَيجْبِلُهُ عليها. (والعجلةُ) الطَّيْشُ والخِفَّةُ والحِدَّةُ. (من الشيطانِ) أي: من الأوصافِ التي يُحبُّها الشيطانُ من العبدِ.

قال ابنُ القيمِ رحمه الله: «والعجلَةُ طَلَبُ أَخذِ الشَّيْءِ قَبلَ وَقتِهِ فَهُوَ لشدَّةِ حرصِهِ عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَأْخُذُ الثَّمَرَةَ قبلَ أَوَانِ إِدْرَاكِهَا كُلِّهَا، فالمبادرةُ وَسَطٌ بَيْنَ خُلُقَيْنِ مذمومَيْنِ أحدُهمَا التَّفْرِيطُ والإضاعةُ وَالثَّانِي الاستعجالُ قبل الْوَقْتِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ العجلةُ من الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا خِفَّةٌ وطيشٌ وحِدَّةٌ فِي العَبْدِ تَمْنَعُهُ من التثبُّتِ وَالْوَقارِ والحِلْمِ وتوجِبُ لَهُ وَضْعَ الْأَشْيَاءِ فِي غيرِ مَوَاضِعِهَا وتجلبُ عَلَيْهِ أنواعًا من الشرورِ وتمنَعُهُ أنواعَ من الْخَيْرِ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٥٦٧)، ومسلمٌ (٢٤٩٣).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٣٥٦٨)، ومسلمٌ (٢٤٩٣).

(٣) «عمدةُ القاري شرحُ صحيحِ البخاريِّ» لبدرِ الدينِ العينيِّ (١٦/ ١١٥).

(٤) (صحيحٌ)، أخرجهُ الطبرانيُّ في الأوسطِ (١٠١٧)، والقضاعيُّ في الشهابِ (٣٠٦)، وصحَّحَهُ في صحيحِ الجامعِ (٣٠١١).

وَهِي قرينُ النَّدامَةِ فَقَلَّ مَنِ استعجلَ إلَّا نَدِمَ كَمَا أنَّ الكَسَلَ قرينُ الفَوْتِ والإضاعةِ»(١).

لا تَعْجَلَنَّ فربَّما عَجِلَ الفَتَى فيما يَضُرُّهْ
ولربَّما كَرِهَ الفتى أمرًا عواقِبُهُ تَسُرُّهْ(٢)

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ القَيْسِ: «إنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، وَالأَناةُ»(٣).

الحلمُ والأناةُ من صفاتِ العُقَلاءِ، وسببُ قولِ النبيِّ ﷺ ذلك للأشَجِّ. ما جاءَ في حديثِ الوَفْدِ، أنهم لما وصلوا المدينةَ بادَروا إلى النبيِّ ﷺ، وأقامَ الأشَجُّ عندَ رحالِهم فَجَمَعَها، وعَقَلَ ناقَتَهُ، ولَبِسَ أحْسَنَ ثيابِهِ ثم أقبلَ إلى النبيِّ ﷺ فقَرَّبَهُ وأجْلَسَهُ إلى جانبِهِ. ثم قال لهم النبيُّ ﷺ: «تبايعوني على أنفسِكُم، وقومِكُم». فقال القومُ: نعم. فقال الأشَجُّ: يَا رسولَ اللهِ، إنك لم تزاولِ الرَّجُلَ على شيْءٍ أشدَّ عليه من دينِهِ. نبايِعُكَ على أنفسِنا، ونُرسِلُ مَنْ يدعوهم. فمن اتَّبعنا كانَ مِنَّا، ومن أبى قاتَلْناه. قال: صَدَقْتَ، إنَّ فيك خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحلمُ، والأناةُ، وفي مسندِ الإمامِ أحمدَ قال: (يا رسولَ اللهِ! أهذانِ الخُلُقان جَبَلَني اللهُ عليهما؟ قال: نعمْ. قال: الحمدُ للهِ الذي جَبَلَني على ما يُحِبُّ).

لا تَعْجَلَنَّ لأمرٍ أنتَ طالبُهُ فقلَّما يدركُ المطلوبَ ذو العَجَلِ
فذو التأني مصيبٌ في مقاصِدِه وذو التعجلِ لا يَخْلو عن الزَّلَلِ(١)

---

(١) الرّوح (ص: ٢٥٨).

(٢) «بصائرُ ذوي التمييزِ» للفيروزآبادي (٤/ ٢٤).

(٣) رواهُ مسلمٌ (٢٠١٢).

(١) (بريقةٌ محموديّةٌ) لأبي سعيد الخادمي (٣/ ٦٥).

قال ابنُ عثيمينَ: (الأناةُ: التَّأنِّي في الأمورِ وعَدَمُ التَّسرُّعِ، وما أكثرَ ما يَهلِكُ الإنسانُ وَيزِلُّ بسببِ التَّعجُّلِ في الأمورِ، وسواءً في نقلِ الأخبارِ، أو في الحُكْمِ على ما سَمِعَ، أو في غيرِ ذلك. فمن الناسِ مَثلًا من يَتَخَطَّفُ الأخبارَ بمجرَّدِ ما يَسْمَعُ الخَبرَ يُحدِّثُ به، يَنقُلُهُ،.. ومن الناس من يَتَسرَّعُ في الحُكْمِ، سَمِعَ عن شخصٍ شيئًا من الأشياءِ، ويتأكَّدُ أنه قالَهُ أو أنَّهُ فَعَلَهُ ثم يتسرَّعُ في الحكم عليه، أنه أخطأَ أو ضَلَّ أو ما أشبهَ ذلك، وهذا غَلَطٌ، التأني في الأمورِ، كُلُّهُ خيرٌ)(١).

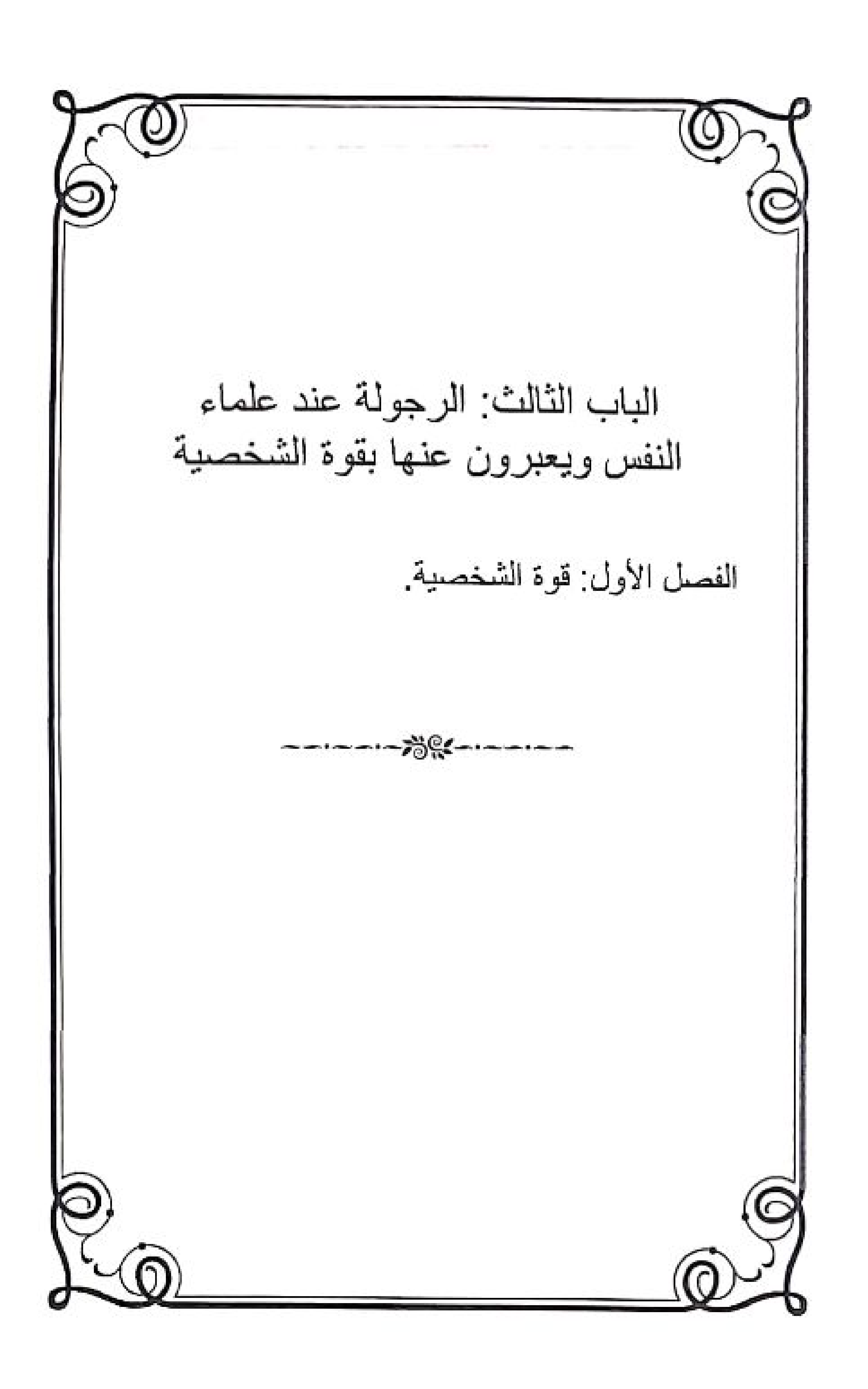
وكُلُّ أناةٍ في المواطِنِ سُؤْدَدٌ ... ولا كأناةٍ من قديرٍ مُحَكَّمِ

وما الرأيُ إلا بعدَ طولِ تَثَبُّتٍ ... ولا الحَزْمُ إلَّا بعد طولِ تَلَوُّمِ(٢)

---

(١) شرحُ رياضِ الصالحين لابنِ عُثيمينَ (٣/ ٥٧٧ - ٥٧٨).

(٢) غُرَرُ الخصائِصِ (٤٤١).



الباب الثالث: الرجولة عند علماء النفس ويعبرون عنها بقوة الشخصية

الفصل الأول: قوة الشخصية.

قُوَّةُ الشَّخصِيَّة

مــلأ عينـــي ملاحـــةً وجَهـــالًا وفُـــؤادي مَهابَـــةً وجَـــلالًا[١]

قوةُ الشخصيةِ سِمَةٌ من أقوىٰ سِماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ وإن شئتَ قُلْتَ: قوةُ الشخصيةِ هي الرجولةُ بما تعنيهِ الكلمةُ، وقد اختلفَ علماءُ النفسِ كثيرًا في تعريف الشخصيةِ، حتىٰ وَصَلَ عَدَدُ تعاريفِ الشخصيةِ إلىٰ أرْبعينَ تعريفًا.

ويُحَدِّدُها بعضُ الباحثين علىٰ أنَّها: (مجموعةُ الصفاتِ الجِسْمِيَّةِ والعقليةِ والانفعاليةِ والاجتماعيةِ التي تَظْهَرُ في العلاقاتِ الاجتماعيةِ لفردٍ بعينِهِ وتُمَيِّزُهُ عن غيرِهِ).

(١) ديوانُ أبي تمامٍ (٦٨٥).

بضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا

مهلًا فما وطني الأَعَزُّ بضاعةٌ تُزْجى ولا قومي مَتاعٌ يُجْلَبُ(١)

قَرَأْتُ بحوثًا جَمَّةً بغيةَ الوقوفِ على قُوَّةِ الشخصيَّةِ التي أصبحَتْ حديثَ الناسِ فوجَدْتُ كُلَّ كاتبٍ يَطْرَحُ ما عنده من تَجارِبٍ وخِبْراتٍ وحِكَمٍ وأقوالِ المصيبُ منهم لا يَخْرُجُ بَحْثُهُ عن السماتِ المُتَمَثِّلَةِ في شَخْصِ نبيِّنا ﷺ وإنْ تعجبْ فاعْجَبْ أنْ تَجِدَ كاتبًا منهم يخرجُ عن السماتِ المُتَمَثِّلةِ في شَخْصِ نبيِّنا ﷺ فَيَنْقُدَهُ آخَرُ وَيَرُدَّهُ إلى حظيرةِ الحَقِّ والصوابِ وحالُهُ يقولُ: خَرَجْتَ عن هَدْيِ النبيِّ ﷺ وهكذا يدورُ علماءُ النفسِ ولو أنَّهم وَقَفُوا في ذَلِكَ نبيَّنا ﷺ لوفَّروا على أنفسِهم الوقتَ والجَهْدَ واختصروا الطريقَ على الناسِ، لكنْ: {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠} [النور: ٤٠].

فَقُلْتُ في نفسي: لو أنَّهم ظَلُّوا ألفَ سَنَةٍ يكتبون فإنما يُكْمِلون ما فاتَهم من سماتِهِ ﷺ، فنبيُّنا ﷺ هو المَثَلُ الأَعْلَى في قوةِ الشخصيةِ وكمالِ الرجولةِ، فقد أَدَّبَهُ رَبُّهُ فأَحْسَنَ تأديبَهُ، وجَمَعَ فيه جميعَ صفاتِ الرجولةِ الحَقَّةِ، والشخصيةِ الكاملةِ والمهابةِ العلميةِ وأبعدَهُ عن كُلِّ نَقْصٍ ونوَّهَ بذكرِهِ فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤} [القلم: ٤].

فَبَلَغَتْ دعوتُهُ مبلغَ الليلِ والنهارِ، وبَلَغَتْ محبَّتُهُ في القلوبِ فوقَ محبَّةِ النفسِ والأَهْلِ والناسِ أجمعين، ومَنْ لم يَجِدْ أَثَرَ هذا الحُبِّ من نفسِهِ فإيمانُهُ في نَقْصٍ.

وسوفَ نَذْكُرُ خُلاصَةَ ما ذَكَرَهُ علماءُ النفسِ من سماتِ قُوَّةِ الشخصيَّةِ ونستدِلُّ على ذلكَ من دينِنا الحنيفِ وهَدْيِ نبيِّنا ﷺ.

---

(١) ديوانُ أحمد محرم (٣٧٠).

١ - الحَزْمُ:

أَخَيَّ مَا نَحنُ من حَزْمٍ على ثِقَةٍ حتَّى نَكُونَ إِلَى الْخَيرَاتِ نَسْتَبِقُ(١)

يَذْكُرُ عَلماءُ النفسِ أن الحَزْمَ سِمَةٌ من سماتِ قَوِيِّ الشَّخصِيَّةِ ومَثَّلوا لذلكَ بأمثلةٍ وشُخُوصٍ من قَنَواتٍ مَتَعدِّدَةٍ وسواقٍ متنوعاتٍ ونحنُ عندنا الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ نبيُّنا ﷺ وسيرَتُهُ غَضَّةٌ طريَّةٌ(٢) ومَنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السواقِيا.

فالحزمُ والعَزْمُ سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ ومَعاذَ اللهِ أَنْ نَتْرُكَ هَدْيَ نبيِّنا ونُقْبِلَ على زبالةِ (شرِّ البريَّةِ) فيا ليتَ شبابَنا يَفْتَحون عيونَهم ليعرفوا أنَّ ما عندَهم قَطْرَةٌ من مَطْرَةِ سماتِ نبيِّنا ﷺ لكنَّ المُوَفَّقَ مَنْ وفَّقَهُ اللهُ والمهتدي من هداهُ اللهُ.

حَزْمُ النبيِّ ﷺ:

الحَزْمُ والعَزْمُ كانا من صنيعَتِهِ ما كُلُّ الائهِ يا قومِ أُحْصيها

ويَعْرَفُ الحَزْمُ بأَنَّهُ حُسْنُ التَّصَرُّفِ واتخاذُ المواقِفِ الواضحةِ بِقُوَّةٍ وإصرارٍ وهذا ممَّا أدَّبَ اللهُ به نبيَّهُ ﷺ قال اللهُ ﷻ: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)} [آل عمران: ١٥٩].

أَمَرَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ إِذا عَزَمَ على أمرٍ بعد مَشُورَةِ ذي الرَّأيِ الناصِحِ أن يَمْضيَ فيهِ متوكِّلًا مَعَ رَجاءِ السَّدادِ فِيهِ مِنَ اللهِ ﷻ وَلَا يتأَخَّرَ؛ لِأَنَّ لِلتَّأَخُّرِ آفاتٍ، والتَّرَدُّدُ يُضَيِّعُ الأَوْقاتِ.

---

(١) أمالي الزَّجاجيِّ (٥٤).

(٢) انظر: كتابي العَسَلُ المُصَفَّى في سيرةِ المُصْطَفَى ﷺ تَجِدْ فيه ما يملأُ الصَّدْرَ والنَّحْرَ.

فَسَمِّ رَبَّكَ وانهلْ من صحائفهِ شهدًا مُصَفًّى على نورٍ من

وقد مضىٰ النبيُّ ﷺ في دعوتِهِ كما قِيلَ:

يَسَـــدُّدُ الحَـــزْمُ لـــه خَطْـــوَة وتنطـــوي الأيَّـــامُ فـــي يُمنِـــهِ

ولم يَمُت حتىٰ قَرَّتْ عينُهُ بدخولِ الناسِ في دينِ اللهِ أفواجًا فإذا لم يَكُنْ هناك عَزْمٌ وحَزْمٌ لم يَكُنْ هناك دعوةٌ ولا قيادةٌ.

حَزْمُ الصديقِ:

صَدَقَ الحِجا. الحَزْمُ أشرفُ نزعةً والنَّـــاهِضُ الوثَّـــابُ أنبـــلُ موطنـــا

قامَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه من بعد صديقِهِ ورفيقِ عُمُرِهِ لِيُعْلِنَها للجميعِ: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَإِنَّ اللهَ حيٌّ لَا يَمُوتُ»[1].

فَيَجْثُو القومُ علىٰ رُكَبِهِم من هَوْلِ الحقيقةِ، وَيَمْضِي واثِقَ الخُطَىٰ لِنُصْرَةِ الحَقِّ الذي آمَنَ بِهِ.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ واسْتُخْلِفَ أبو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وقَدْ قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ، حَتَّىٰ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ: وَاللهِ، لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا، كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَوَ اللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ[2].

إِنَّهُ الحَزْمُ البعيدُ عن الضَّعْفِ، والحَقُّ الأبْلَجُ لا غَبَشَ فيه.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٦٦٧).

(٢) رواهُ البخاريُّ (١٣٣٩، ١٤٠٠)، ومسلمٌ رقم (٢٠).

وهكذا مَضَىٰ الصحابةُ علىٰ خُطىٰ نبيِّهم يَعْبَقُ ذِكْرُهُم بالحَزْمِ والعَزْمِ فأقاموا الدنيا وأقعدوها كما قِيلَ:

تُهدِي إليكَ رياحُ النَّصرِ نَشْرَهُمُ ... فَتَحسِبُ الزَّهرَ في الأكمامِ كُلَّ كَمِي

كأنَّهُم في ظُهورِ الخَيلِ نَبْتُ رُبًا ... من شَدَّةِ الحَزْمِ لا مِن شِدَّةِ الحُزْمِ

طارتْ قلوبُ العِدا من بأسِهم فَرَقًا ... فما تُفَرِّقُ بين البَهْمِ والبُهَمِ(١)

٢ - يَتَحَكَّمُ في غريزتِهِ أثناءَ غَضَبِهِ:

قَصَدْتُكَ مُشْتاقًا فَلَمْ أرَ حاجِبًا ... ولا ناظِرًا إلَّا بعينِ غَضُوبِ(٢)

ذَكَرَ علماءُ النفسِ أنَّ مِن سماتِ قويِّ الشخصيةِ تَحَكُّمُ الرجُلِ في غريزتِهِ أثناءَ غَضَبِهِ، والغَضَبُ: تَغَيُّرٌ يَحصُلُ عندَ غليانِ دَمِ القَلْبِ لِيَحصُلَ عنه التَّشَفِّي للصَّدْرِ(٣).

وقد كان النبيُّ ﷺ حليمًا لا يَغْضَبُ إلا لِلَّهِ.

حليمٌ إذا ما الحلمُ زَيَّنَ أهلَهُ ... مع الحلمِ في عينِ العدوِّ مهيبُ

إذا ما تَراهُ الرجالُ تحفَّظُوا ... فلمْ تَنْطِقِ العَوراءُ وهو قريبُ(٤)

أقسامُ الغَضَبِ:

الغَضَبُ يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمَينِ محمودٍ ومذمومٍ:

---

(١) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (٩/ ٧٥).

(٢) الرسائلُ للجاحظِ (٢/ ٨٤).

(٣) التعريفاتُ للجرجانيِّ (٢٠٩).

(٤) زهرُ الأَكَمِ (١/ ٢٩٠).

١- الغَضَبُ المحمودُ:

المحمودُ يكونُ من أجْلِ اللهِ عندما تُرْتَكَبُ حُرُماتُ اللهِ، أو تُتْرَكُ أوامِرُهُ ويُسْتَهان بها، وهذا من علاماتِ قوةِ الإيمانِ، ولكنْ بِشَرْطِ أنْ لا يَخْرُجُ هذا الغضبُ عن حدودِ الحِلْمِ والحِكْمَةِ، وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَغْضَبُ لله إذا انْتُهِكَتْ محارمُهُ، وكان لا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ، ولكنْ إذا انْتُهِكَتْ حُرُماتُ اللهِ لم يَقُمْ لِغَضَبِهِ شيءٌ، ولم يَضْرِبْ بيدِهِ خادِمًا، ولا امرأةً، إلا أنْ يجاهِدَ في سبيلِ اللهِ فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ منتصرًا من مظلَمَةٍ ظُلِمَها قطُّ مَا لم يُنْتَهَكْ من محارِمِ اللهِ، فَإذا انْتُهِكَ من محارِمِ اللهِ شيءٌ كَانَ أَشَدَّهم فِي ذلك غَضَبًا، وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُما مَا لم يَكُنْ إثْمًا»[١].

غضوبٌ لدينِ اللهِ في كُلِّ موطنٍ ... يعافُ الرضى حتى يَرى الدينَ راضيا[٢]

وقال آخَرُ:

هو العَسَلُ الماذيُّ لينًا وشيمةً ... وليثٌ إذا يَلْقى العدوَّ غَضُوبُ

حليمٌ إذا ما سَوْرَةُ الجَهْلِ أطْلَقَتْ ... حبى الشيبِ للنفسِ اللَّجوجِ غلوبُ[٣]

٢- الغَضَبُ المذمومُ:

وهو ما كانَ انتقامًا للنفسِ، وهذا الغَضَبُ تَتَرَتَّبُ عليه نتائجُ خطيرةٌ على الإنسانِ ذاتِهِ وعلى مجتمعِهِ، وهو الذي حَذَّرنا منه نبيُّنا ﷺ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

---

(١) الحديثُ أخرجَهُ البخاريُّ (٣٣٦٧)، ومسلمٌ (٢٣٢٧).

(٢) الدرةُ الخطيرةُ في شُعَراءِ الجزيرةِ (٣٦).

(٣) أمالي القالي (٢/ ١٥٠).

أَوْصِنِي، قَالَ: «لا تَغْضَبْ»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لا تَغْضَبْ»[١].

قال الخطابيُّ: (معنىٰ قولِهِ لاتَغْضَبْ: اجْتَنِبْ أسبابَ الغَضَبِ ولا تَتَعَرَّضْ لما يَجْلِبُهُ)[٢].

حَدِيثُ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ. وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ، مُغْضَبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا، لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ. لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ»[٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[٤].

٣- اتخاذُ صديقٍ صَدُوقٍ:

شَرُّ البلادِ بلادٌ لا صديقَ لها ... وشَرُّ ما يكسِبُ الإنسانُ ما ...

ذكر علماءُ النفسِ أنَّ مِن سماتِ قويِّ الشخصيةِ اتِّخاذَ صديقٍ صدوقٍ يَسْتَنِدُ إليه في المُلِمَّاتِ ويُعِينُهُ وَقْتَ الشدائدِ ويبوحُ له بما في نَفْسِهِ، فقد أَثْبَتَتْ بعضُ الدراساتِ أَنَّ الذينَ يَفْقِدُونَ شَخْصًا يَثِقُونَ بِهِ وقريبًا منهم لهم أَشَدُّ عُرْضَةً للاكتئابِ، بل وإنَّ بعضَ صُوَرِ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٦١١٦).

(٢) «فتحُ الباريّ» لابنِ حجرٍ (١٠/ ٥٢٠).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦١١٥)، ومسلمٌ (٢٦١٠).

(٤) رواهُ البخاريُّ (٦١١٤)، ومسلمٌ (٢٦٠٩).

(٥) الإبانةُ عن سرقاتِ المتنبي لفظًا ومعنىً (١٢٥).

الاضطرابِ العقليِّ تَنشأُ من مواجهةِ الإنسانِ لِمَشَاقٍّ وصعوباتٍ كبرى دون مَنْ يسانِدُهُ؛ لذلك إنْ وَجدَ الإنسانُ ذلك الأخَ الحميمَ، فَلْيُحْسِنْ مُعاشَرَتَهُ، ولْيُؤَدِّ حقوقَهُ، ولْيَصْفَحْ عن زلاتِهِ.

وتلك سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ فكَمْ هُمْ الأصحابُ، لكنْ مَنْ يُفْضِي إليهم ويداومُ على الجلوسِ معهم واستشارتِهم في كُلِّ ملمَّةٍ ونازلةٍ قليلٌ، ومنهم الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فلم يفارقْهُ في حياتِهِ كُلِّها إلا لأمرٍ لابُدَّ منه وكان كُلُّ واحدٍ يُحِبُّ صاحِبَهُ حبًّا لم يُحِبَّهُ أحدٌ من العالمينَ وواساهُ بِنَفْسِهِ ومالِهِ، فَعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي»؟ مَرَّتَيْنِ[1].

وعَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنِ اللهُ خيرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ؟ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، قَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لا تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ، لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»[2].

ونحنُ واللهِ في زمانٍ أصبحَ الصَّدِيقُ الوافيُّ عزيزَ الوجودِ كما قِيلَ:

مـا فـي زمانِـكَ مـا يَعـزُّ وجـودُهُ   إن رُمتَـهُ إلا صـديقٌ مخْلِـصُ[3]

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٦٦١).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٤٦٦).

(٣) التمثيلُ والمحاضرةُ (١١٣).

فَإِذا ظَفرتَ بصديقٍ صدوقٍ فاجْعَلْهُ بَين خلبِكَ وقَلبِكَ واغفرْ زَلَّهُ وتقبلْ عِلَّهُ[١].

٤- الاعتراف بالخَطإ ومحاولةُ التعلُّم منه:

وما نحنُ إلا كالخليطِ الّذي مَضَى فرائسُ دَهْرٍ مخطيءٌ ومُصِيبُ[٢]

ذكر علماءُ النفسِ أنَّ مِنْ سِمَةِ قوةِ الشخصيةِ الاعترافَ بالخطإِ ومحاولةَ التعلمِ منه؛ فالشخصيةُ المتميزةُ القويةُ هي التي تعترفُ بخَطئِها وتعتذرُ عنه، بلْ وتتحمَّلُ تَبِعاتِهِ.

والاعترافُ الخطإِ سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ والشواهِدُ جمَّةٌ غزيرةٌ لكنْ يكفي من الزادِ ما يُبَلِّغُ المحَلَّ.

عَنْ مُوسَىٰ بن طَلْحَةَ عَنْ أبيه قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بقومٍ على رُؤُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟»، فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ، يجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَىٰ فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغني ذلك شَيْئًا» فَأُخبِرُوا بذلك فَتَركُوهُ، فَأُخبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بذلكَ، فقَالَ: «إن كَانَ يَنْفَعهمْ ذَلِك فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلا تؤاخذوني بالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذا حدَّثْتُكُم عَنْ اللهِ بِشَيْءٍ فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أكذبَ على اللهِ ﷻ»[٣].

فَأَنْتَ ترىٰ المعصومَ ﷺ لا يَجِدُ غَضاضةً من أنْ يَعْتَرِفَ بالخطإِ أمامَ الملإِ.

وقد يُحْكِمُ الأيامَ مَنْ كانَ جاهلًا ويُردي الهوى ذا الرأيِ وهو لبيبُ

ويحمدُ الأمرَ الفتى وهو مخطيءٌ ويُعْذَلُ في الإحسانِ وهو مُصِيبُ

---

(١) انظر: كتابي «رسالةٌ إلىٰ وَلَدِي من تُصاحِبُ» فإنَّه هادٍ خَرِيتٌ يدلُّكَ علىٰ الصاحِبِ الذي تحتاجُهُ لِدُنياكَ وآخرتكِ - إن شاءَ اللهُ -.

(٢) التعازي (١٧٦).

(٣) رواهُ مسلمٌ (٢٣٦١).

وقال أُستاذنا - حَفِظَهُ اللهُ -:

تـراهُ إذا مـازلَّ يومًـا يـردُّهُ ... إلى الحقِّ نفسٌ تبصرُ العدلَ مغنما

فتَحْمَدُ مِنْ زَلَّاتِهِ أنها غَدَتْ ... على نفسِهِ حَرْبًا وللمجدِ سُلَّما

٥- الجُرْأَةُ:

يشـيعُهُ قَلْـبٌ جَـرِيءٌ جَنانُـهُ ... وَنَفْسٌ كَـأَنَّ الحَادِثَـاتِ عَبِيدُها(١)

ذَكَرَ علماءُ النفسِ أنَّ الجرأةَ في بيانِ ما يَعْتَقِدُهُ الشخصُ سمةٌ من سماتِ قَوِيِّ الشخصيةِ، وهذا تجِدُهُ في نبيِّنا ﷺ كالشمسِ في رائعةِ النهارِ، فقد كان يملكُ الجرأةَ والشجاعةَ والحكمةَ في بيانِ ما يعتقدُ أنه الحقُّ فَلَمْ يَمْضِ إلا أقلُّ مِن ربعِ قَرْنٍ حتى خَضَعَتْ له جزيرةُ العَرَبِ وَرَبَّى رجالًا على الجُرْأةِ فدانَتْ لهم الدنيا وما زالتْ الدنيا تَتَغَنَّى بتلكَ الجرأةِ إلى يومِ الناسِ هذا وإلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، فمَنْ كان أعظمَهُمْ له متابعةً كان أعظمَهم جُرْأَةً، فلا تَأْخُذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ.

أُولَئِـكَ قَـومٌ شَـيَّدَ اللهُ فَخْـرَهُمْ ... فَمَـا فَوْقَـهُ فَخْـرٌ وَإِنْ عَظُمَ الْفَخْرُ

سَمَوا في المَعَالي رُتْبَةً فَوقَ رُتْبَةٍ ... أَحَلَّـتْهُمْ حَيْـثُ النعـائِمِ والنَّسْـرُ(٢)

وقال اليازجيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

هم الرجـالُ رجـالُ الفخـرِ ذكـرهُمْ ... باقٍ على الدهرِ في الأفواهِ والكُتُبِ

أهلُ المزيـةِ فـي بـأسٍ وفـي كـرمٍ ... وسـادةُ الشـعرِ والأقـوالِ والخُطَبِ

---

(١) ديوانُ ابنِ المعتزِّ (٢٩٨).

(٢) أمالي القالي (١/ ٥٤).

كم غُصنٌ نادٍ بهم قِدمًا وكم عَمَرَتْ ... آثارُهم ناديًا في العُجْمِ والعَرَبِ
ظلَّنا نطارحُ عنهم كُلَّ نادرةٍ ... لم تَخْلُ من أدَبٍ للمرءِ أو طَرَبِ[1]

وقال أستاذنا - حَفِظَهُ اللهُ -:

لـه جُرأةٌ بين المنايا وبينها ... حدودٌ وأعرافٌ وعهدٌ وموثقُ
فيغدو وراءَ الموتِ والموتُ خَلْفَهُ ... كأنَّ العدا أسراهُ والسيفُ فيلَقُ

٦- الصَّمْتُ إلا فيما يفيدُ:

وفي الصمتِ سِتْرٌ لِلْعَيِيِّ وإنَّما ... صَحِيْفَةُ لُبِّ المرءِ أنْ يَتَكَلَّما[2]

يرىٰ علماءُ النفسِ أنَّ مِنْ سماتِ قَوِيِّ الشخصيةِ الصمتَ إلا فيما يفيدُ، وهذا سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ وقد كان كما تَصِفُهُ حبيبتُهُ عائشةُ رضي الله عنها «كان خُلُقُهُ القرآنُ»[3]، ونحنُ نَجِدُ في القرآنِ أخلاقَهُ بتمامِها ومن ذلك قولُ ربِّنا ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ مسارَّتِهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ في نجواهُ ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فهذا الأمرُ بالخيرِ والمعروفِ، تُباحُ له النجوىٰ والمسارَّةُ، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ التَّناجي بالحَثِّ علىٰ الصَّدقاتِ، والأمرِ بالمعروفِ، والإصلاحِ بينَ الناسِ، ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ يقصدُ بها رضاءَهُ تعالىٰ، ولا يقصُدُ رياءً، ولا ثناءً

(١) ديوانُ اليازجيِّ (٩).

(٢) الآدابُ النافعةُ (٤١).

(٣) رواه مسلم (٧٤٦).

بينَ الناسِ نالَهُ الأجرُ العظيمُ، وحثَّ النبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ على الصَّمْتِ إلَّا من الخيرِ فقال: «مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فليَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ[1]».

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»[2].

إن كـانَ يُعجِبُـكَ السُّكوتُ فَإنَّـهُ ... قَـد كـانَ يُعجِـبُ قبلَـكَ الأخيـارا

ولَـئِن نَـدِمتَ عَلـى سُكوتِكَ مَـرَّةً ... فَلَقَد نَدِمْتَ على الكَلامِ مِرارًا[3]

٧- الموازَنةُ:

وقـامَ فقامَـتْ للمعـالي معـالمٌ ... وللخيرِ أسواقٌ وللعدلِ ميزانُ[4]

يذْكُرُ علماءُ النفسِ أنَّ مِنْ سماتِ قُوِّيِّ الشخصيةِ الموازنةَ بينَ الحقوقِ والواجباتِ التي قد تَتعارَضُ أمامَ بعضِ الناسِ، فتَلْبِسُ عليهِ الأمْرَ، وتوقِعُهُ في التردُّدِ والحَيْرةِ.

ونبيُّنا ﷺ كان يعطي كلَّ ذي حَقٍّ فيُعْطِي أهلَهُ حَقَّهم من العَدْلِ والقِسْمَةِ وأصحابَهُ حَقَّهُم من النُّصحِ والتوجيهِ، والدعوةِ حَقَّها من البلاغِ المبينِ، ورَبَّهُ حَقَّهُ من العبادةِ الحَقَّةِ ونَفْسَهُ حَقَّها من الراحةِ فلا إفراطَ ولا تفريطَ.

فعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «دَخَلَتْ عليَّ خُوَيْلَةُ بنتُ حكيمِ بنِ أميةَ بنِ حارثةَ بنِ الأوقصِ السلميَّةُ، وكانَتْ عند عثمانَ بنِ مَظْعُونٍ رضي الله عنه قالتْ: فرأىٰ رسولُ اللهِ ﷺ بذاذةَ هيئتِها، فقال

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٠١٨)، ومسلمٌ (٤٧) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) (صحيحٌ) أخرجَهُ أحمدُ (٢/ ١٥٩) والتِّرمِذيُّ (٢٥٠)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الجامعِ (٦٣٦٧).

(٣) روضةُ العُقَلاءِ (٤٢).

(٤) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (٤١/ ٣٨٩).

لي: يا عائشةُ ما أَبَذَّ هيئةَ خويلةَ؟!، قالت: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ امرأةٌ لا زوجَ لها، يصومُ النهارَ، ويقومُ الليلَ فهي كَمَنْ لا زوجَ لها، فتركَتْ نفسها وأضاعَتْها، قالت: فبَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ عثمانَ بنِ مظعونَ فجاءَهُ، فقال: يا عثمانُ أرغبة عن سُنَّتي؟ فقال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ولكنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ، قال: فإني أنامُ وأصلِّي، وأصومُ وأُفطِرُ، وأنكِحُ النساءَ، فاتَّقِ اللهَ يا عثمانُ فإنَّ لأهلِكَ عليك حَقًّا، وإنَّ لضيفِكَ عليك حَقًّا، وإن لنفسِكَ عليك حقًّا، فصُمْ وأفطِرْ وصَلِّ ونَمْ»[1]، ونحو ذلك قالَهُ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما[2].

٨- تَعَوُّدُ استشارةِ أهلِ الخِبْرَةِ:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ العَقْـلَ زَيْـنٌ لأهلِـهِ ... ولكِنْ تَمامُ العقلِ طولُ التَّجارِبِ[3]

يرىٰ علماءُ النفسِ أَنَّ مِنْ سماتِ قويِّ الشخصيةِ تَعَوُّدَ استشارةِ أهلِ الخِبْرَةِ؛ لأنَّ الطمأنينةَ إلىٰ قولِ المُسْتَشارِ أقوىٰ منها إلىٰ النفسِ لِغَلَبَةِ حُظوظِها وفسادِ خواطِرِها.

وهذا خُلُقٌ من أخلاقِ نبيِّنا ﷺ وقد أثنىٰ اللهُ ﷻ علىٰ عبادِهِ المؤمنينَ لِتَخَلُّقِهِمْ بهذا الخُلُقِ العظيمِ، فقالَ ﷻ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾} [الشورىٰ: ٣٨].

وأَمَرَ نبيَّهُ ﷺ بمشاورةِ أصحابِهِ فقالَ ﷻ: {وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩]، وقد امتثلَ - عليهِ الصلاةُ والسلامُ؛ لذلكَ مع أَنَّهُ أكمَلُ الناسِ عَقْلًا وأصوبُهم رأيًا، فكانَ كثيرًا ما يقولُ لأصحابِهِ: «أَشِيروا عليَّ أَيُّها الناسُ»[4].

---

(١) أخرجَهُ أبو داودَ (١٣٦٩)، والإمامُ أحمدُ في المسندِ (٦/ ٨).

(٢) رواهُ مُسلمٌ (١١٥٩).

(٣) موسوعةُ الشِّعْرِ (١/ ١٠٧).

(٤) رواهُ البخاريُّ (٣٩٤٤).

إذا بَلَغَ الرأيُ المشورةَ فاستَعِنْ ... بِحَزْمِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازِمِ
ولا تَجْعَلِ الشُّورى عليكَ غَضاضَةً ... فإنَّ الخَوافي قُوَّةٌ للقَوادِمِ(١)

ويَجِبُ أنْ يكونَ المستشارُ ثِقَةً أمينًا حكيمًا مُجَرِّبًا - ولو امرأةً -، وقد ثَبَتَ في الصحيحِ: «أنَّ النبيَّ ﷺ لما فَرَغَ من مُكاتَبَةِ قريشٍ في صُلْحِ الحُدَيبيةِ أَمَرَ أصحابَهُ أنْ يَنْحَروا ويَحْلِقوا، فلَمْ يَقُمْ منهم رَجُلٌ، حتى قال ذلك ثلاثًا، فَدَخَلَ على أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها فَذَكَرَ لها ما لَقِيَ من الناسِ، فقالَتْ: يا نبيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذلكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحدًا منهم كلمةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وتَدْعُوَ حالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فخَرَجَ فلَمْ يُكَلِّمْ أحدًا منهم حتى فَعَلَ ذلكَ؛ نَحَرَ بُدْنَهُ ودَعَا حالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فلمَّا رأوا ذلكَ قاموا فنَحَروا، وجَعَلَ يَحْلِقُ بَعْضُهم بعضًا»(٢).

فهذا رسولُ اللهِ ﷺ وهو مَنْ هُوَ عَقْلًا وفَضْلًا - لا يَجِدُ غضاضةً في أنْ يعْرِضَ أمْرَ الأُمَّةِ على امرأتِهِ ثم يَأْخُذَ بقولِها ويعملَ بمشورتِها.

ومِنَ الرجالِ إذا زَكَتْ أحلامُهُمْ ... مَنْ يُستَشارُ إذا استُشِيرَ فَيُطْرِقُ
حتى يجولَ بكُلِّ وادٍ قَلْبُهُ ... فيرى ويعرفَ ما يقولُ ويَنْطِقُ(٣)

وقال آخَرُ:

ولا كُلُّ ذي رأيٍ بمؤتيكَ نُصْحَهُ ... ولا كُلُّ مؤتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
ولكنْ إذا ما استُجْمِعَا عندَ واحدٍ ... فَحُقَّ لهُ من طاعةٍ بنصيبِ(٤)

---

(١) محاضراتُ الأدباءِ (١/ ٤٤).

(٢) أخرجَهُ البخاريُّ (٣٥٨١).

(٣) روضةُ العُقَلاء (١٩٣).

(٤) محاضراتُ الأدباءِ (١/ ٤٤).

٩- سلامَةُ النفسِ من الحِقْدِ والروحِ العُدْوانِيَّةِ:

ولا أحمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهِمُ ... وليسَ رئيسُ القومِ مَنْ يَحمِلُ

يرىٰ علماءُ النفسِ أنَّ مِنْ سماتِ قويِّ الشخصيةِ سلامَةَ نَفْسِهِ من الحِقْدِ والروحِ العدوانيَّةِ، وهذه السِّمَةُ ممثلةٌ في نبيِّنا ﷺ فقد طَهَّرَ اللهُ قلبَهُ من الحِقْدِ والحَسَدِ والبغضاءِ والأحَنِ لاقَىٰ من قومِهِ ما لاقىٰ فَأُدْمِيَ ساقُهُ، وشُجَّ وجْهُهُ، وكُسِرَتْ رباعِيَّتُهُ فيقولُ: «اللهمَّ اغْفِرْ لقومِي فإنَّهُمْ لا يَعْلمونَ»[١].

١٠- العفوُ والتسامُحُ:

إذا عثَرَ النَّدمُ فاغفرْ لهم ... فإقدامُ كلِّ فريقٍ عُثُرْ[٢]

يرىٰ علماءُ النفسِ أنَّ قوِيَّ الشخصيةِ يَجِبُ أنْ يَتَحَلَّىٰ بالعفوِ والتسامُحِ، وهذه سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ فعن عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: «لَمْ يَكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ فاحِشًا ولا مُتفحِّشًا ولا سخَّابًا في الأسواقِ، ولا يَجزِي بالسيِّئةِ السيِّئةَ، ولكنْ يَعفُو ويَصفحُ»[٣].

وحثَّ ﷺ علىٰ العفوِ وبَيَّنَ أنَّهُ طريقُ العِزَّةِ، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[٤].

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٣٤٧٧)، ومسلمٌ (١٧٩٢).

(٢) ديوان المعري (٦٤٨).

(٣) أخرجَهُ: أحمدُ (٦/ ١٧٤، ٢٣٦، ٢٤٦)، والترمذيُّ (٤/ ٣٦٩)، وقال: حسنٌ صحيحٌ وإسنادُهُ صحيحٌ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ المِشْكاةِ» (٥٨٢٠).

(٤) رواهُ مسلمٌ (٢٥٨٨).

سامِحْ أخاكَ إذا أتاكَ بزلَّةٍ ... فخلوصُ شيءٍ قلَّما يتمكَّنُ

في كلِّ شيءٍ آفةٌ موجودةٌ ... إنَّ السِّراجَ على سناه يدخِّنُ(١)

وقال الحريريُّ:

سامِحْ أخاكَ إذا خلَطْ ... منهُ الإصابةَ بالغلَطْ

وتجافَ عن تعنيفِهِ ... إنْ زاغَ يوماً أو قسَطْ

واحفَظْ صنيعَكَ عندَه ... شكرَ الصَّنيعةَ أم غمَطْ

وأطِعْهُ إنْ عاصَى وهُنْ ... إنْ عزَّ وادْنُ إذا شحَطْ

واقْنَ الوَفاءَ ولو أخـ ... لَّ بما اشترطْتَ وما شرَطْ

واعلَمْ بأنَّكَ إن طلبـ ... تَ مهذَّباً رُمتَ الشَّطَطْ

مَنْ ذا الذي ما ساءَ قط ... ومَنْ لهُ الحُسنى فقطْ(٢)

١١- حُسْنُ الاستماعِ والإصغاءِ لِوُجْهَةِ نظرِ الآخرينَ:

يُصْغِي اللبيبُ لهُ فيَقْسِمُ لُبَّهُ ... بينَ التعجبِ منه والإعجابِ(٣)

يرى علماءُ النفسِ أنَّ مِن قوةِ الشخصيةِ حُسْنَ الاستماعِ والإصغاءِ لوجهَةِ نظرِ الآخَرين، وهذا خُلُقٌ من أخلاقِ نبيِّنا ﷺ فقد كان يُصْغِي لِغَيْرِه بِسَمْعِهِ وبَصَرِهِ وإشراقَةِ وجْهِهِ ولو كانَ ما يَسْمَعُهُ شِبْهَ الوساوِسِ، فقد جاءَ شابٌّ يطلُبُ الإذْنَ بالزِّنا فماذا كان من الأُسْوَةِ الحَسَنَةِ؟

---

(١) المحاضراتُ والمحاوراتُ (٣٩٧).

(٢) مقاماتُ الحريريِّ (٣٠).

(٣) ديوانُ السريِّ الرفاءِ (١٢٥).

فعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: «إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ؟ قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ»[1].

قال أبو تمام:

مَـنْ لـي بإنسـانٍ إذا أغضبْتُهُ ... وجهلْـتُ كـان الحِلْمُ ردَّ جوابِـهِ

وإذا صبَوْتُ إلى المدامِ شَرِبْتُ من ... أخلاقِـهِ وسَـكِرْتُ مـن آدابِـهِ

وتَـراهُ يصـغي للحـديثِ بطرْفِـهِ ... وبِقَلْبِـهِ ولعلَّـهُ أدرى بِـهِ[2]

وقَالَ أُسْتَاذُنَا - حفظه الله -:

تُـبْ فـإنَّ العمـرَ فـانٍ ... واطْـرحْ عنـك الأمـاني

وانـسَ مـا كـانَ وسـامِحْ ... وتخلَّـقْ بالحِسـانِ

---

(١) أخرجَهُ أحمدُ ٥/ ٢٥٦ (٢٢٥٦٤) وصحَّحَهُ الألبانيُّ في الصحيحةِ (٣٧٠)، وصحَّحَهُ - أيضًا - شيخُنا الوادعيُّ في «الصحيحِ المُسْنَدِ» (٤٩٩).

(٢) موسوعةُ الشِّعْرِ (٦٤/ ٣٣٩).

١٢ - عَدَمُ إفشاءِ الأسرارِ:

هم الأهلُ لا مستودَعُ السرِّ ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذَلُ[1]

يرى علماءُ النفسِ أنَّ مِن سماتِ قوةِ الشخصيةِ عَدَمَ إفشاءِ أسرارِ العَمَلِ أو أيِّ شخصٍ كان أو التحدُّثَ عن أشياءَ ليستْ من اختصاصِهِ، وهذا خُلُقٌ من أخلاقِ نبيِّنا ﷺ فلَمْ يُفْشِ سِرًّا في حياتِهِ كُلِّها وحَثَّ على كِتمانِ السرِّ وجَعَلَ حِفْظَهُ كحِفظِ الأمانةِ سواءً بسواءٍ.

فعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ الحَديثَ ثم الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ»[2]، قال المباركفوري في شرحِهِ للحديثِ: «حُسْنُ المجالسِ وشَرَفُها، بأَمَانةِ حَاضِرِيها على ما يَقَعُ فيها من قَولٍ وفعلٍ. فكَأَنَّ المعنى: لِيكُنْ صاحِبُ المجلِسِ أمينًا لما يَسْمَعُهُ ويراهُ»[3].

وحِفْظُ أسرارِ المجالِسِ أمانةٌ كبرى يَجِبُ رعايتُها، وعدمُ إفشاءِ ما يُدارُ فيها من أمورٍ وأخبارٍ مهمةٍ، رُبَّما يَصِلُ كشفُها إلى خيانةٍ عُظْمَى وجراةٍ كبرى كما في قِصَّةِ حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعَةَ رضي الله عنه، في نقلِهِ لِخَبَرِ رسولِ اللهِ ﷺ بِفَتْحِ مَكَّةَ إلى زُعَمائِها[4]؛ إذْ أنَّ حاطبًا مِمَّنْ أَخْبَرَهُ النبيُّ ﷺ بِوِجْهَتِهِ إلى مكةَ، وهو ما جاء في سَبَبِ نزولِ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا

(١) شرحُ القصائِدِ العَشْرِ لِلخطيبِ التبريزيِّ: (٤٣٢ - ٥٣٢).

(٢) (حَسَنٌ) رواهُ الترمذيُّ وقال عنه: (حَسَنٌ)، (١٩٥٩)، وقال عنه الألبانيُّ: (حديثٌ حَسَنٌ).

(٣) التحفةُ في شرحِ جامعِ الترمذيِّ (٦/ ٩٣).

(٤) رواهُ البخاريُّ (٤٨٩٠)، وتفسيرُ القرآنِ العظيمِ، لابنِ كثيرٍ (٤/ ٤١)، و (٨/ ٨٢ - ٨٣).

جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾} [الممتحنة: ١].

حِفظُ أسرارِ الزوجين:

الرجُلُ والمرأةُ مؤتَمَنانِ على حفظِ أسرارِ كُلٍّ منهما، ويجبُ عليهما أنْ يَحرِصا أشَدَّ الحِرْصِ على عَدَمِ إفشائِها، ولا شَكَّ أنَّ حِفْظَ سِرِّ الزوجين من أخصِّ خصائِصِ كُلٍّ منهما تِجَاهَ الآخَرِ، ومن أكثرِها إسهامًا في ديمومةِ الحياةِ الزوجيةِ واستقرارِها، وَيَدْخُلُ في المحافظةِ على الأسرارِ سِتْرُ العوراتِ في العلاقاتِ الزوجيةِ

فَعَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ من أعظمِ الأمانةِ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ: الرَّجُلُ يُفضي إلى امرأتِهِ وتُفْضي إليه، ثم ينشُرُ سِرَّها»[1].

وفي روايةٍ: «إنَّ مِن أشَرِّ الناسِ عندَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ: الرجلُ يفضي إلى امرأتِهِ أو تُفضي إليه، ثم يَنشُرُ أحدُهما سِرَّ صاحِبِهِ».

وقال جريرٌ يرثِي امرأتَهُ في عَفافِها ومحافَظَتِها على حديثِها:

كَانَتْ إذا هَجَرَ الخَلِيلُ فِرَاشَهَا ... خُزِنَ الحَدِيثُ وعِفَّةُ الأسرارِ[2]

السلفُ وحفظُ الأسرارِ:

كان الصحابةُ رضي الله عنهم مَضرِبَ المثلِ في حفظِ الأسرارِ التي يؤتَمَنُونَ عليها.

---

(١) رواهُ مسلمٌ (١٤٣٧).

(٢) ديوانُ جريرٍ (٨٦٥).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا تُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا(١).

وهذه فاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ - ورضِيَ اللهُ عنها - تَضْرِبُ لنا مِثالًا في أمانةِ حفظِ السِّرِّ، كما رَوَتْ عائشةُ رضي الله عنها: «إنَّا كُنَّا أزواجَ النَّبيِّ ﷺ عنده جميعًا لم تغادِرْ منا واحدةٌ، فأقبلَتْ فاطمةُ رضي الله عنها تمشي ما تُخطئُ مِشيتَهَا من مِشيةِ رسولِ اللهِ ﷺ فلما رآها رَحَّبَ، قال: مَرْحَبًا بابنتي. ثم أجلسَها عن يمينِهِ أو عن شمالِهِ ثم سَارَّهَا، فَبَكَتْ بُكاءً شديدًا، فلما رأى حُزْنَها سَارَّهَا الثانيةَ، فإذا هي تَضْحَكُ. فَقُلْتُ لها: أنا من نسائِهِ خَصَّكِ رسولُ اللهِ بالسِّرِ من بيننا ثُمَّ أنتِ تبكين! فلما قامَ رسولُ اللهِ ﷺ سألتُها عمَّا سَارَّهَا؟ قالتْ: ما كُنتُ لِأُفشِيَ على رسولِ اللهِ ﷺ سِرَّهُ. فلمَّا تُوُفِّيَ قُلْتُ لها: عَزَمْتُ عليكَ بما لي عليكِ من الحَقِّ لَمَا أَخبَرْتِني! قالَتْ: أما الآنَ فَنَعَمْ. فأخبرَتْني قالَتْ: أما

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥١٢٢).

حينَ سارَّني في الأمرِ الأولِ فإنه أخبرني أنَّ جبريلَ ﷺ كان يعارِضُهُ بالقرآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وإنه قد عارَضَني به العامَ مَرَّتينِ، ولا أرىٰ الأَجَلَ إلا قد اقتربَ، فاتَّقي اللهَ واصْبِري، فإني نِعْمَ السلفُ أنا لك.

قالتْ: فبكيتُ بكائي الذي رأيْتِ، فلما رأىٰ جَزَعِي، سارَّني بالثانيةِ، قال: يا فاطمةُ! ألا ترضَيْنَ أنْ تكوني سَيِّدَةَ نساءِ المؤمنين، أو سيدةَ نساءِ هذهِ الأُمَّةِ!»[1].

وهذا حذيفةُ بنُ اليَمانِ رضي الله عنهما أمينُ سِرِّ رسولِ اللهِ ﷺ في المنافقين، وكان يُقالُ له: صاحِبُ السِّرِ الذي لا يَعْلَمُهُ أحدٌ غيرُهُ[2].

ولا يتوقَّفُ الأمرُ علىٰ أمانةِ حفظِ الأسرارِ عندَ الرجالِ والنساءِ مِنَ الصحابةِ بل حتىٰ الغِلمانُ، فهذا أنَسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه الغلامُ الصغيرُ الذي يَخْدُمُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أَسَرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ سِرًّا فما أخبرتُ به أحدًا بعدهُ، ولقد سألَتْني أُمُّ سُلَيم فما أخبرتُها به»[3].

إذا خَــدَمْتَ الملــوكَ فــالْبَسْ ... مِــنَ التــوقِّي أَعَــزَّ مَلْــبَسْ
وكُــنْ إذا مــا دَخَلْــتَ أعمــى ... وكُــنْ إذا مــا خَرَجْـتَ أَخْـرَسْ[4]

صِفاتُ أمينِ السِّرِّ:

قد تدعو الضرورةُ بعض الناسِ إلىٰ الإفضاءِ بأسرارِهم إلىٰ بعضِ أصدقائِهم من

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٢٨٥)، و (٦٢٨٦).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٣٧٤٢).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٢٨٩).

(٤) أحسنُ ما سمعتُ (٨٨).

أَجْلِ مشوَرتِهم أو تخفيفِ بعضِ همومِهم، فعليه أنْ يعلمَ أنَّ هناك صفاتٍ يَتَّصِفُ به مُستَودَعُ السِّرِّ وهي:

١- الأمانةُ:

عليك أنْ تتخَيَّرَ مَنْ وُصِفَ بالأمانةِ كما قال عامِرُ بنُ الطُّفَيْلِ:

إذا أنتَ لم تَجْعلْ لسِرِّكَ جُنَّةً تعرَّضْتَ أنْ تُرْوى عليكَ العَجَائِبُ

وما أجملَ قولَ حسَّانَ:

وأمينٍ حَفَّظْتُهُ سِرَّ نفسي فوعاهُ حِفظَ الأمينِ الأمينا[1]

٢- الدِّينُ والعقلُ:

يذكرُ الماورديُّ بعضَ الخِصالِ في صفاتِ أمينِ السرِّ: أن يكونَ: «ذا عَقْلٍ صادٍّ، ودينٍ حاجزٍ، ونصحٍ مبذولٍ، ووُدٍّ موفورٍ، وكتومًا بالطَّبْعِ»[2].

٣- الأصْلُ:

الرجُلُ ذو الأصلِ الذي بانَ أصلُهُ ورجولَتُهُ من أفعالِهِ قبلَ معرفتِكَ إلىٰ أيِّ أصْلٍ نُمِيَ وإلىٰ أي عِرْقٍ يَنْتمي مثلُ هذا بعيدٌ أنْ يخونَ الأمانةَ مهما انقطَعَ حَبْلُ الصَّداقةِ وانفَصَمَ عُرَىٰ المحبَّةِ

ليس الكريمُ الذي إن زلَّ صاحبُهُ بَثَّ الذي كانَ من أسرارِه عَلِما

إن الكريمَ الذي تبقى مودتُهُ ويحفَظُ السِّرَّ إنْ صافَى وإنْ صَرَما

---

(١) ديوانُ حسانَ بنِ ثابتٍ (٤١٤).

(٢) أدَبُ الدُّنيا والدينِ، ص ٢٩٦.

ومما ينبغي التنبُّهُ إليه في المحافظةِ على الأسرارِ وتخيرِ صفاتِ أمينِ السِّرِّ ما يأتي:

١- عَدَمُ إيداعِ السِّرِّ إلى مَنْ يَتطلَّعُ إليه، ويؤثِرُ الوقوفَ عليه:

لا تُذِعْ سِرًّا إلى طالِبِهِ ... منكَ فالطالبُ للسرِّ مُذِيعْ

وقال الأعشى:

صُنِ السرَّ عن كُلِّ مُسْتَخْبِرٍ ... وحاذِرْ فما الحَزْمُ إلا الحَذَرْ

أسيرُكَ سِرُّكَ إنْ صُنْتَهُ ... وأنتَ أسيرٌ له إنْ ظَهَرْ(١)

٢- عدمُ كثرةِ المستودعين للسِّرِّ، فإنَّ كَثْرَتَهم سَبَبُ الإذاعةِ، إذْ القليلُ منهم الذي يحافِظُ على السِّرِّ(٢)، وقد قِيلَ:

كُلُّ سِرٍّ جاوَزَ الاثنينِ شاعْ ... كُلُّ علمٍ ليسَ في القرطاسِ ضاعْ(٣)

١٣- الثِّقَةُ:

لَمْ أُؤاخِذْكَ بالجفاءِ لأنِّي ... وَاثِقٌ مِنْكَ بالوَفاءِ الصَّحيحِ

ذَكَرَ علماءُ النفسِ أنَّ من سِماتِ قويِّ الشخصيةِ أنْ يكونَ مَحَلَّ ثِقَةِ مَنْ حولَهُ، وقالوا: إنَّ الثقةَ، تصنعُها مطابقةُ الأقوالِ مع الأعمالِ، وصدقُ الوعودِ مع العُهودِ.

وهذه سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ فهلْ رَأَتْ الأمةُ أصْدَقَ وأوفى وأبَرَّ منه ﷺ شَهِدَ بذلكَ العدوُّ قبلَ الصديقِ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لما نزلَتْ: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) نُزهةُ الأبصارِ (٢٤٣).

(٢) أدبُ الدُّنيا والدينِ (٣٩٧).

(٣) جواهِرُ الأدبِ (٢/ ٤٨٣).

﴿ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]، نَادَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قُرَيْش بَطنًا، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُم لَو قُلْتُ لكم: إِنَّ خيلًا بِسَفحِ هَذا الْجَبَلِ أَكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ قَالُوا: نعمْ مَا جَرَّبنا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ»(١).

وجميعُ عهودِهِ ﷺ ذمةٌ ووفاءٌ فكَمْ عَاهَدَ فَلَمْ يَنقُضْ عَهْدًا فوفىٰ لقريشٍ عَهْدَها ووفىٰ لليهودِ عهودَهم وكذلك القبائِلُ التي بينَها وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ؛ لهذا ظَلَّتْ شخصيتُهُ ﷺ مَحَلَّ إِجلالٍ وإِكبارِ كُلِّ مَنْ عَرَفَهُ أو سَمِعَ به الموافقُ والمخالِفُ علىٰ السَّواءِ.

قَصَدْتُكَ لا أُدْلِي بِقُرْبَى ولا يَدٍ ... إليكَ سوى أني بجودِك واثِقُ

فإن قُلْتَ لي خيرًا أَكُنْ لَكَ شاكرًا ... وإن قلتَ لي عذرًا فإنك صادِقُ(٢)

١٤ - الالتزامُ بعاداتٍ وسلوكياتٍ مُحَدَّدَةٍ:

أرى المُحِبِّيْنَ لا تبقى عهودُهمُ ... وعَهْدُنا وهوانا دائمٌ باقِ(٣)

يرىٰ علماءُ النفسِ أَنَّ مِن سماتِ الشخصيةِ القويةِ أَنْ يَلْتَزِمَ بعاداتٍ وسلوكياتٍ محدَّدَةٍ صغيرةٍ، كأَنْ يقطَعَ علىٰ نفسِهِ أَنْ يقرأَ في اليومِ كتابًا أو يمشي نِصْفَ ساعةٍ مهما كانتْ الظروفُ والأجواءُ وهكذا، وقالوا: لِيَكُنْ الالتزامُ ضمنَ الطاقةِ ولِيَكُنْ صارمًا.

وهذهِ سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ فإنَّهُ كان إذا عَمِلَ عملًا أَثْبَتَهُ ودَاوَمَ عليه ولا يعطي نفسَهُ مناها من التساهُلِ؛ لأنَّهُ مَتَىٰ خُلِّيَ بينَ النفسِ ورغبتِها ضَيعتْ وتساهَلَتْ وتاقَتْ إلىٰ كُلِّ بَاطِلٍ.

فَعَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لِرَسُولِ اللهِ (حَصِيرٌ وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنَ اللَّيْلِ،

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ ٨/ ٦٠٩ (٤٩٧١)، ومسلمٌ ١/ ١٩٣ (٣٥٥ - ٢٠٨).

(٢) الأمالي الشجريةُ (٢/ ١٢) لأبي العيناءِ.

(٣) ديوانُ أبي الفَضْلِ بنِ الأحنفِ (١٨٣).

فَيُصَلِّي فِيهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ، فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ. فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ ما دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ». وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ (إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ)(١).

وقولُهُ (لا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا) معناهُ لا يَمَلُّ إذا مَلَلْتُم

وعَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: (سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَ: قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! كَيْفَ كَانَ عَمَلُ رَسُولِ اللهِ؟ هَلْ كَانَ يَخُصُّ شَيْئًا مِنَ الأَيَّامِ؟ قَالَتْ: لَا. كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً. وَأَيُّكُمْ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ يَسْتَطِيعُ)(٢).

ولا زِلْتَ يا عينَ الزمانِ مُوَفَّقًا ... لأمرِكَ منقادًا جميعُ العوالِمِ

وعشتَ طويلًا في سرورٍ ونعمةٍ ... وعزٍّ وإقبالٍ وفِعْلٍ مُداوِمِ(٣)

١٥ - الثباتُ على المَبْدأ:

ثَبتُّمْ ثباتَ الخَيزرانيِّ في الثرى ... حديثًا متى ما يأتِكَ الخَيْرُ يَنْفَعِ(٤)

يرىٰ علماءُ النفسِ أنَّ من سِماتِ قويِّ الشخصيةِ أنْ يكونَ صاحِبَ مبدأٍ لا يتزحزحُ عنه ولا يساوِمُ عليه، والمبدأُ هو العقيدةُ التي يَعْتَقِدُها الشَّخْصُ وما يَتَفَرَّعُ عنها من أخلاقٍ وقيمٍ وأعرافٍ فيقالُ: فلانٌ صاحِبُ مبدأٍ إذا كان لا يحيدُ عنه قيدَ شَعْرَةٍ بحيثُ يأمَنُ الناسُ مَكْرَهُ وغَدْرَهُ فَيَسْهُلُ التعايُشُ معه ويكسبُ احترامَ مَنْ حولَهُ.

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٢١٥).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٦٤٦٦)، ومسلمٌ (٢١٥).

(٣) نُزْهَةُ الأَبْصارِ (٢٩٤).

(٤) العِقْدُ (٦/ ٢٣٧).

وهذهِ سمةٌ من سِماتِ نبيِّنا ﷺ فقد كان صاحِبَ مبدأٍ لا يحيدُ عنه ولا يساوِمُ عليه ولا تأخُذُهُ فيه لوْمَةُ لائِمٍ، فقد لجأتْ قريشٌ إلى مفاوضةِ أبي طالبٍ عمِّ الرسولِ ليَكُفَّهُ المبدأَ الذي نَذَرَ نَفْسَهُ له، قَالَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: وهو شاهِدُ عيانٍ مُشارِكٌ في الحَدَثِ -: «جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينا في نادِينا وَفِي مَسْجِدِنَا فَانْهَهُ عَنْ أَذَانَا. فَقَالَ: يَا عُقَيْلُ ائتِنِي بِمُحَمَّدٍ. فَذَهَبْتُ فَأَتَيْتُهُ بِهِ، فَقَالَ: يا ابْنَ أَخِي إِنَّ بَنِي عَمِّكَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ وَفِي مَسْجِدِهِمْ فَانْتَهِ عَنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَحَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: مَا أَنَا بِأَقْدَرَ على أَنْ أدعَ لكم ذلك أَنْ تَشْتَعِلُوا لِي مِنْهَا بِشُعْلَةٍ». قَالَ: فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي فَارْجِعُوا»[1].

فأنتَ ترى الثباتَ على المَبْدَأِ ما يَجْعَلُ المعتَرِضَ كأَنَّهُ أمامَ جَبَلٍ لا يتزحْزَحُ من مكانِهِ وهكذا كانَتْ حياتُهُ ﷺ.

١٦ - الرفقُ مفتاحُ النجاحِ:

ينالُ بالرفقِ ما يغني الرجالَ به ... كالموتِ مستعجلا يأتي على مَهَلِ[2]

يرى علماءُ النفسِ أن الرفقَ مفتاحُ النجاحِ وسمةٌ من سماتِ قويِّ الشخصيةِ؛ لأنَّ الرفقَ في الأمورِ من شأنِهِ أن يُصلِحَ ويعطي أفضلَ النتائجِ وأجودَ الثمراتِ، بخلافِ العُنْفِ فمِنْ شأنِهِ أنْ يُفْسِدَ ويعطي نتائجَ سيئةً[3] والرفقُ[1] سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ:

---

(١) ابنُ إسحاقَ: السِّيَرُ والمغازي (١٥٥) من زياداتِ يونُسَ بنِ بكيرٍ عليه، وليونُسَ متابعٌ ثِقَةٌ هو عبد الواحِدِ بن زيادٍ عند الحاكِمِ: المستدركُ (٣/ ٥٧٧)، وقد صحَّحَ الألبانيُّ الحديثَ في الصحيحةِ (١/ ١٤٧).

(٢) روضةُ العقلاءِ لابنِ حبانَ البستيِّ (٢١٦).

(٣) «الأخلاقُ الإسلاميةُ» لعبدِ الرحمنِ الميدانيِّ (٢/ ٣٣٧).

(١) الرفقُ كما عرَّفَهُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ في «الفتح»: (١٠/ ٤٤٩): (هو لِينُ الجانِبِ بالقولِ والفعلِ والأخذُ =

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقولُ ﷻ مخاطبًا رسولَهُ ﷺ مُمْتَنًّا عليه وعلي المؤمنينِ فيما ألانَ به قلبَهُ على أمتِهِ المتبعينَ لأمْرِهِ، التاركينَ لِزَجْرِهِ، وأطابَ لهم لَفْظَهُ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي: أيُّ شيءٍ جعلَكَ لهم ليِّنًا لولا رحمةُ اللهِ بك وبِهِمْ)(١).

وقال – سبحانه – مخاطبًا رسولَ اللهِ ﷺ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]. (أي: ارْفِقْ بهم وأَلِنْ جانِبَكَ لهم)(٢).

وعَن عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ الْيَهُودَ أَتوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. قَالَ: «وَعَلَيْكُم». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيكُم، وَلَعَنَكُم اللهُ وَغَضِبَ عَلَيكُم. فَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ والعُنْفَ والفُحْشَ»، قَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَ لَمْ تَسمعي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِم، فَيُسْتَجابُ لي فيهمن وَلَا يُسْتَجابُ لَهُم فِيَّ»(٣).

الرفقُ ألطفُ ما اتَّخَذْتَ رفيقا	ويسوءُ ظَنُّكَ أنْ تكونَ شفيقا
فَخُذِ المجازَ من الزمانِ وأهلِهِ	ودَعِ التعمُّقَ فيه والتحقيقا(١)

= بالأسهلِ وهو ضِدُّ العُنْفِ).

(١) «تفسير القرآنِ العظيم» لابنِ كثيرٍ (٢/ ١٤٨).

(٢) «معالمُ التنزيلِ» للبغويِّ (٦/ ٢٠٧).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦٠٣٠).

(١) «مجمعُ الحِكَمِ والأمثالِ» لأحمد قبش (ص: ١٩٣).

وعن جرير رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ يُحْرَمْ الرفقَ يُحْرَمْ الخَيْرَ»(١).

قال ابنُ عُثيمينَ: (يعني أنَّ الإنسانَ إذا حُرِمَ الرفقَ في الأمورِ فيما يتصرَّفُ فيه لِنَفْسِهِ، وفيما يتصرَّفُ فيه مع غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ يُحْرَمُ الخَيْرَ كُلَّهُ أي فيما تصرَّفَ فيه، فإذا تصرَّفَ الإنسانُ بالعُنْفِ والشِّدَّةِ فإِنَّهُ يُحْرَمُ الخيرَ فيما فَعَلَ، وهذا شيءٌ مُجرَّبٌ ومُشاهَدٌ أَنَّ الإنسانَ إذا صار يتعامَلُ بالعُنْفِ والشدةِ؛ فإنَّه يُحْرَمُ الخَيْرَ ولا ينالُ الخَيْرَ، وإذا كان يتعامَلُ بالرفقِ والحِلْمِ والأناةِ وسَعَةِ الصَّدْرِ؛ حَصَلَ على خيرٍ كثيرٍ، وعلى هذا فينبغي للإنسانِ الذي يريدُ الخَيْرَ أن يكونَ دائمًا رفيقًا حتى يَنَالَ الخَيْرَ)(٢).

فعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»(٣).

قَالَ ابنُ عُثيمينَ: (قد يَظُنُّ بعضُ الناسِ أَنَّ معنى الرفقِ أَنْ تأتيَ للناسِ على ما يَشْتَهُونَ ويُريدونَ وليس الأمْرُ كذلك بل الرفقُ أَنْ تسيرَ بالناسِ حَسَبَ أوامرِ اللهِ ورسولِهِ ولكنْ تسلُكُ أقربَ الطُّرُقِ وأرفَقَ الطرقِ بالناسِ ولا تَشُقَّ عليهم في شيءٍ ليس عليه أَمْرُ اللهِ ورسولِهِ فإنْ شَقَقْتَ عليهم في شيءٍ ليس عليه أَمْرُ اللهِ ورسولِهِ فإنَّك تَدْخُلُ في الطرفِ الثاني من الحديثِ وهو الدعاءُ عليك بأَنْ يَشُقَّ اللهُ عليك)(١).

وعن عائشةَ رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال: (عَلَيْكَ بالرِّفْقِ إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٢٥٩٢).

(٢) «شرحُ رياضِ الصالحين» لابنِ عُثيمينَ (٢/ ٥٩٢).

(٣) رواهُ مسلمٌ (١٨٢٨).

(١) «شرحُ رياضِ الصالحين» لابنِ عثيمينَ (٣/ ٦٣٤).

وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[١]، وعن أبي الدَّرْداءِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ»[٢].

لَـمْ أرَ مِثْـلَ الرفـقِ فـي يُمْنِـهِ ... يسـتخرجُ العـذراءَ مـن خِـدْرِها

مَـنْ يَسْـتَعِنْ بـالرِّفْقِ فـي أمْـرِهِ ... يسـتخرجِ الحيَّـةَ مـن جُحْرِهـا[٣]

١٧ - المُلاينَةُ:

تجنَّبْ صديقَ السُّوءِ واصرِمْ حِبالَهُ ... وإنْ لم تَجِدْ عَنْهُ مَحيصًا فَدَارِهِ[٤]

يرىٰ علماءُ النفسِ أنَّ المُلاينَةَ سِمَةٌ من سماتِ قويِّ الشخصيةِ والمُلَاينَةُ هي المداراةُ، قال المناويُّ: (المداراةُ: المُلَاينَةُ والمُلاطفَةُ)[٥][١]

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٢٥٩٤).

(٢) رواهُ الترمذيُّ (٢٠١٣) واللفظُ له، وأحْمَدُ (٦/ ٤٥١) (٢٧٥٩٣)، والبخاريُّ في «الأدبِ المُفْرَدِ» (٤٦٤)، قال الترمذيُّ: حَسَنٌ صحيحٌ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامعِ» (٦٠٥٥).

(٣) (أحسنُ ما سَمِعْتُ) للثعالبيِّ (٨٨).

(٤) التذكرةُ الحمدونيةُ (٤/ ٣٧٠).

(٥) الذين كتبوا للناسِ عن قوةِ الشخصيةِ لَنْ تضوعَ شخصيتُهم حتىٰ يكونَ نبيُّنا ﷺ هو مَثَلَهُم الأعلىٰ في قوةِ الشخصيةِ وفي الرجولةِ الكاملةِ فهو الأُسْوةُ الحَسَنَةُ في كُلِّ شيءٍ، فقد فاتَهم كثيرٌ وحَصَلَ خَلْطٌ غزيرٌ، ومن ذلك الخَلْطُ بينَ المداراةِ والمداهَنةِ حتىٰ جعلوها شيئًا واحِدًا، والصوابُ أنَّ المداراةَ من صفاتِ المؤمنينَ والمداهَنةَ من صفاتِ المُنافِقِينَ:
قال ابنُ القيِّمِ - رحمهُ اللهُ تعالىٰ - في كتابه (الروح، ص: ٢٠٨): «المداراةُ صِفَةُ مَدْحٍ، والمداهَنَةُ صِفَةُ ذَمٍّ، والفرقُ بينهما أنَّ المُدارِيَ يَتَلَطَّفُ بصاحِبِهِ حتّىٰ يستخرجُ منه الحَقَّ أو يَرُدَّهُ عن الباطِلِ، والمداهِنَ يتلطَّفُ به لِيُقِرَّهُ علىٰ باطِلِهِ ويتركَهُ علىٰ هواهُ. فالمداراةُ لأهْلِ الإيمانِ والمداهَنَةُ لأهْلِ النفاقِ»

(١) التوقيفُ (٣٠١).

وهي الرفقُ بالجاهِلِ أو العدوِّ وعَدَمُ التصريحِ له بِأَنَّهُ ثقيلٌ أو غَيْرُ مرغوبٍ فيه أو أَنَّ فيهِ صفاتٍ لا تَصْلُحُ لِمِثْلِهِ وذلك بِقَصْدِ إصلاحِهِ أو السلامةِ من شَرِّهِ.

قال القاري: «المداراةُ قائمةٌ علىٰ الرفقِ لتحقيقِ المُرادِ من صَلاحِ مُعْوَجٍّ أو كفايةِ شَرِّ عدوٍّ ونحوه»[1].

وهي سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ، فعن عروةَ بنِ الزبيرِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَخْبَرَتْهُ قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ - أَوِ ابْنُ لِعَشِيرَةِ»، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ: ثم أَلَنْتَ لَهُ الْكَلَامَ؟ قَالَ: أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتِّقَاءُ فُحْشِهِ»[2].

عَنِ ابْنِ أَبِي ملكية، عن الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهُ قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَقْبِيَةً، وَلَمْ يُعْطِ مَخْرَمَةُ شَيْئًا، فَقَالَ مَخْرَمَةُ: يَا بُنَيَّ، انْطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، قَالَ: ادْخُلْ فَادْعُهُ لِي، قَالَ: فَدَعَوْتُهُ لَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْهَا، فَقَالَ: خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: رَضِيَ مَخْرَمَةُ[3].

قَالَ ابن بَطَّال: «الْمُدَارَةُ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ خَفْضُ الْجَنَاحِ لِلنَّاسِ وَلِينُ الْكَلِمَةِ وَتَرْكُ الإِغْلَاظِ لَهُمْ فِي الْقَوْلِ وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ الْأُلْفَةِ»[1].

---

(١) انظر: «مرقاةُ المفاتيحِ شرح مشكاةِ المصابيحُ» للمُلَّا علي القاري (٧/ ٢٩٤١).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٦١٣١)، وقال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ - رحمهُ الله تعالىٰ -: ولَفْظُهُ عند الحارثِ بن أسامة «إِنَّه منافقٌ أُداريهِ عن نفاقِهِ، وأخشىٰ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ غَيْرَهُ» (الفتح: ١٠/ ٥٢٩).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٦١٣٧).

(١) فتحُ الباريُّ (١٠/ ٥٢٨).

قال ابنُ حِبانَ - رحمهُ اللهُ تعالىٰ -: «مَنْ الْتَمَسَ رِضا جميعِ النَّاسِ التمس ما لا يُدْرَكُ، ولكنْ يَقصُدُ العاقلُ رضا مَنْ لا يَجِدُ من معاشَرَتِهِ بُدًّا، وإن دَفَعَهُ الوقتُ إلىٰ استحسانِ أشياءَ من العاداتِ كان يَسْتَقْبِحُها واستقباحُ أشياءَ كان يستَحْسِنُها، ما لم يَكُنْ مَأْثَمًا، فإنَّ ذلكَ من المداراةِ، وما أكْثَرَ مَنْ دارَىٰ فلم يَسْلَمْ فكيفَ توجَدُ السَّلامةُ لِمَنْ لا يُداري»[1].

مُداراةُ الأعداءِ واجبٌ لِلْحَذَرِ من شَرِّهِمْ:

قال الماورديُّ - رحمهُ اللهُ تعالىٰ -: إذا كان للإنسانِ عدوٌّ وقد اسْتَحْكَمَتْ شَحناؤُهُ واسْتوعَرَتْ سَرَّاؤُهُ، واسْتَخْشَنَتْ ضَرَّاؤُهُ، فهو يتربَّصُ بدوائرِ السُّوءِ انتهازَ فرصةٍ ويتجرَّعُ بمهانةِ العَجزِ مرارةَ غُصَّةٍ، فإذا ظَفَرَ نائِبَةٍ ساعَدَها، وإذا شاهَدَ نعمةً عانَدَها، فالبُعْدُ عن هذا حَذَرًا أَسْلَمُ، والكفُّ عنه مُتاركةً أَغْنَمُ؛ لِأَنَّهُ لا يَسْلَمُ من عواقِبِ شَرِّهِ، ولا يُفْلِتُ من غوائِلِ مَكْرِهِ إلَّا بالبُعْدِ عنه أو مداراتِهِ[2].

قال القاضيُّ التنوخيُّ:

ألْقَ العدُوَّ بوجهٍ لا قُطُوبَ بِهِ	يكادُ يقطُرُ من ماءِ البَشاشاتِ
فأحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَىٰ أعادِيَهُ	في جسمِ حِقْدٍ وثوبٍ من موَدّاتِ
الرِّفقُ يُمْنٌ وخيرُ القولِ أصدقُهُ	وكثرةُ المزحِ مفتاحُ العداواتِ[3]

ومن لطيفِ ما جاءَ في المداراةِ ما ذَكَرَهُ ابنُ الأزرقِ قال: (الأميرُ شَمْسُ المعالي كان من محاسِنِ الدُّنيا وبهجَتِها غيرَ أنَّهُ كان شديدَ السطوةِ وما زالَ علىٰ هذا الخُلُقِ حتىٰ

---

(١) روضةُ العُقَلاءِ (٧١ - ٧٢).

(٢) أدَبُ الدُّنيا والدينِ (٢٢٣ - ٢٢٤) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٣) أدَبُ الدُّنيا والدينِ (٢٢٣).

اسْتَوْحَشَتْ النفوسُ منه، وانقلبَتْ القلوبُ عنه فأجْمَعَ أعيانُ عَسْكَرِهِ على خَلْعِهِ ونَزْعِ الأيدي عن طاعَتِهِ فوافَقَ هذا التدبيرُ منهم غَيْبَتَهُ عن جرمانٍ بلدِهِ فلم يَشْعُرْ بذلك ولم يُخْبَرْ حتى قَصَدُوهُ وأرادُوا القَبْضَ عليه فحامَىٰ عنه بَعْضُ مَنْ كان في صُحْبَتِهِ من خواصِّهِ فنَهَبوا فِيلَهُ وأموالَهُ ورَجَعوا إلى جُرجانَ فَمَلَكُوها وبَعَثُوا إلى ولدِهِ أبي منصورٍ وقَهَرُوه على الوصول إليهم لِعَقْدِ البَيْعَةِ له فَأَسْرَعَ في الحضورِ، فلما وَصَلَ إليهم أجمعوا على طاعَتِهِ وخَلْعِ أبيهِ فلم يَسَعْهُ في تلك الحالِ إلا المداراةُ والإجابةُ خوفًا على خُرُوجِ المُلْكِ عن بيتِهِم ولمَّا رأى الأميرُ شَمْسُ المعالي تلكَ الحالَ توجَّهَ إلى ناحيةِ بسطامٍ بِمَنْ مَعَهُ من الخواصِّ لِيَنْظُرَ ما يَسْتَقِرُّ عليه الأَمْرُ فلما سمعَ الخارجون عليه انحيازَهُ إلى تلكَ الجهةِ حملوا وَلَدَهُ متوجِّهين قَصْدَهُ وإزعاجَهُ عن مكانِهِ فسار مَعهم مُضْطَرًّا فلما وَصَلَ إلى أبيهِ اجتمعَ به وتباكَيا وتشاكَيا وغَرَضُ الولَدِ أن يكونَ حِجابًا بينهُ وبين أعدائِهِ ولو ذهبتْ نفسُهُ فيه ورأى الوالدُ أنَّ ذلك لا يُجْدِي وأنَّهُ أحَقُّ بالمُلْكِ من بعدِهِ فَسَلَّمَ المملكةَ)[1].

مـا دُمْـتَ حَيًّـا فـدارِ النَّـاسَ كُلَّهُـمُ	فإنَّمـا أنـتَ فـي دارِ المـداراةِ
مَنْ يَدْرِ دارَىٰ ومَنْ لَمْ يَدْرِ سوفَ	عَمَّـا قليـلٍ نـديمًا للنـداماتِ[2]

١٨ - بَذْلُ الشُّكْرِ لِأَهْلِهِ:

شَكَرْتُكَ إنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التُّقى	وما كلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعمةً يَقْضِي[1]

(١) «بدائعُ السلْكِ في طبائعِ المُلْكِ» لابنِ الأزرقِ (١/ ٤٥٧).

(٢) «الآدابُ الشرعيةُ» لابنِ مفلحٍ (١/ ٥٤).

(١) أمالي القالي (١/ ٣٠)

يرىٰ علماءُ النفسِ أنَّ مِن سماتِ قويِّ الشخصيةِ بَذْلَ الشكرِ لأهلِهِ لا سيَّما مَنْ ساندُوه، ووقفوا إلىٰ جانِبِهِ في المُلِمَّاتِ والمُهِمَّاتِ، وفي المصائِبِ والنكباتِ. والشكرُ هو الاعترافُ بالفَضْلِ[1] إزاءَ نعمةٍ صَدَرَتْ من المشكورِ بالقَلْبِ أو باللسانِ أو باليَدِ أو غيرِها من الأعضاءِ كما قِيْلَ:

أَفَــادَتْكُمُ النعمــاءُ مِنِّــي ثلاثــةً ... يدي ولساني والضَّميرَ المُحَجَّبا(٢)

وهذا لاشَكَّ سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ، فها هو ﷺ يعترفُ بالفَضْلِ لِحَبِيبَتِهِ خديجةَ رضي الله عنها، عَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عَنْ أبيهِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَا غِرْتُ علىٰ أحَدٍ من نساءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ علىٰ خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا قطُّ، وَلَكِن كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صدائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لم يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امرأةٌ إِلَّا خَدِيجَةَ. فَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لي مِنْها وَلَدٌ»[1].

---

(١) الاعترافُ بالفضلِ هو أنْ يُقِرَّ المُتَفَضَّلُ عليه من النَّاسِ بفضلِ مَنْ يَصْدُرُ عنه الفَضْلُ ولا يَجْحَدُهُ أو يتناساهُ، ولا شكَّ أنَّ المولىٰ ﷻ هو صاحِبُ الفَضْلِ في الأُولىٰ والآخِرَةِ، إذْ هو المتفضِّلُ علىٰ أهلِ الدُّنيا مُسْلِمِهِمْ وكافِرِهِمْ بِنَعَمِهِ الَّتي لا تُحْصَىٰ، وفي الآخرةِ يُدْخِلُ عبادَهُ الصَّالحين الجَنَّةَ ويورثُهم دارَ المقامةِ من فَضْلِهِ.

إذا كـان شُكْري نعمـةَ اللهِ نعمـةً ... عليَّ لـه في مثلِها يَجِبُ الشُّكْرُ

فكيـف بلـوغُ الشُّكْرِ إلا بِفَضْلِهِ ... وإنْ طالت الأيامُ واتَّصَلَ العُمْرُ

إذا عَمَّ بالسَّرَّاءِ عَمَّ سرورُها ... وإن خصَّ بالضراءِ أعقبها الأَجْرُ

(٢) يريدُ أنَّ يدي ولساني وقلبي لكم، فليس في القلبِ إلا نُصْحُكُم ومحبَّتُكم، ولا في اللسانِ إلَّا الثناءُ عليكم ومدحُكُم، ولا في اليدِ وسائرِ الجوارحِ والأعضاءِ إلا مكافأتُكُم وخِدْمَتُكُم.

(١) البخاريُّ – الفتحُ ٧ (٣٨١٦)، ومسلمٌ (٢٤٣٥) واللفظُ لَهُ.

يا مَنْ يُسائِلُ أينَ حَلَّ حبيبُهُ ... جَهْلًا ويتركُهُ لِبُعْدِ مزارِهِ
لو كان قلبُكَ صادقًا في حُبِّهِ ... رَحَلَتْ بكَ الأشواقُ في آثارِهِ

ويعترفُ بالفضلِ لأبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَ النبيُّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ». فَبَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنِ اللهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ؟ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، قَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لا تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ، لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ[1]، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»[2].

وَيَعترفُ للأنصارِ بفضلِهم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ رضي الله عنهما بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؟ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا، فَدَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ عَصَبَ عَلَىٰ رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي[3] وَعَيْبَتِي[4] وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»[1].

---

(١) المعنىٰ: لا تُبْقُوا بابًا غيرَ مسدودٍ إلا بابَ أبي بكرٍ.

(٢) البُخاريُّ – الفتحُ ٧ (٣٦٥٤)، قال الحافظُ: في الحديثِ فوائدُ منها: شُكْرُ المُحْسِنِ والتنويهُ بفَضْلِهِ والثناءُ عليه (٧/ ١٦).

(٣) كِرشي: بكسرِ الكافِ: أي: جماعتي وموضعُ ثِقتي وفي الكلامِ تشبيهٌ لهم بالكَرْشِ.

(٤) عَيْبَتِي: موضعُ سِرِّي وأمانتي، أي: إنهم بطانتي وخاصتي.

(١) البخاريُّ – الفتحُ ٧ (٣٧٩٩)، ومسلمٌ (٢٥١٠) واللفظُ له.

كما أوصَىٰ بحِفظِ الجميلِ بالمُكافأةِ عليه أو الدعاءِ لِمَنْ عَجزَ عن المُكافَأةِ، فَعَنْ ابْنِ عُمرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ استعاذَ باللهِ فَأعيذوه وَمن سَأَلَ باللهِ فَأَعْطوهُ وَمَنْ دعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فكافِئُوهُ فَإِنْ لم تَجِدُوا مَا تكافِئُوه فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَروا أَنَّكُمْ قَدْ كافَأْتُموه»[١].

وحَثَّ علىٰ شُكرِ النَّاسِ، فَعَنْ أَبي هريرةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لا يَشْكُرِ النَّاسَ لا يَشْكُرِ اللهَ»[٢].

ويُفْهَمُ من ذلكَ أَنَّ مَنْ يَشْكُرُ النَّاسَ فإنَّما يَشْكُرُ اللهَ عز وجل أيضًا، والشُّكرُ لِلَّهِ يزيدُ في النِّعمةِ ويُورثُ الرِّضا:

الشُّكْرُ لِلَّهِ كَنْزٌ لا نفادَ لهُ ... مَنْ يَلْزَمِ الشُّكْرَ لم يَكْسِبْ به نَدَمًا[٣]

وقالَ الآخَرُ:

ومَنْ يَشْكُرِ المخلوقَ يَشْكرْ لِرَبِّهِ ... ومَنْ يَكْفُرِ المخلوقَ فهو كَفُورُ[٤]

فَلا يُزَهِّدَنَّكَ فِي صَنَائِعَ الْمَعْرُوفِ ما تَجِدُه مِنْ قِلَّةِ الشُّكْرِ، كما قيل:

يُزَهِّدُني فِي كُلِّ خيرٍ صَنَعْتُهُ ... إلى النَّاسِ ما جَرَّبْتُ من قِلَّةِ الشُّكْرِ[١]

---

(١) أخرجَهُ النسائيُّ (٥/ ٨٢)، وأبو داودَ (١٦٧٢)، وقال محققُ جامعِ الأصولِ (١١/ ٦٩٢): (٥) (صحيحٌ).

(٢) أخرجَهُ أحمدُ (٢/ ٢٥٨)، واللفظُ له، والترمذيُّ (١٩٥٤)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الجامعِ» (٦٦٠١).

(٣) في روضةِ العقلاءِ (ص: ٢٤٩).

(٤) في روضةِ العقلاءِ (ص: ٢٤٩).

(١) الآدابُ النافعةُ (٤٠).

بل عليك أنْ تصنعَ المعروفَ ولو في غيرِ موضِعِهِ، فإنَّ الله لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا فيجزيك بعملِكَ الصالحِ ويردُّ لك مَنْ كَفَرَ معروفَكَ شاكرًا ولو بعد موتِكَ فَطِبْ نَفْسًا وقَرَّ عَيْنًا

ازرعْ جميلًا ولو في غيرِ موضِعِهِ   فلا يضيعُ جميلٌ أينما زُرِعَا
إنَّ الجميلَ وإن طالَ الزمانُ به   فليس يَحْصُدُهُ إلا الذي زَرَعَا(١)

وإذا طلبتَ من أخٍ لك حاجةً أو شفاعةً فَبَذَلَ في جَهْدَهُ ولم يَنَلْ نجاحًا فقد وَجَبَ شُكْرُهُ كما قيل:

إذا الشافعُ استَقْصَى لك الجَهْدَ كُلَّهُ   وإنْ لَمْ يَنَلْ نُجْحًا فقد وَجَبَ الشُّكْرُ

١٩ - الطموح:

إذا ما طَمَحْتُ إلى غايةٍ   رَكِبتُ المنى ونَسيتُ الحَذرْ(٢)

يرى علماءُ النفسِ أن الطموحَ سمةٌ من سِماتِ قويِّ الشخصيةِ، وهذا مما لا شَكَّ فيه، ويُعَرفُ الطموحُ بأنه نزوعُ الإنسانِ إلىٰ معالي الأمورِ والعملُ علىٰ تغييرِ حالِهِ إلىٰ ما هو أسمىٰ وأنفعُ، وكلَّما نال مرتبةً نَظَرَ إلىٰ ما فوقَها، ولا يكونُ ذلك محمودًا إلَّا إذا وافقَ الشَّرعَ الحنيفَ(١).

وما فيكمْ إلَّا طموحٌ إلى العُلَى   جموحٌ إلى مجدٍ طريفٍ وتالدِ(٢)

---

(١) مَجاني الأدَبِ (٣/ ٥٥).

(٢) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (٩/ ٣٤٩).

(١) «نَضْرَةُ النعيم» (٧/ ٢٧١٣).

(٢) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (٢٣/ ٢١٨).

والطموحُ وعلوُّ الهِمَّةِ صِنوانِ لا يفترقانِ في الهدفِ والغايةِ غيرَ أنَّ وسيلةَ علوِّ الهِمةِ نبيلةٌ تَتَفِقُ مع علوِّ هِمَّةِ صاحِبِها[١]، فالهمةُ دليلٌ على الرجولةِ الحقَّةِ وهي سمةٌ من سماتِ نبيِّنا ﷺ فهِمَّتُهُ عاليةٌ لا تَعرِفُ الكَلالَ[٢]

لـه همـةٌ إن قِسْـتَ فَـرْطَ عُلُوِّهـا خَسِبْتَ الثريـا فـي قـرارِ قَلِيـبِ[٣]

وقد ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ كان إذا حَمِيَ الوَطِيسُ في الحَرْبِ كان أكثرَ الناسِ شجاعةً، وأعظَمَهُمْ إقدامًا، وأعلاهُمْ هِمَّةً، وقد قادَ - صلواتُ اللهِ عليه - بنفسِهِ خلالَ عَشْرِ سنين سَبْعًا وعشرينَ غَزَاةً، وكان يتمنَّىٰ أنْ يقودَ بنفسِهِ كُلَّ البُعوثِ التي بَعَثَها والسرايا التي سَيَّرَها، ولكنْ أَقْعَدَهُ عن ذلك أَنَّهُ كان لا يَجِدُ ما يُزَوِّدُ به جميعَ أصحابِهِ للخروجِ مَعَهُ في كُلِّ بَعْثٍ، وكان أكثرُهُمْ لا تطيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَقْعُدَ ورسولُ اللهِ ﷺ قد خَرَجَ إلى الجِهادِ.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي نفسي بيدِهِ، لولا أَنَّ رجالًا من المسلمينَ لا تَطِيبُ أنفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عني، ولا أَجِدُ ما أحمِلُهم عليه، ما تَخَلَّفْتُ عن سَرِيَّةٍ تغزو في سبيلِ اللهِ، والذي نفسي بيدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ في سبيلِ اللهِ ثُمَّ**

---

(١) الطُّموحُ وعلوُّ الهِمَّةِ يشتركانِ في الهَدَفِ والغايةِ، أي: تَطَلُّبُ المعالي، فإنَّهما قد يختلفانِ في الوسيلةِ والباعِثُ في علوِّ الهِمَّةِ قد يكونُ الأَنَفَةَ من خمولِ الضَّعَةِ أو الاستكبارَ لمهانةِ النَّقْصِ، أمَّا الباعِثُ على الطُّموحِ فهو نُزوعُ النَّفسِ دائمًا نحوَ الأعلىٰ والأرقىٰ، ومن حيثُ الوسيلةُ نَجِدُ أنَّ الطُّموحَ قد يَجْنَحُ بصاحِبِهِ إلى الغلوِّ والإسرافِ على النَّفسِ أو الغيرِ، أمَّا علوُّ الهِمَّةِ فلا يَسْلُكُ صاحِبُها إلَّا الدُّروبَ الشَّريفةَ الَّتي تَتَّفِقُ مع مبادئِ الشرعِ الحنيفِ. «نَضْرَةُ النعيمِ» (٧/ ٢٧١٤).

(٢) الكَلَالُ: الإعياءُ والتَّعَبُ. والكَلالُ [فصيحة] والكَلَلُ [صحيحة]، انظرْ: معجمَ الصوابِ اللغويِّ (١/ ٦٢٢).

(٣) أحسَنُ ما سَمِعْتُ (٨٨).

أحيىٰ، ثم أُقْتَلَ ثم أحيىٰ، ثُمَّ أُقْتَلَ ثُمَّ أحيىٰ، ثُمَّ أُقْتَلَ»[١].

وكان ﷺ القدوةَ في الهِمَّةِ العاليةِ في العبادةِ، فعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: إنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ من الليلِ حتىٰ تتفطَّرَ قدماه، فقُلْتُ له: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رسولَ اللهِ وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ؟ قالَ: «أفلا أكونُ عبدًا شَكُورًا»[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: صَلَّيْتُ مع النبيِّ ﷺ ليلةً فأطالَ القيامَ، حتىٰ هَمَمْتُ بأمْرِ سُوءٍ، قِيلَ وما هَمَمْتَ بِهِ؟ قالَ: هَمَمْتُ أنْ أجْلِسَ وادَعَهُ[٣][٤].

فَتَلُوُّ هِمَّتِهِ ﷺ لا تَنْحَصِرُ بالأمثلةِ فحياتُهُ كانت مليئةً بالهِمَمِ العاليةِ[٥].

لَـــهُ هِمَـــمٌ لا مُنْتَهَـــى لِكِبارِهـــا ... وهِمَّتُـــهُ الصُّغْرَى أجلُّ من الدَّهْرِ

لَـــهُ راحـــةٌ لَـــو أنَّ مِعْشـــارَ جُودِهـــا ... على البَرِّ صارَ البَرُّ أندى من البَحْرِ[٦]

٢٠ - الصَّبْرُ:

والصَّبْرُ مثلُ اسمِهِ في كلِّ نائبةٍ ... لكنْ عواقِبُهُ أحلى من العَسَلِ[١]

الصَّبْرُ هو حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ والتَّسَخُّطِ، وحَبْسُ اللِّسانِ عن الشَّكوى،

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٧٩٧).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٤٨٣٧)، ومسلمٌ (٢٨١٩) واللفظُ للبخاريِّ.

(٣) رواهُ مسلمٌ (٧٧٣).

(٤) انظر: موسوعةِ الأخلاقِ (١/ ٤٥٠).

(٥) انظر: كتابي (هِمَّةُ المُلُوكِ) ففيه ما يَشْفِي الغليلَ ويُروي العليلَ - إن شاءَ اللهُ -.

(٦) أحسنُ ما سَمِعْتُ (٨٨).

(١) ديوان كشاجم (٤٢٢).

وحَبْسُ الجوارِحِ عن التشويشِ[1].

ويرى علماءُ النفسِ أنَّ قويَّ الشخصيةِ لابُدَّ أنْ يكونَ بارِدًا كالثَّلجِ عند النوازِلِ والمُزعِجات؛ فالصَّبرُ عندَهم قاعدةٌ أساسيةٌ في قوةِ الشخصيةِ، والصَّبرُ سيدُ الأخلاقِ؛ لأنَّهُ ما من خُلُقٍ من أخلاقِ المسلمِ إلا وهو يرجعُ إلىٰ الصبرِ، قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لمَّا كان الصبرُ المحمودُ هو الصبرُ النفسانيُّ الاختياريُّ عن إجابةِ داعي الهوىٰ المذمومِ كانت مراتبُهُ وأسماؤُهُ بِحَسَبِ مُتعلَّقِه فإِنَّهُ إنْ كانَ صبرًا عَنْ شهوةِ الفَرْجِ المُحَرَّمةِ سُمِّيَ عِفَّةً وَضِدُّها الفُجورُ والزنا والعُهْرُ وإن كان عن شَهْوةِ البَطْنِ وَعَدمِ التسرعِ إلىٰ الطعامِ أو تناولِ مالا يَجْمُلُ مِنه سُمِّيَ شَرَفُ نفسٍ وشبَعَ نفسٍ وُسمِّي ضِدُّهُ شَرَهًا ودناءةً ووضاعةَ نفسٍ وإن كانَ عن إظهارِ ما لا يَحْسُنُ إظهارُهُ من الكلامِ سُمِّي كِتمانَ سِرٍّ وضدُّهُ إذاعةً وإفشاءً أو تهمةً أو فحشاءَ أو سَبًّا أو كذبًا أو قَذْفًا وإن كانَ عن فضولِ العيشِ سُمِّيَ زُهْدًا وضِدُّهُ حِرْصًا وإن كان علىٰ قَدْرِ ما يكفي من الدنيا سُمِّيَ قناعةً وضِدُّها الحِرْصَ أيضًا وإن كان عن إجابةِ داعي الغَضَبِ سُمِّيَ حِلْمًا وضِدُّهُ تَسرعًا وإن كان عن إجابةِ داعي العجلةِ سُمِيَّ وقارًا وثباتًا وضِدُّهُ طيشًا وخِفَّةً وإن كان عن إجابةِ داعي الفرارِ والهَرَبِ سُمِّيَ شجاعةً وضِدُّهُ جُبْنًا وخَوَرًا وإن كان عن إجابةِ داعي الانتقامِ سُمِّيَ عَفْوًا وصَفْحًا وضِدُّهُ انتقامًا وعقوبةً وإن كان عن إجابةِ داعي الإمساكِ والبُخْلِ سُمِّيَ جودًا وضِدُّهُ بُخْلًا وإن كان عن إجابةِ داعي الطعامِ والشَّرابِ في وقتٍ مخصوصٍ سُمِّيَ صَوْمًا وإن كانَ عن إجابةِ داعي العَجْزِ والكَسَلِ سُمِّيَ كَيْسًا وإن كانَ عن إجابةِ داعي إلقاءِ الكيلِ علىٰ الناسِ وعدمِ حَمْلِ كلهم سمي مروءةً فَلَهُ عند كُلِّ فعلٍ وتركٍ اسمٌ يَخصُّه بحسبِ متعلقِهِ والاسمُ الجامعُ لذلك كُلِّهِ

---

(١) تاج العروس (٢/ ٢٧٢).

الصبرُ وهذا يدلُّكَ على ارتباطِ مقاماتِ الدينِ كلها بالصبرِ من أولها إلى آخرِها وهكذا يُسَمى عَدْلًا إذا تعلَّقَ بالتسويةِ بين المتماثلين وضدُّهُ الظلمُ ويسمَّى سماحةً إذا تعلَّقَ ببذلِ الواجِبِ والمستَحَبِّ بالرضا والاختيارِ وعلى هذا جميعُ منازِلِ الدينِ»(١).

وسمةٌ من سماتِ الرجولةِ الحَقَّةِ ذَكَرَهُ اللهُ في كتابِهِ في أكثرَ من تِسْعينَ موضِعًا، وقَرَنَهُ الصَّلاةِ في قولِهِ تعالى: {وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾} [البقرة: ٤٥]، وجَعَلَ الإمامةَ في الدِّينِ موروثةً عن الصَّبْرِ واليقينِ بقولِهِ: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾} [السجدة: ٢٤](٢).

وهو سِمَةٌ من سِماتِ نبيِّنا ﷺ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ(٣) فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو

(١) عدة الصابرين (٢٠).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٣٩).

(٣) قَرْنُ الثَّعالِبِ: هو قَرْنُ المَنازِلِ، وهو ميقاتُ أَهْلِ نَجْدٍ، وهو على مرحلتين من مكةَ، وأصلُ القَرْنِ كُلُّ جَبَلٍ صغيرٍ يَنْقَطِعُ من جَبَلٍ كبيرٍ.

أَنْ يُخرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[١].

وحَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّكَ تُوعَكُ[٢] وَعْكًا شَدِيدًا. قَالَ: «أَجَلْ. إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُمْ»، قُلْتُ: ذلكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ. قَالَ: «أَجَلْ، ذلكِ كِذلكِ. مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذىً، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ[٣] الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»[٤].

وعَنْ جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ المَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ[٥] إِصْبَعُهُ فَقَالَ:

«هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»[٦]

والحياةُ لا ينهضُ برسالَتِها الكُبرىٰ إلا الرجالُ الصابرون الأقوياءُ علىٰ الطاعةِ وعلىٰ المعصيةِ والمَشَاقِّ، ومقارعةِ الأعداءِ، وحمايةِ الأَهْلِ، وإجابةِ داعي العشيرةِ، وتَحَمُّلِ متاعِبِ السَّفَرِ والمَشْيِ في مناكِبِ الأرضِ فإذا لم يَكُنْ هناكَ صَبْرٌ يَعْتَمِدُ عليه المَرْءُ فسوفَ يَعْتَمِدُ علىٰ صِحَّتِهِ، إذْ تطلُبُهُ الأوجاعُ كما يَطْلُبُ النارُ الهشيمَ أو السيلُ الحدورةَ، والعاقِلُ لا يختارُ غيرَ الصَّبْرِ؛ فاستدامةُ السَّعْيِ ومرارةُ الكِفاحِ ولَعْقُ الصَّبْرِ هي من سماتِ الرجالِ.

---

(١) البخاريُّ - الفَتْحُ (٦/ ٣٢٣١) واللفظُ له، ومسلمٌ (١٧٩٥).

(٢) تُوْعَكُ: الوَعْكُ، قِيْلَ: الحُمَّىٰ وقيل: أَلَمُها.

(٣) تَحُطُّ: تُلْقِيهِ مُنْتَثِرًا.

(٤) البُخَارِيُّ - الفَتْحُ (١٠/ ٥٦٤٨) واللفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٧١).

(٥) دُمِيَتْ: أي جُرِحَتْ وخرجَ منها الدَّمُ.

(٦) البخاريُّ - الفتحُ (١٠/ ٦١٤٦)، ومسلمٌ (١٧٩٦) واللفظُ لَهُ.

إِصْبِرْ على مَضَضِ الأدلاجِ بالسَّحَرِ ... وبالرَّواحِ على الحاجاتِ والكِبَرِ

لا تَعْجَزَنَّ ولا يُضجِرْكَ مَطْلَبُها ... فالنُّجْحُ يَتْلَفُ بين العجزِ والضَّجَرِ

إنِّي رأيتُ وفي الأيامِ تَجْرِبَةٌ ... للصَّبْرِ عاقبةٌ محمودةُ الأَثَرِ

وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أمرٍ يطالِبُهُ ... واستَصْحَبَ الصبرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ(١)

---

(١) العِقْدُ الفَرِيدُ (١/ ٢٠١).

أسبابُ اكتساب الرجولة

أسبابُ اكتسابِ الرجولةِ كثيرةٌ وفيما يأتي ذِكرُ بعضٍ منها:

١- العِلْمُ:

العِلْمُ أشرَفُ شيءٍ قالَهُ رَجُلٌ ... مَنْ لَمْ يَكُنْ فيه علمٌ لم يَكُنْ رَجُلا[(١)]

طلبُ العلمِ النافعِ من أعظمِ أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ الحَقَّةِ فَحَرِيٌّ بالرجُلِ أنْ يَضرِبَ من كُلِّ غنيمةٍ بِسَهْمٍ وَيَأْخُذَ من كُلِّ فَنٍّ بِنصيبٍ سِيَّما العلومُ الشرعيةُ فَيَعْبُدُ رَبَّهُ كما أمَرَ ويدعو إلىٰ سبيلِهِ علىٰ بصيرةٍ.

ويكفي العلمَ فخرًا أن اللهَ يَرْفَعُ أَهْلَهُ في الدنيا والآخرةِ، قال اللهُ ﷻ: {يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾} [المجادلة: ١١]. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «يرفَعُ اللهُ الذين أوتوا العلمَ من المؤمنين علىٰ الذين لم يُؤتَوا العلمَ درجاتٍ»[(٢)].

العلمُ يرفَعُ بيتًا لا عمادَ لَهُ ... والجهلُ يهدمُ بيتَ العِزِّ والشَّرَفِ[(٣)]

وقال آخَرُ:

واعلَمْ بِأنَّ العلمَ أرفَعُ رُتْبَةٍ ... وأَجَلُّ مكتسبًا وأسنَىٰ مَفْخَرِ

فاسْلُكْ سبيلَ المُقْتَفِينَ لَهُ تَسُدْ ... إن السيادَةَ تُقْتَنَىٰ بالدَّفْتَرِ[(٤)]

---

(١) جواهرُ الأدبِ (٢/ ٤٤٩).

(٢) رواهُ الدارميُّ في «سُنَنِهِ» (٢٥٣)، والطبريُّ في «تفسيرِهِ» (١٣/ ١٨)، والبيهقيُّ في «الشُّعَبِ» (٢/ ٢٦١).

(٣) جواهرُ الأدبِ (٢/ ٤٤٩).

(٤) يتيمةُ الدَّهرِ (٢/ ١٠٢).

وعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

وبالجملةِ فالعلمُ أكبرُ مِنْ أَنْ يُنبَّهَ عليه فهو عَلَمٌ في رأسِهِ نارٌ، قال أبو بكرٍ الإلبيريُّ يَحُثُّ وَلَدَهُ علىٰ طَلَبِ العِلْمِ:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا ... وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا[2]

وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ... وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا ... وَيَبْقَى ذِكْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبْتَا[3]

وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا ... خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

---

(١) رواهُ أحمدُ (٥/ ١٩٦) (٢١٧٦٣)، ورواهُ أبو داودَ (٣٦٤١)، والترمذيُّ (٢٦٨٢)، وابنُ ماجَهْ (٢٢٣)، وابنُ حِبَّانَ (١/ ٢٨٩) (٨٨)، وقال الألبانيُّ في «صحيحِ سُنَنِ أبي داودَ»: صحيحٌ.

(٢) الغَشَا: ضَعْفُ البَصَرِ.

(٣) العَضْبُ: السَّيْفُ القاطِعُ، والمُهَنَّدُ: السيفُ؛ وأصلُ معناه مِنْ هَنَّدَ السَّيْفَ؛ أي: شَحَذَهُ، أو هو منسوبٌ إلى الهِنْدِ (المصنوعُ من حديدِ الهِنْدِ).

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا ... لآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوى مُطَاعٌ ... وَلا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

وَلا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ ... ولا خِدْرٌ بِرَبْرَبِهِ كَلِفْتَا(١)

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا(٢)

٢- العقيدةُ:

فنحنُ الرجالُ الثابتون عقيدةً ... على المبدإ الأسمى إلى حِيْنِ نُقْبَرُ(٣)

من أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ العقيدةُ الصحيحةُ فَرَجُلُ العقيدةِ تَخَالُهُ قويَّ العزيمةِ ثابتَ الجأشِ صارمَ القلبِ، صادقَ البأسِ ذا بسالةٍ ونَجْدَةٍ، وشجاعةٍ وجُرْأَةٍ، فَمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ ما قُدِّرَ له سَيُصِيبُهُ، وأَنَّ أَجَلَهُ ورِزْقَهُ مكتوبٌ مُقَدَّرٌ يَجْعَلُهُ شجاعًا مِقدامًا لا يَخافُ؛ لِأَنَّ ما قُدِّرَ له سَيَأْتِيهِ، فمن أيِّ شيءٍ يخافُ؟ أَمِنْ شيءٍ لم يُكْتَبْ عليه فَلَنْ يصيبَهُ، أم مِن شيءٍ كُتِبَ عليه فلَنْ يَفِرَّ منه وهذا يدفَعُهُ إلىٰ الإقدامِ والشجاعةِ.

وعندما يُدرِكُ أَنَّ الله ﷻ المُعِزُّ المُذِلُّ فإنه يَجِدُ في العزةِ مَظْهَرًا من مظاهرِ الثِّقَةِ باللهِ ﷻ ورسوخِ اليقينِ والقوةِ في الدينِ والخُلُقِ.

فعن طارقِ بن شِهابٍ، قال: خرجَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه إلىٰ الشامِ، ومَعَنا أبو عبيدةَ بنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنهما فأَتَوا علىٰ مخاضةٍ، وعُمَرُ علىٰ ناقةٍ له، فَنَزَلَ عنها وخَلَعَ خُفَّيهِ

---

(١) الخِدرُ (بالكَسْرِ): سِتْرٌ يُمَدُّ للجاريةِ في البَيْتِ؛ وكلُّ ما وَرَّاكَ من بيتٍ ونحوِهِ.

والرَّبْرَبُ: القطيعُ من بَقَرِ الوَحْشِ. شَبَّهَ النساءَ الجميلاتِ بالبَقَرِ الوَحْشِيَّةِ.

(٢) ديوانُ أبي إسحاق الإلبيريِّ (٢٥).

(٣) ديوانُ محمدِ العيدِ خليفة (١٤٩).

فوضَعَهما علىٰ عاتِقِهِ، وأخذَ بزمامِ ناقتِهِ، فخاضَ بها المَخاضَةَ، فقال أبو عبيدةَ: «يا أميرَ المؤمنين، أأنتَ تفعلُ هذا؟! تَخلَعُ خُفَّيْكَ وتَضعُهما علىٰ عاتِقِكَ، وتأخُذُ بزمامِ ناقتِكَ، وتخوضُ بها المخاضَةَ! ما يَسُرُّنِي أنَّ أهلَ البَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ!»، فقال عُمَرُ: «أَوَّهْ![1] لو يَقُولُ ذا غيرُك أبا عبيدةَ؛ جَعَلْتُهُ نكالًا لِأُمَّةِ محمدٍ ﷺ، إنَّا كُنَّا أذَلَّ قومٍ، فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمهما نطلُبُ العِزَّ بغيرِ ما أعزَّنا الله به؛ أذلَّنا اللهُ»[2].

تَــالُو بِقُرْبِــكَ عِــزَّةً وَنَبَاهَــةً ... وَحَمَـوْ بِسَيْفِكَ طَارِفًـا وَتَلِيـدًا[3]

وبالجملةِ لا يَنْبُلُ الرجالُ إلا في ظلِّ العقيدةِ الصافيةِ ولا توجدُ هذه العقيدةُ في غيرِ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ الصحيحةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ الصالحِ من الصحابةِ والتابعين لهم بإحسانٍ[4]، وهذا هو النَّبْعُ الصافي فاقْصُدْهُ وخَلِّ القَنَواتِ.

يــا مَنْ يريـدُ عقيدةَ السَّلَفِ التـي ... قَــدْ أُيِّــدَتْ بِــدلائِلِ القُــرآنِ

فلقَــدْ أبــانَ لنــا الشــريعةَ دونمــا ... رَيْــبٍ ولا زَيْــغٍ ولا نُقْصَــانِ

واحْــذَرْ ســبيلَ الهــالكين فإنهــا ... تُرْدِيكَ عن سُنَنِ الهُدَىٰ بِهَوانِ[1]

---

(١) أَوَّهْ: كلمةُ تَوَجُّعٍ وتَضَجُّرٍ.

(٢) (صحيحٌ) أخرجَهُ الحاكِمُ في «المُسْتَدْرَكِ» (١/ ٦٢) و (٣/ ٨٢)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في الصحيحةِ (٥١).

(٣) ديوانُ ابنِ حيوسَ (٤١٥).

(٤) هناك مراجعُ لابُدَّ لك منها مثلُ كتابِ: «الوسطيةُ لابنِ تَيْمِيَةَ وشَرْحُها» للعثيمينَ، «والطحاويةُ وشَرْحُها» لابنِ أبي العِزِّ الحَنَفِيِّ، و «كتابُ التوحيدِ» لمحمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ وشرحُهُ لحفيدِهِ عبدُ الرحمنِ بنِ حَسَنٍ، ففي هذه الكُتُبِ الثلاثةِ ما يملأُ الصَّدْرَ والنَّحْرَ - إنْ شاء اللهُ - ولي بَحْثٌ متواضِعٌ بعنوان «عقيدةُ المسلمِ» لا تَنْسَ أنْ تُعرِّجَ عليه فهو إلىٰ تِلْكَ الكُتُبِ سُلَّمٌ فمن فَقَدَ السُّلَّمَ كيف يَعْبُرُ؟!

(١) موسوعةُ الشِّعْرِ (٦/ ٧١٧).

٣- اجتنابُ المَعاصي:

إنَّ المَعاصِيَ لا تُقيمُ بِمَنزِلٍ   إلَّا لِتَجْعلَ مِنهُ قاعًا صَفصَفا(١)

تَرْكُ المعاصي صغارِها وكبارِها سَبَبٌ من أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ الحَقَّةِ؛ لأنَّ المَعَاصِيَ سَبَبٌ لِهَوَانِ العَبْدِ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَمَتَىٰ هَانَ العَبْدُ عَلَىٰ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ، كما قَالَ تَعَالَىٰ: {وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)} [الحج: ١٨]؛ وَمَنْ ذَا يُكْرِمُ مَنْ أَهَانَهُ اللهُ؟! وَإِذَا هَانَ العَبْدُ عَلَىٰ اللهِ، انقَطَعَتْ عَنهُ أَسبَابُ الخَيرِ، وَاتَّصَلَت به أسبابُ الشَّرِ.

إذَا كَانَ هَذا فِعلَ عَبدٍ بِنَفسِهِ   فَمَن ذَا لَهُ مِن بَعدِ ذَلِكَ يُكرِمُ(٢)

٤- المحافظةُ على الصلاةِ في المَسْجِدِ:

مَنَائِرُكُمْ عَلَتْ في كُلِّ سَاحٍ   ومَسجِدُكم مِنَ العُبَّادِ خَالٍ

من أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ المحافظةُ علىٰ الصلواتِ الخَمْسِ في المساجِدِ، فالمَسْجِدُ عرينُ الأبطالِ منه يَتَخَرَّجُ الرجالُ، وَهَل تَخَرَّجَ الرجالُ في فَجرِ الإسلامِ إلا من المَسْجِدِ؟

قال اللهُ ﷻ: {فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ (٣٦) وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ} [النور: ٣٦-٣٧].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فَقَوْلُهُ: {رِجَالٌ} [النور: ٣٧] فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَمِهِمُ السَّامِيَةِ،

---

(١) دواوينُ الشِّعرِ العربيِّ (٨٩/ ٤٩).

(٢) «الداءُ والدواءُ» (ص: ١٢٣).

وَنِيَّاتِهِمْ وَعَزَائِمِهِمُ الْعَالِيَةِ، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارًا لِلْمَسَاجِدِ، الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَمَوَاطِنُ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَتَوْحِيدِهِ وَتَنْزِيهِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣][١]»

لا يُصْنَعُ الأبطالُ إلا ... في مساجِدِنا الفِساحِ

في روضةِ القرآنِ في ... ظِلِّ الأحاديثِ الصِّحاحِ

مَن خانَ حيَّ على الصلاةِ ... يخونُ حيَّ على الكِفاحِ

٥ - الخِطابةُ:

خطيبٌ تنهلُ الأسماعُ منه ... مناهلَ للنفوسِ بها شفاءُ[٢]

من أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ تَعَلُّمُ الخطابةِ والتَّمَكُّنُ منها، وقد كان العربُ لا يُسَوِّدُونَ من عرِيَ منها ولها عندَهم شَأْنٌ وأيُّ شَأْنٍ، إذْ كانوا يَسْتَخْدِمونَها في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم[٣]، وفي النُّصْحِ والإرشادِ[٤]، وفي الحَثِّ على قِتالِ الأعداءِ[٥]، وفي الدعوةِ إلى السِّلْمِ وحَقْنِ الدِّماءِ[١]، وفي مناسباتِهم الاجتماعيةِ المختلفةِ كالزواجِ، والإصهارِ إلى الأشرافِ[٢]، وكانوا يخطُبون في الأسواقِ

(١) تفسيرُ ابنِ كثيرٍ (٦/ ٦٧).

(٢) دواوين الشعر العربي (٤٣/ ٣٢٥).

(٣) انظر: «البيانَ والتبيينَ» (١/ ١٠٩).

(٤) البيانُ والتبيينُ (١/ ٤٠١).

(٥) الأمالي لأبي عليٍّ القالي (١/ ٩٢).

(١) البيانُ والتبيينُ (١/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «البيانَ والتبيينَ» (٢/ ٧٧).

والمحافلِ العِظامِ، والوِفادةِ علىٰ الملوكِ والأُمَراءِ، مُتَحَدِّثِينَ عن مفاخِرِ قبائِلِهِم ومحامِدِها، وكان لكلِّ قبيلةٍ خَطيبُها قال بعضُهُم:

وَهُمْ يَدْعُونَ القومَ في كلِّ مَوْطِنٍ ... بكلِّ خَطِيبٍ يَتْرُكُ القومَ كُظَّمَا

يَقُومُ فلا يَعْيا الكلامَ خَطِيبُنا ... إذا الكَرْبُ أنسى الجِبْسَ أنْ يتكلَّما(١)

والرسولُ ﷺ أخطَبُ العَرَبِ قاطبةً، وقد كان يَخْطُبُ في قريشٍ كثيرًا يَدْعوها إلىٰ الدينِ الحَنيفِ، والدخولِ في طاعةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ، ولما هاجَرَ إلىٰ المدينةِ أصبحَتْ الخطابةُ فريضةً مكتوبةً في صلاةِ الجُمُعَةِ والعِيدَينِ.

ما بنى جملةً من اللَّفظِ إلا ... وابتنى اللفظُ أمةً من عَفاءِ

منطقٌ يملأُ القلوبَ جلالًا ... في حُبُورٍ وبهجةٍ وصفاءِ

والخطابةُ إذا كانتْ هادئةً كانتْ محاضرةً وإذا كانت مُقْتَضَبَةً كانت كَلِمَةً، بل حتىٰ البيانُ الحَسَنُ في مخاطبةِ الخُلَفاءِ والأُمراءِ والملوكِ كُلُّ ذلك يَشْمَلُهُ اسْمُ الخِطابةِ في عُرْفِ العَرَبِ، ولكلِّ مقامٍ مَقالٌ.

فاحْرِصْ عليها، فهي من الرجولةِ بمكانٍ كما أنَّها تُكْسِبُكَ الشجاعةَ والجُرْأةَ والسُّؤْدَدَ وتَشْرَئِبُّ(٢) إليكَ الأعناقُ فغالبًا ما تدعوك المواقِفُ للوقُوفِ أمامَ جَمْعٍ من الناسِ فيكونُ كلامُكَ سببًا في إخمادِ فتنةٍ أو صُلْحًا بين جماعتينِ مُتنافِرَتين أو ترحيبًا بِمَنْ يستحقُّ الترحيبَ أو تَرْتَجِلُ كلامًا بحضرةِ أولي الأمْرِ أو تَصْعَدُ المِنبَرَ في الجُمُعَةِ أو العيدين أو تُلْقِي كلمةً علىٰ ضُيُوفِكَ أو تذكرُ لهم حكاياتٍ أو مواقِفَ سواءً للعظَةِ

---

(١) المفضليات (٢/ ٧٧)، والجِبْس: هُوَ العَيِيُّ الثَّقِيلُ اللِّسانِ.

(٢) تَشْرَئِبُّ أي: تمدُّ عُنقَها وترفَعُ رأسَها لِتَنْظُرَ.

والعِبْرَةِ أو إدخالِ السرورِ تأنيسًا لهم أو رَفْعِ وحْشَةٍ عنهم وذلك من خُلُقِ الكرامِ فإذا لم يَكُنْ عندك خلفياتُ الخِطابةِ فَقَدَتْ كلماتُكَ روحَها وخَلَتْ من رَوْعَةِ التأثيرِ وهيبةِ الكلماتِ وجَلالِ المُتكلِّمِ.

خطيبٌ حلا أسلوبُهُ وتَنوَّعتْ ... فُكَاهاتُهُ لطفًا لما هو رائمْ

رقيقٌ حديثٌ كالمُدامِ يديرُهُ ... فيَنْشَى به فَدْمٌ وَيَطْرَبُ عالِمْ

يودُّ الذي ألقى إليه بسمعِهِ ... لو الكونُ نادٍ والشُّهودُ العوالِمْ

٦ - الفَصَاحَةُ والبَيَانُ:

لَمْ يَبْقَ لي إلا البيانُ فَهَاكَهُ ... وكفى البيانُ لَدَى الأديبِ شَفِيعا[١]

من أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ التَّمَكُّنُ من الفصاحةِ والبيانِ، فَمَنْ كان ذا فصاحةٍ وبيانٍ وإعرابٍ وإتقانٍ، فقد تَمَّتْ رجولَتُهُ وقد كانَ العَرَبُ لا يُسَوِّدُونَ عليهم مَنْ عَطِلَ من الفصاحةِ والبيانِ، قال أبو عمرِو بنُ العَلاءِ: إنَّ أَهْلَ الجاهليَّةِ لا يُسَوِّدُونَ إلا مَنْ تكامَلَتْ فيه سِتُّ خِصالٍ: السَّخاءُ والنَّجْدَةُ والصَّبْرُ والبَيَانُ والحِلْمُ وتمامُهُنَّ الإسلامُ[٢].

وقال الأصمعيُّ: (العَرَبُ تقولُ: جَمالُ الرَّجُلِ الفَصَاحَةُ)[٣]، وقال ابنُ عَبدِ البَرِّ: (كانَ يُقالُ: الجَمَالُ في اللسانِ)[١].

والسببُ أنَّ صاحِبَ الفصاحةِ والبيانِ يغلِبُ غَيْرَهُ بِحُسْنِ بيانِهِ وروعةِ تِبْيانِهِ حتى

(١) ديوانُ أمينِ تقيِّ الدينِ (٧٧).

(٢) البصائرُ والذخائرُ (٦/ ٢١٢).

(٣) إعرابُ القراءاتِ، لابنِ خالَوَيْهِ (١/ ٣١).

(١) بهجةُ المَجَالِسِ، لابنِ عبدِ البَرِّ (١/ ٥٨).

يَسْتَوْلِي علىٰ القُلُوبِ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا فَعجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ»(١).

فدلَّ الحديثُ علىٰ أنَّ من البيانِ ما يكونُ سِحْرًا؛ لِأَنَّهُ يُوَضِّحُ الْمُشْكِلَ وَيَكْشِفُ الغامِضَ وَيُقَرِّبُ البعيدَ ويُبْعِدُ الْقَرِيبَ ويُزَيِّنُ الْقَبِيحَ ويُعَظِّمُ الحقيرَ ويَكْشِفُ عَن حَقِيقَتِهِ بِحُسْنِ بَيَانِهِ فَيَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ كَمَا تُسْتَمَالُ بالسِّحْرِ وقَالَ بَعضُهم: «لمَّا كَانَ فِي الْبَيَانِ من إبداعِ التَّرْكِيبِ وغَرابةِ التَّأْلِيفِ مَا يَجْذِبُ السَّمعَ ويُخْرِجُهُ إِلَىٰ حَدٍّ يَكَادُ يَشْغَلُهُ عَن غَيْرِهِ شَبَّهَهُ بالسِّحْرِ الحقيقيِّ وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ السِّحْرُ الْحَلَالُ».

فِي زُخْرُفِ القَولِ تَرجيحٌ لقائِلِهِ ... والحَقُّ قَد يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَغْيِيرِ
تَقولُ هذا مُجاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وإن تَعِبْ قُلْتَ ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ
مَدْحًا وذمًّا وما جاوزتَ وَصْفَهما ... سِحْرُ البيانِ يُرى الظلماءَ كالنُّورِ(٢)

ومن أَجْوَدِ ما قيلَ في البيانِ قولُ ابنِ الرُّوميِّ:

وحَديثُها السِّحرُ الحَلالُ لَو أَنَّهُ ... لَم يَجْنِ قَتلَ المسلمِ المتحرِّزِ
إن طالَ لم يُمْلَلْ وإنْ هي أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المُحَدَّثُ أَنَّها لَم تُوجِزِ
شَرَكُ القُلوبِ ونُزْهَةٌ ما مِثْلُها ... للمُطمئِنِّ وعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ(١)

وجمالُ البيانِ في القرآنِ في حِفظِ أكثرِ آياتِه، في تَدَبُّرِ معانيهِ وفي الحديثِ النبويِّ، وبلاغَةُ

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٧٦٧).

(٢) ديوانُ ابنِ الروميِّ (٢٢٦٩).

(١) المرجعُ السابقُ (٢٣٠٩)، والأشباهُ والنَّظائِرُ (١٣).

النبيِّ ﷺ في تَعَلُّمِ اللغةِ العربيةِ واعتيادِ التحدثِ بها حتىٰ مَعَ الأطفالِ ليعتادُوا، وقد حَثَّ السَّلَفُ علىٰ تَعَلُّمِ العربيةِ، قال عُمَرُ رضي الله عنه (تَعَلَّمُوا العربيةَ)[1]، بل كانوا يَضرِبون أولادهُم علىٰ اللَّحنِ، فَعَنْ نافعٍ قالَ: كان ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما (يضرِبُ وَلَدَهُ علىٰ اللَّحنِ)[2].

إذا رُمْــتَ الحقيقَــةَ والصَــراحَةْ	وتَسـهيلَ البيـانِ مـع الفصـاحَةْ
بــلا نحــوٍ ولا لَحْــنٍ فبـادِرْ	فــإنَّ سـبيلَهُ صــارَتْ مُتاحَــةْ
تُحَـدِّثْ مـع بَنِيـكَ وهـم صِـغارٌ	ليعتــادَ اللِّسَــانُ علــى الملاحَــةْ
وحــاذِرْ أنْ تُوَجِّــلَ ذا فَتَشْــكُو	وَتَبكــي ثُــمَّ تَقْلِبهــا مناحَــةْ
فســوفَ يُجِيـدُها ويُجِيـدُ أُخْـرَى	فَتَـى الفتيـانِ لا تَخْـشَ افْتِضـاحةْ
فــإنَّ الطِّفْــلَ يَقْـدِرُ دونَ سَـبْعٍ	تَعَلُّــمَ سَـبْعِ أَلْسِــنَةٍ بِراحَــةْ
وإنْ سَـخِرَ العـوامُ بكـم فواصِـلْ	فــإنَّ الجَهْــلَ تَتْبَعُــهُ الوَقاحَــةْ

(١) (صحيحٌ) رواهُ أبو عوانَةَ في مُسْتَخْرَجِهِ، ط/ الجامعةُ الإسلاميةُ (١٦/ ٥٧٧)، وقال المُحَقِّقونَ: سَنَدُهُ صحيحٌ.

(٢) (صحيحٌ) أخرجَهُ البخاريُّ في الأدبِ المُفْرَدِ (٣٩٠)، وقال الألبانيُّ: صحيحٌ.

قال ابنُ تيميةَ رحمه الله في (الفتاوىٰ ٣٢/ ٢٥٢): وَمَعْلُومٌ أَنَّ «تَعَلُّمَ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَعْلِيمَ الْعَرَبِيَّةِ» فَرْضٌ عَلَىٰ الْكِفَايَةِ؛ وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَىٰ اللَّحْنِ. فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ، وَنُصْلِحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ؛ فَيَحْفَظُ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ وَالِاقْتِدَاءِ بِالْعَرَبِ فِي خِطَابِهَا، فَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ عَلَىٰ لحنهم كَانَ نَقْصًا وَعَيْبًا».

وقال رحمه الله في «اقتضاءِ الصِّراطِ المستقيمِ ص: ٤٢٧»: اعلمْ أنَّ اعتيادَ اللغةِ يُؤثِّرُ في العقلِ والخُلُقِ والدِّينِ تأثيرًا قويًّا بينًا، ويؤثِّرُ أيضًا في مُشابهةِ صَدْرِ هذه الأُمَّةِ من الصحابةِ والتابعين، ومشابهتُهم تزيدُ العقلَ والدينَ والخُلُقَ، وأيضًا فإنَّ نفسَ اللغةِ العربيةِ من الدينِ، ومعرفتَها فَرْضٌ واجبٌ، فإنَّ فهمَ الكتابِ والسُّنَّةِ فَرْضٌ، ولا يُفْهَمُ إلَّا بِفَهْمِ اللغةِ العربيةِ، وما لا يَتِمُّ الواجبُ إلَّا بِهِ فهو واجِبٌ.

وشَرُّ الصَّوْتِ صَوْتٌ مِنْ حِمارٍ ... وَدأبُ الكَلْبِ إتقانُ النُّباحَةْ

٧- مُجَالَسَةُ الرِّجَالِ:

إذا جالسَ الفتيانَ ألفَيْتَهُ فتًى ... وجالسَ كَهْلَ النَّاسِ ألفَيْتَهُ كَهلا[1]

مُجالَسَةُ الرجالِ الأفذاذِ النُّبلاءِ والاختلافُ إليهم من أعظَمِ أسبابِ اكْتِسابِ الرجولةِ ومن أمثالِ العَرَبِ «إنَّ البُغاثَ بِأرْضِنا يَسْتَنْسِرُ[2]»[3]

قال الأحْنَفُ بنُ قَيْسٍ رَحِمَهُ اللهُ: كُنَّا نَخْتَلِفُ إلى قيسِ بنِ عاصِمٍ في الحِلْمِ كما نَخْتَلِفُ إلى الفُقَهاءِ في الفِقْهِ.

وقال: حَضَرْتُ قَيْسَ بنَ عاصِمٍ وقد أتَوْهُ بابْنِ أخٍ له قَتَلَ ابْنَهُ، فجاءوهُ به مكتوفًا يُقادُ إليه، فقالَ: ذَعَرْتُمُ الفَتَى، ثم أقبلَ عليه فقالَ: يا بُنَيَّ نَقَصْتَ عَدَدَكَ، وأوْهَنْتَ رُكْنَكَ، وفَتَتَّ في عَضُدِكَ، وأشْمَتَّ عَدُوَّكَ، وأسأتَ بقومِكَ، خَلُّوا سبيلَهُ واحْمِلوا إلى أُمِّ المقتولِ دِيَتَهُ، فانصرفَ القاتِلُ وما حَلَّ قيسٌ حَبْوَتَهُ ولا تغيَّرَ وجْهُهُ[4]. وقال ابنُ أبي زِيادٍ: قال لي أبي: يا بُنَيَّ الزم أهلَ العَقْلِ وجالِسْهم واجْتَنِبْ الحَمْقَى، فإني ما جالَسْتُ أحمقًا فَقُمْتُ، إلا وَجَدْتُ النَّقْصَ في عَقْلي[1].

وإذا مَنَّ اللهُ عليك بِجُلَساءَ مِن الرجالِ فَقَبْلَ أنْ تستفيدَ منهم تَتَعَلَّمُ آدابَ المُجالَسَةِ.

---

(١) ديوانُ ابنِ عبدِ رَبِّهِ (٢٠٢).

(٢) صغارُ الطَّيْرِ، مُفْرَدُها بُغاثةٌ، ويَسْتَنْسِرُ: يصيرُ نَسْرًا، فلا يُقْدَرُ على صَيْدِهِ. والمَثَلُ يُضْرَبُ للعزيزِ يُعَزُّ به الذَّليلُ.

(٣) مَجْمَعُ الأمثالِ (١/ ١٠).

(٤) التذكرةُ الحَمْدُونيَّةُ (٢/ ١٢٧).

(١) أخبارُ الحَمْقَى والمُغَفَّلِينَ (٣٧).

إنْ أنتَ جالَسْتَ الرِّجالَ ذَوي التُّقى ... فـاجْلِسْ إلـيهم بالكَمـالِ مُؤَدَّبـا

واسـمعْ حـديثَهُمْ إذا هـم حَـدَّثُوا ... واجْعلْ حديثَك إنْ نَطقْتَ مُهذَّبا(١)

فإذا لم تَجِدْ الرجالَ فوقَ الثَّرَىٰ تَجِدُهُمْ في بُطُونِ الكُتُبِ.

إذا لـم أجِـدْ يومًـا جليسًـا مهـذَّبًا ... يُشاكِلُني في النَّجرِ جالَسْتُ دفترا

يُرِينـي الـورى الماضينَ مَنْ كـان ... ألبَّ وأقْوى في الخطوبِ وأصبرَا(٢)

٨ - القراءةُ في تراجِمِ الرِّجالِ:

إنَّ آثارَنـــــا تَـــدُلُّ علينـــــا ... فـانظروا بَعْـدَنا إلـى الآثـارِ(٣)

القراءةُ في تراجِمِ الرجالِ العظماءِ من أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ وأوَّلُهم نبيُّنا ﷺ(٤) ثُمَّ الصحابةُ ثُمَّ التابعونَ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ سِيَّما النُّبلاءُ الذين نَبُلُوا في الإسلامِ ولهم قَدَمٌ في نُصْرَةِ الإسلامِ والسُّنَّةِ عِلْمًا وعَمَلًا وجِهادًا(٥) وما أكْثَرَ الرجالِ الذين تَزْخَرُ بهم هذه الأُمَّةُ المرحومةُ فَسِرْ بقَلْبِكَ مع سِيَرتِهِم العَطِرَةِ فـ«أولئكَ هم خَيرُ البَرِيَّةِ»

هُمُ النجـومُ فَمسـائِلُها إذا الْتَبَسَـتْ ... عليـكَ عنـد السُّـرَى يـا صـاحبي

---

(١) من رحيقِ الشِّعْرِ (٥٧).

(٢) خريدةُ القَصْرِ (٥٥١).

(٣) الآدابُ النافعةُ (٤٠).

(٤) يُمْكِنُ الاستفادةُ من كتابِ «زادُ المَعَادِ في هَدْي خيرِ العِبادِ» لابنِ القيمِ، وكتابي «العَسَلُ المُصَفَّىٰ في سيرةِ المُصْطَفَىٰ ﷺ».

(٥) يُمْكِنُ الاستفادةُ من كتابِ «سِيَرُ أعلامِ النُّبَلاءِ» و «تاريخُ الإسلامِ» للذهبيِّ، و «البدايةُ والنهايةُ» لابنِ كثيرٍ.

اتبعْ طريقتَهمْ إعرفْ حقيقتَهمْ ... اقرأْ وثيقتَهمْ بالحبِّ يا رَجُلُ

وإياكَ والقراءةَ للكفرةِ الأنجاسِ الأرجاسِ كجيفارا وماندِيلا وماركس ومَنْ لَفَّ لَفَّهُم فـ«أولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ».

ومَنْ يَكُنِ الغرابُ لهُ دليلًا ... يَمُرُّ بهِ على جِيَفِ الكلابِ

٩ - مجاهدةُ النَّفْسِ:

إذا المرءُ لم يَغْلِبْ هواهُ أقامَهُ ... بمنزلةٍ فيها العزيزُ ذليلُ(١)

ومن أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ مجاهدةُ النَّفْسِ علىٰ ما يَتَحَلَّىٰ به الرجالُ من معالي الأخلاقِ ومحاسنِ الشِّيَمِ وترويضِها علىٰ طاعةِ اللهِ، فإنَّ ذلكَ سبيلُ عِزِّها ورفعَتِها وإنَّها لرياضةٌ أشدُّ من رياضةِ الأسدِ لكنَّ العاقبةَ حميدةٌ قال اللهُ ﷻ: {وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩} [العنكبوت: ٦٩].

وقال اللهُ ﷻ: {وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦} [العنكبوت: ٦].

وقال اللهُ ﷻ: {وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ} [الحج: ٧٨].

فيدخُلُ في معنىٰ الآياتِ: مُجَاهَدَةُ النفسِ علىٰ الرجولةِ، وترويضُها علىٰ المَحَاسِنِ والتأديباتِ، فالمجاهَدَةُ تحتاجُ إلىٰ صَبْرٍ ورَبَاطَةِ جَاشٍ؛ ولذا قال ﷺ: «المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ﷯»(١)، قال ابنُ عَبْدِ البَرِّ: (مُجاهدةُ النفسِ في صَرْفِها

---

(١) جامعُ العلومِ والحِكَمِ (١٧٢).

(١) أحمدُ (٢٣٩٩٧)، ابنُ حِبَّانَ (٤٦٢٤)، واللفظُ له، وقال الأرناؤوطُ: إسنادُهُ صحيحٌ.

عن هواها أشدُّ محاولةً وأصعبُ مرامًا وأفضلُ من مجاهدةِ العدوِّ»[١].

ولَكَ أنْ تنظرَ إلىٰ مُجاهدةِ النبيِّ ﷺ لِنفسِهِ علىٰ العبادةِ حتىٰ مَلَكَ زِمامَها، وأمَّا الرجولةُ فهو ﷺ مطبوعٌ عليها بالفِطرةِ وكذلكَ مكارمُ الأخلاقِ إنَّما يَحتاجُ للمجاهَدةِ مَنْ لم يُطبَعْ علىٰ ذلكَ[٢].

فعنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّىٰ حتىٰ انتفخَتْ قدماهُ. فقيلَ له: أتكلَّفُ هذا؟[٣] وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّمَ من ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟! فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»[٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: صلَّيْتُ مع النبيِّ ﷺ ليلةً، فلَمْ يَزَلْ قائمًا حتىٰ هَمَمْتُ بأمرِ سُوءٍ، قُلْنا: وما هَمَمْتَ؟ قال: أنْ أقعُدَ وأذرَ النبيَّ ﷺ[٥].

وعن حُذيفةَ؛ قال: صلَّيْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فافتتحَ البقرةَ فقُلْتُ[٦]: يَركَعُ عند المائةِ، ثم مَضَىٰ. فقُلتُ[٧]: يُصلِّي بها في ركعةٍ فمَضَىٰ، فقُلْتُ: يَركَعُ بها، ثمَّ افتتحَ النِّساءَ

(١) الاستذكارُ لابنِ عبدِ البرِّ (٨/ ٢٨٧).

(٢) انظرْ غيرَ مأمورٍ «كتابي (الأخلاقُ بينَ الطَّبعِ والتَّطبُّعِ» ففيه البَلاغُ إنْ شاءَ اللهُ.

(٣) أتكلَّفُ هذا؟ أي: أتتكلَّفُ هذا؟ فحُذِفَتْ إحدىٰ التاءين جوازًا.

(٤) البخاريُّ - الفتح ٣ (١١٣٠)، ومسلمٌ (٢٨١٩) واللفظُ له.

(٥) البخاريُّ - الفتحُ ٣ (١١٣٥).

(٦) فقلتُ: أي: في نفسي، يعني ظَننتُ أنه يركَعُ عند مائةِ آيةٍ.

(٧) فقلتُ يصلي بها في ركعةٍ: معناه ظننتُ أنه يسلِّمُ بها، فيَقسِمُها ركعتين، وأرادَ بالركعةِ الصلاةَ بكامِلِها، وهي ركعتان، ولابُدَّ من هذا التأويلِ لِينتظِمَ الكلامُ بعده، وعلىٰ هذا فقولُهُ: ثم مضىٰ، معناه قرأ مُعظَمَها بحيثُ غَلَبَ علىٰ ظَنِّي أنه لا يركَعُ الركعةَ الأولىٰ إلا في آخِرِ البقرةِ. فحينئذٍ قُلْتُ: يَركَعُ الركعةَ الأولىٰ بها، فجاوَزَ وافتتحَ النساءَ.

فقرأها، ثمَّ افتتحَ آلَ عِمرانَ فقرأها، يقرأُ مُترسِّلًا. إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبَّحَ. وإذا مرَّ بسؤالٍ سألَ، وإذا مرَّ بتعوّذٍ تعوَّذَ. ثمَّ ركعَ فجعلَ يقولُ: سبحانَ ربِّي العظيمِ، فكانَ ركوعُهُ نحوًا من قيامِهِ. ثمَّ قالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثمَّ قامَ طويلًا قريبًا مِمَّا ركعَ. ثمَّ سجدَ فقالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ»، فكانَ سُجودُهُ قريبًا من قيامِهِ)[1].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ، إذا دخلَ العَشْرُ[2]، أحيا اللَّيلَ، وأيقظَ أهلَهُ، وجَدَّ وشَدَّ المِئزرَ)[3].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا صلَّىٰ، قام حتَّىٰ تَفطَّرَ[4] رِجلاه. فقالَتْ عائشةُ: يا رسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا، وقد غُفِرَ لك ما تقدَّمَ من ذنبِك وما تأخَّر؟ فقالَ: «يا عائشةُ، أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»[5].

قال ابنُ عبدِ القويِّ رحمه الله:

وفي قَمْعِ أهواءِ النُّفوسِ اعْتِزَازُهَا ... وَفِي نَيْلِهَا مَا تَشْتَهِي ذُلُّ سَرْمَدِ

فَلا تَشْتَغِلْ إلَّا بِمَا يُكْسِبُ العُلَا ... ولا تَرْضَ لِلنَّفْسِ النَّفِيسَةِ بالرَّدِي[1]

ومن دُرَرِ أبي محمدٍ ابنِ حزمٍ رحمه الله قولُهُ: «كَانَتْ فِيَّ عُيُوبٌ فَلَمْ أَزَلْ بالرياضةِ (مجاهَدَةِ النفسِ) واطِّلاعِي علىٰ مَا قَالَتْ الأَنْبياءُ - صلواتُ اللهِ عَلَيْهِم - والأفاضِلُ

---

(١) مسلمٌ (٧٧٢).

(٢) إذا دَخَلَ العَشْرُ: أي العَشْرُ الأواخِرُ من رَمَضانَ.

(٣) البخاريُّ - الفتح (٢٠٢٤)، ومسلمٌ (١١٧٤) واللفظ لَهُ.

(٤) تفطَّرُ: أصلُها تتفطَّرُ. حُذِفَتْ إحدى التاءَين. أي تَتَشقَّقُ.

(٥) البخاريُّ - الفتحُ (٨/ ٤٨٣٧)، ومسلمٌ (٢٨٢٠) واللفظ لَهُ.

(١) القصائدُ الزهدياتُ (٢/ ١٩٩).

من الحُكَماءِ المُتَأخرِين والمُتَقدمينَ فِي الأَخلَاقِ وَفِي آدَابِ النَّفسِ أعاني مداواتَها حَتَّىٰ أعَانَ اللهُ ﷻ علىٰ أكثرِ ذَلِك بتوفِيقِهِ وَمَنِّهِ وَتَمام الْعدلِ ورياضَةُ النَّفسِ وَالتَّصرُّفُ بِأَزِمَّةِ الحَقَائِقِ هُوَ الإِقْرَارُ بِهَا لِيَتَّعِظَ بذلك مُتَّعِظٌ يوْمًا إن شَاءَ الله فَمِنْهَا كُلَفٌ فِي الرِّضاء[1] وإفراطٌ فِي الغَضَبِ فَلَمْ أَزَلْ أداوي ذَلِك حَتَّىٰ وَقَفْتُ عِنْدَ تَرْكِ إِظْهَارِ الْغَضَبِ جُمْلَةً بالْكَلَامِ وَالفِعْلِ والتَّخَبُّطِ وامْتَنَعْتُ مِمَّا لَا يَحِلُّ من الِانْتِصَارِ وَتَحَمَّلْتُ من ذَلِك ثِقْلًا شَدِيدًا وَصَبَرتُ علىٰ مَضَضٍ مؤلمٍ كَانَ رُبمَا أَمْرَضَنِي وأَعْجَزَنِي ذَلِك فِي الرِّضَا[2] وكَأنِّي سامَحتُ نفسي فِي ذَلِك؛ لِأَنَّها تَمَثَّلَتْ أَنَّ تَرْكَ لَوْمٌ وَمِنْهَا دعابةٌ غالبةٌ فَالَّذِي قَدَرْتُ عَلَيْهِ فِيهَا إِمساكي عمَّا يُغْضِبُ المازِحَ وسامحتُ نَفْسِي بِمَا يعرفُهُ من عيوبِها حَتَّىٰ ذَهَبَ كُلُّهُ وَلم يبْقَ لَهُ وَالحَمْدُ للهِ أثرٌ بلْ كَلَّفتُ نَفْسِي احتقارَ قَدْرِهَا جُمْلَةً واسْتِعْمَالَ التَّواضُعِ وَمِنْهَا حركاتٌ كَانَت تُوَلِّدُها غرارةُ الصِّبَا وَضَعْفُ الأعْضاءِ فَقَصَرْتُ نَفْسِي علىٰ تَرْكِها فَذَهَبَتْ وَمِنْهَا مَحَبَّةٌ فِي بُعْدِ الصِّيتِ والْغَلَبَةُ فَالَّذِي وَقَفْتُ عَلَيْهِ من معاناةِ هَذَا الدَّاءِ الإِمْسَاكُ فيه عَمَّا لَا يَحِلُّ فِي الدِّيانَةِ واللهُ الْمُسْتَعَانُ علىٰ الْبَاقِي»[1].

رَحِمَ اللهُ أبا محمدٍ، ولا شَكَّ أَنَّ أولَ درجاتِ المعالَجةِ ورياضةِ النفسِ هو الاعترافُ بالنَّقصِ، وقد راضَ نَفْسَهُ وأَلْجَمَها، وأما وَصْفُهُ للدواءِ فيقولُ: من امْتُحِنَ بالعُجْبِ فليُفَكِّرْ فِي عيوبِهِ فَإِنْ أُعجِبَ بِفضائِلِهِ فَلْيُفَتِّشْ مَا فِيهِ من الأَخلَاقِ الدَّنِيئَةِ فَإِنْ خَفِيَتْ عَلَيْهِ

---

(١) استرضاءُ الأصدقاءِ والإخوانِ حتىٰ تَبْقَىٰ المودَّةُ ولو علىٰ حِسابِ الكرامةِ الشخصيةِ، كما يُفْهَمُ من كلامِ ابنِ حزمٍ.

(٢) أي: عَجَزَ عن معالجةِ هذا العَيْبِ.

(١) رسائلُ ابنِ حَزمٍ الجُزْءُ الأولُ (ص ٣٥٢).

عيوبهُ جُمْلةً حتَّىٰ يظنَّ أنَّه لا عَيْبَ فِيهِ فليعلم أنَّ مصيبتَهُ إِلَىٰ الأَبدِ وأنَّهُ أتمُّ النَّاسِ نَقْصًا وأعظَمُهُمْ عيوبًا؛ لِأَنَّ العاقِلَ مَنْ مَيَّزَ عيوبَ نفسِهِ فغالَبَها وسَعَىٰ في قَمْعِها، فإنْ أُعْجِبْتَ بآرائِكَ فتَفَكَّرْ في سَقَطاتِكَ واحْفَظْها، وإن أُعْجِبْتَ بِخَيْرِكَ فتَفَكَّرْ في معاصِيك وتَقْصِيرِكِ، وإن أُعْجِبْتَ بِعِلْمِكَ فاعْلَمْ أنَّهُ لا خَصْلَةَ لَكَ فيه وأنَّهُ موهبةٌ من اللهِ...»[1].

وليس المرادُ بمجاهدةِ النفسِ مَنْعَها مما يُقيمُها، ومُخَالَفَتَها علىٰ الإطلاقِ؛ فإنَّ ذلك يُفسِدُ حالَها فيُعْمِيها ويُشَتِّتُ عَزْمَهَا ويُؤذِيها أكثرَ مِمَّا يَنْفَعُها، بل المرادُ تقويةُ العَقْلِ علىٰ الطَّبْعِ حتىٰ يَسْلَمَ المرءُ ولا يَهْلَكَ.

يقولُ ابنُ الجوزيِّ في بيانٍ جميلٍ: (أعجَبُ الأشياءِ مجاهَدَةُ النفسِ؛ لأنها تحتاجُ إلىٰ صناعةٍ عجيبةٍ؛ فإنَّ أقوامًا أطلَقُوها فيما تُحِبُّ فَأَوْقَعَتْهم فيما كَرِهوا، وإنَّ أقوامًا بالَغُوا في خِلافِها حتىٰ مَنَعُوها حَقَّها وظَلَمُوها، وأثَّرَ ظلمُهم لها في تَعَبُّداتِهِم، فمنهم من أساءَ غِذاءَها، فَأَثَّرَ ذلك في ضَعْفِ بَدَنِها عن إقامةِ واجِبِها، ومنهم مَنْ أفرَدَها في خَلْوةٍ أثْمَرتْ الوحْشَةَ من الناسِ، وآلَتْ إلىٰ تَرْكِ فَرْضٍ أو فَضْلٍ من عيادةِ مريضٍ أو بِرِّ والدةٍ.

وإنَّما الحازمُ من تَعْلمُ منه نفسُهُ الجِدَّ وحفظَ الأُصولِ؛ فإذا فَسَّحَ لها في مباحٍ لم تتجاسر أنْ تَتَعَدَّاهُ، فيكونُ معها كالمَلِكِ إذا مازَحَ بعضَ جُنْدِهِ، فإنه لا يَنْبَسِطُ إليه الغلامُ، فإن انْبَسَطَ ذَكَرَ هيبةَ المَمْلَكَةِ، فكذلك المُحَقِّقُ: يعطِيها حظَّها، ويَسْتَوفي منها ما عليها[1].

ومن أجملَ ما قيلَ في مجاهدةِ النَّفسِ:

والنَّفسُ كَالطِّفلِ إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ ... حُبِّ الرَّضَاعِ وَإنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ

---

(١) المصدرُ السابقُ (٢٨٧).

(١) صيدُ الخاطِرِ (١٥٦).

فجاهدِ النفسَ والشيطانَ واعصِهما ... وإنْ هما محّضاكَ النُّصحَ فاتّهِمِ(١)

١٠- الرياضةُ:

طورًا عِراكًا وأحيانًا مياسرةً ... رياضةُ المُهرِ بينَ العُنفِ والمَهلِ(٢)

ومن أسبابِ اكتسابِ الرجولةِ الحقَّةِ الاستمرارُ علىٰ الرياضةِ حتىٰ آخرِ العُمُرِ فإن ذلكَ يُكسِبُكَ الرجولةَ والنَّشاطَ الدائمَ في كُلِّ عَمَلٍ تقومُ به، وهذا من سُنَّةِ نبينا ﷺ ويكفي أنْ نُشيرَ إلىٰ أنَّهُ ﷺ سابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَجْرَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مَا ضُمِّرَ مِنَ الخَيْلِ(٣) (أي: وُلِيَتْ بالعَلَفِ حتَّىٰ سَمِنَتْ): مِنَ الحَفْيَاءِ إلىٰ ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ، أَجْرَىٰ مَا لَمْ تُضْمَرْ: مِنَ الثَّنِيَّةِ إلىٰ مسجدِ بني زُرَيْقٍ، قَالَ ابنُ عُمَرَ: فَكُنْتُ فِيمَنْ أَجْرَىٰ فَطَفَّفَ بِي الفَرَسُ.

وفي رِوَايَةٍ: أنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ سَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ مِنَ الحَفْيَاءِ، وأَمَدُها ثَنِيَّةَ الوَدَاعِ... وسَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ فَأَرْسَلَها مِنَ الثَّنِيَّةِ إلىٰ مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ، وأنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ كَانَ فيمَنْ سَابَقَ بها(١)، قَالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الحَدِيْثِ مَشْرُوعِيَّةُ المُسَابَقَةِ، وأنَّه لَيْسَ مِنَ العَبَثِ، بَلْ مِنَ الرِّيَاضَةِ المَحْمُوْدَةِ المُوْصِلَةِ إلىٰ تَحْصِيلِ المَقَاصِدِ

---

(١) بغيةُ الإيضاحِ (٣/ ٤٥٥).

(٢) الباروديُّ (٧).

(٣) الخيلُ التي أضمرتْ: هي الخيلُ التي وُلِيَتْ بِالعَلَفِ حتَّىٰ سَمِنَتْ، ثمَّ لا تعلف إلَّا قُوتَها الضروريَّ مُدَّةً، ثمَّ تُدخلُ بيتًا مكنونًا، ويُشدُّ عليها سُرجُها، وتُجلَّلُ بأجلَّتِها، حتىٰ تعرقَ، فيذهبُ زَهَلُها وسمنتها، ويشتدُّ لحمها، وتقوىٰ علىٰ الجري، ويُسمَّىٰ ذلك: مضمارًا، وتضميرًا، انظر: «لسانَ العربِ» لابنِ منظورٍ (٤/ ٢٦٠٦)، و«شرحَ مسلمٍ» للنوويِّ (٤/ ٥٣٤).

(١) أخرجهُ البخاريُّ (١/ ٥١٥)، ومسلمٌ (٤/ ٥٣٤، ٥٣٥).

في الغزوِ، والانتفاعِ بها عِندَ الحاجةِ»(١).

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ لِلنبيِّ ﷺ نَاقَةٌ تُسَمَّىٰ: العَضْبَاءُ لا تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَىٰ قَعُودٍ فَسَبَقَها، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ حَتَّىٰ عَرَفَهُ، فَقَالَ: «حَقٌّ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنيا إِلَّا وَضَعَهُ»(٢).

قال ابنُ حَجَرٍ رحمه الله: «وَفِي الحَدِيثِ اتِّخَاذُ الإبلِ للرُّكُوبِ، والمُسَابَقَةِ عَلَيْهَا»(٣).

السَّبْقُ بِالأَقْدَامِ:

فَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّها قَالَتْ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَسَبَقْتُه عَلَىٰ رِجْلِي، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُه فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ»(٤).

وعَنْ رُكَانَةَ رضي الله عنه أَنَّه صَارَعَ النبيَّ ﷺ، فَصَرَعَهُ النَّبيُّ ﷺ(١).

وهَدْيُهُ ﷺ في الرياضةِ فَوْقَ كُلِّ هَدْيٍ.

يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: «لا رَيْبَ أَنَّ الصَّلاةَ نَفْسَها فِيها: مِنْ حِفْظِ صِحَّةِ البَدَنِ، وإِذَابَةِ أَخلاطِهِ، وفَضَلاتِهِ مَا هُوَ مِنْ أَنْفَعِ شَيْءٍ لَهُ، سِوَىٰ مَا فِيها مِنْ حِفْظِ صِحَّةِ الإِيمَانِ، وسَعَادَةِ الدُّنْيا والآخِرَةِ.

---

(١) «فتحُ الباريِّ» لابنِ حَجَرٍ (٦/ ٧٣).

(٢) «أخرجَهُ البخاريُّ» (٦/ ٧٣).

(٣) «فتحُ الباريِّ» لابنِ حجرٍ (٦/ ٧٤).

(٤) أخرجَهُ أحمدُ (٦/ ١٢٩، ٢٨١، ٢٨٢)، وأبو داودَ (٢٥٧٥)، وهو صحيحٌ، انظر: «صحيحَ أبي داودَ» للألبانيِّ (٢٢٤٨).

(١) أخرجَهُ أبو داودَ (٤٠٧٨)، والترمذيُّ (١/ ٣٢٩)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «إرواءِ الغليلِ» (٥/ ٣٢٩).

وكذلك قيامُ الليلِ: مِن أنفعِ أسبابِ حِفظِ الصحَّةِ، ومِن أنفعِ الأمورِ لكثيرٍ مِن الأمراضِ المزمنةِ، ومِن أنشطِ شيءٍ للبدنِ، والرُّوحِ، والقلبِ، كما في الصحيحينِ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «يعقِدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ: يضرِبُ مكانَ كلِّ عُقدةٍ، عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقُدْ، فإنِ استيقظَ فذكرَ اللهَ انحلَّتْ عُقدةٌ، فإنْ توضَّأَ انحلَّتْ عُقدةٌ، فإنْ صلَّى انحلتْ عُقدُهُ؛ فأصبحَ نشيطًا طيِّبَ النفسِ، وإلَّا أصبحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ»[1].

* وفي الصومِ الشرعيِّ مِن أسبابِ حفظِ الصحَّةِ، ورياضةِ البدنِ، والنفسِ لا يدفعُه صحيحُ الفطرةِ.

* وأمَّا الجهادُ، وما فيهِ مِن الحركاتِ الكليَّةِ الَّتي هي مِن أعظمِ أسبابِ القوَّةِ، وحفظِ الصحَّةِ، وصلابةِ القلبِ، والبدنِ، ودفعِ فضلاتِهما، وزوالِ الهمِّ والغمِّ - فأمرٌ إنَّما يعرفُهُ مَن لهُ منهُ نصيبٌ.

* وكذلكَ الحجُّ، وفعلُ المناسكِ، وكذلكَ المسابقةُ على الخيلِ، وبالنِّصالِ، والمشيِ إلى المساجدِ للجُمُعاتِ والجماعاتِ، وحركةُ الوضوءِ، والاغتسالِ، وغيرُ ذلكَ.

وهذا أقلُّ ما فيهِ: الرياضةُ المعينةُ على حفظِ الصحَّةِ، ودفعِ الفضلاتِ، وما شُرِعَ لهُ مِن التوصُّلِ بهِ إلى خيراتِ الدُّنيا والآخرةِ، ودفعِ شرورِهما فأمرٌ وراءَ ذلكَ.

فعلمتَ أنَّ هديَهُ ﷺ فوقَ كلِّ هديٍ: في طبِّ الأبدانِ، والقلوبِ، وحفظِ صحَّتِهما، ودفعِ أسقامِهما، ولا مزيدَ على ذلكَ لمَن قد أحضرَ رُشدَهُ، وباللهِ التوفيقُ»[1].

---

(١) أخرجهُ البخاريُّ (١/ ١٩٩).

(١) «زادُ المعادِ» لابنِ القيِّمِ (٣/ ١٤٥).

قَــد أكسَـبتُهُ رِياضَـةٌ سُوَاسُـهُ فتكــادُ تركُضُـهُ بغيــرِ عنــانِ
كالصقرِ في الطيرانِ والطـاووسِ خَطَرانِ والخَطّافِ في الرَّوغانِ[1]

---

(١) «ديوانُ الحِلِّيّ» (١٣٧).

تنميةُ الرجولةِ عندَ الطفلِ

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ مِنَّا ... على ما كانَ عَوَّدَهُ أبوه[١]

جميلٌ أن تُولِيَ تنميةَ الرجولةِ في شَخْصِ طفلِكَ حالَ صِغَرِهِ، فإنَّ الأدبَ في الصِّغَرِ كالنقشِ في الحَجَرِ ومما يُنَمِّي الرجولةَ فيهم ما يأتي:

١- التَّكْنِيَةُ:

أي مناداةُ الصغيرِ بأبي فلانَ أو الصغيرةِ بأمِ فلانَ، فهذا يُنَمِّي الإحساسَ بالمسئوليةِ، ويُشْعِرُ الطِّفْلَ بِأَنَّهُ أكبرُ من سِنِّهِ فيزدادُ نُضْجُهُ، ويرتقي بشعورِهِ عن مستوى الطفولةِ المعتادِ، ويحسُّ بمشابهتِهِ للكبارِ، وقد كان النبيُّ يُكني الصِّغارَ؛ فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عُمَيرٍ قَالَ: أَحْسَبُهُ فَطِيمًا وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟!» وهو طائرٌ صغيرٌ كان يَلْعَبُ به[٢].

وعَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدٍ قالت: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ صَغِيرَةٌ (الخميصةُ ثوبٌ من حريرٍ) فَقَالَ: مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ، قَالَ: ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ. فَأُتِيَ بِهَا تُحْمَلُ (وفيهِ إشارةٌ إلى صِغَرِ سِنِّها) فَأَخَذَ الْخَمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا وَقَالَ: أَبْلِي وَأَخْلِقِي)، وَكَانَ فِيهَا عَلَمٌ أَخْضَرُ أَوْ أَصْفَرُ فَقَالَ: (يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا سَنَاهْ)، وَسَنَاه بِالْحَبَشِيَّةِ حَسَنٌ»[٣].

ويا لَلّهِ ما أحسنَ تكنيةَ الطفلِ فحينَ تناديهِ بِكُنْيَةٍ محببةٍ يشعرُ بشيءٍ من الإكرامِ

(١) دواوينُ الشعرِ العربيِّ (٤٣/ ٣٣٤).

(٢) رواهُ البخاريُّ (١١٢٩).

(٣) رواهُ البخاريُّ (٢٤٠٩).

وينظرُ لنفسِهِ أنه لا يَصْلُحُ إلا لمعالي الأمورِ وأشرافِها

أُكْنِيْــهِ حــينَ أُنادِيْــهِ لِأُكْرِمَــهُ ولا أُلَقِّبُــهُ والســوأةُ اللَّقَــبُ

كذاكَ أُدِّبْتُ حتى صارَ من خُلُقِي إني رأيتُ مَلاكَ الشِّيمَةِ الأدَبُ(١)

٢- أَخْذُهُ لمجامعِ الرجالِ:

ومِمَّا يُنَمِّي الرجولةَ في شخصيةِ الطفلِ: أخذُهُ للمجامعِ العامةِ وإجلاسُهُ مع الكبارِ؛ وهذا مما يلقِّحُ فَهْمَهُ ويزيدُ في عَقْلِهِ، ويَحْمِلُهُ علىٰ محاكاةِ الكبارِ، ويرفَعُهُ عن الاستغراقِ في اللهوِ واللَّعِبِ، وكذا كان الصحابةُ ﷺ يَصْحَبُونَ أولادَهم إلىٰ مَجْلِسِ النبيِّ ﷺ، ومن القِصصِ في ذلك: ما جاءَ عن مُعاوِيَةَ بن قُرَّة عَنْ أَبِيه قَالَ: «كَانَ نَبِيُّ اللهِ إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَه ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.. الحديثُ»(٢).

لا تُجــالِسْ غيــرَ نَــذْبٍ زانَــهُ العقــلُ ورَاضَــهْ

وتَجنَّــبْ صــاحبَ الجَهْــلِ ومَــنْ فيــه غَضَاضَــةْ(٣)

٣- قُصَّ على الطفلِ قِصصَ الرجالِ:

ومما يُنَمِّي الرجولةَ في شخصيةِ الأطفالِ: تحديثُهم عن بطولاتِ السَّابقينَ واللَّاحقينَ والمعاركِ الإسلاميةِ وانتصاراتِ المسلمينَ؛ لِتَعْظُمَ الشجاعَةُ في نفوسِهم، وهي من أهمِّ صفاتِ الرجولةِ، وكان للزبيرِ بنِ العوامِ طِفلانِ أَشْهَدَ أحدَهما بعضَ المعارِكِ، وكان الآخَرُ

(١) الحماسةُ البَصْرِيَّةُ (٢/ ٧).

(٢) أخرجَهُ النسائيُّ (٢٠٨٨)، وصحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ النسائيِّ (١٧٦٤).

(٣) خريدةُ القَصْرِ (١/ ٦٤).

يلعَبُ بآثارِ الجروحِ القديمةِ في كَتِفِ أبيه كما جاءَتْ الروايةُ عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ، وروى ابنُ المبارَكِ في الجهادِ عن هِشامِ بنِ عُروةَ عن أبيهِ عن عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ: «أنَّه كانَ مع أبيهِ يومَ اليرموكِ، فلما انْهزَمَ المُشرِكُونَ حَمَلَ فَجعَلَ يُجْهِزُ علىٰ جرحاهم»، وقولُهُ: «يُجْهِزُ» أي: يُكْمِلُ قتلَ مَنْ وجَدَهُ مَجروحًا، وهذا مما يَدُلُّ علىٰ قوةِ قَلْبِهِ وشجاعَتِهِ من صِغرِهِ.

فَتَيَّبـةُ أبطـالٌ مسـاعيرُ بالقَنـا　　خضـارمةٌ عنـد اللقـاءِ بُحُـورُ

إذا قَمـرٌ مـنهم مَضَـىٰ لسـبيلِهِ　　بـدا قَمـرٌ يَجْلُـو الظَّـلامَ مُنيـرُ

إذا ما سألتَ الناسَ عن خيرِ مَعْشَرٍ　　أشـارَ إلـيهمْ بالبنـانِ مُشـيرُ(١)

٤- تعليمُ الطفلِ الآدابَ مع الكبارِ:

ومما يُنَمِّي الرجولةَ في شخصيةِ الطفلِ: تعليمُهُ الآدابَ مع الكبارِ، ومن جُملةِ ذلك ما رواهُ أبو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُسلِّمُ الصَّغيرُ علىٰ الكبيرِ، والمارُّ علىٰ القاعِدِ، والقليلُ علىٰ الكثيرِ»(٢).

إنْ أنتَ جالسْتَ الرجالَ ذوي التُّقَى　　فـاجْلسْ إلـيهم بالكمـالِ مُؤَدَّبـا

واسـمعْ حـديثَهمْ إذا هُـمْ حَـدَّثُوا　　واجعلْ حديثَك إنْ نطقْتَ مُهذَّبا(٣)

٥- إعطاءُ الطفلِ قَدْرَهُ وقِيْمَتَهُ:

ومما يُنَمِّي الرجولةَ في شخصيةِ الطِّفْلِ: إعطاءُ الصغيرِ قَدْرَهُ وقِيْمَتَهُ في المجالِسِ،

---

(١) المؤتَلِفُ والمُختَلِفُ (٥٢).

(٢) رواهُ البخاريُّ (٦٢٣١).

(٣) من رحيقِ الشِّعرِ (٥٧).

ومما يوضحُ ذلك الحديثُ التالي: عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَدَحٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ أَصْغَرُ الْقَوْمِ، وَالأَشْيَاخُ عَنْ يَسَارِهِ فَقَالَ: يا غُلَامُ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الأَشْيَاخَ؟ قَالَ: «مَا كُنْتُ لأُوثِرَ بِفَضْلِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ»[1].

يـا مَـنْ تَزَيَّنَـتْ العلـومُ بِفَضْـلِهِ ... وعـلا قِبـابَ مراتـبِ الأُدبـاءِ

صَـرَفَ الإلـهُ عـن المـودَّةِ بينَنـا ... وعـن الإخـاءِ شـماتةَ الأعداءِ[2]

٦- تعليمُ الطفلِ الرِّياضَةَ:

ومما يَنمِّي الرجولةَ في شخصيةِ الطفلِ: تعليمُهم الرياضاتِ الرجوليةَ؛ كالرمايةِ والسباحةِ وركوبِ الخيلِ، جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ أَنْ عَلِّمُوا غِلْمَانَكُمْ الْعَوْمَ[3][4].

٧- تجنيبُ الطفلِ أسبابَ المُيُوعَةِ:

ومما ينمِّي الرجولةَ في شخصيةِ الطفلِ: تَجْنِيبُهُ أسبابَ الميوعةِ والتَّخَنُّثِ؛ فيمنَعُهُ وَلِيُّهُ من رَقْصٍ كَرَقْصِ النساءِ، وتمايُلٍ كتمايُلِهِنَّ، ومَشْطَةٍ كَمَشْطَتِهِنَّ، ويمنَعُهُ من لُبْسِ الحريرِ والذَّهَبِ ونحوِ ذلك مما يَخُصُّ النساءَ.

ومما يُنَمِّي الرجولةَ في شخصيةِ الطفلِ: عَدَمُ الجلوسِ مع النساءِ واللَّعِبِ مع البناتِ.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٢٣٥١).

(٢) البصائرُ والذخائرُ (١/ ٢٩).

(٣) العَوْمُ: السباحَةُ. يقالُ: عامَ يعومُ عومًا. اهـ (٣/ ٣٢٣) النهايةُ. ب.

(٤) رواهُ الإمامُ أحمدُ (٣٢٣) تعليقُ شعيبِ الأرنؤوطِ: إسنادُهُ حَسَنٌ.

٨- تجنُّبُ إهانةِ الطفلِ:

تَجَنَّبْ إهانَتَهُ خاصةً أمامَ الآخَرين وعَدَمَ احتقارِ أفكارِهِ وَشَجِّعْهُ علىٰ المشاركةِ وأعطِهِ قَدْرَهُ وأَشْعِرْهُ بِأهميتِهِ، وذلك يكونُ بِأمورٍ مِثْلِ:

إلقاء السَّلامِ عليه، وقد جاءَ عَنْ أَنَسِ بَنْ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَىٰ غِلْمَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِم[1].

٩- توليةُ الطفلِ مسئولياتٍ تُناسِبُ سِنَّهُ وقُدُراتِهِ:

توليتُهُ مسئولياتٍ تناسِبُ سِنَّهُ وقُدُراتِهِ وكذلك اسْتِكْتامُهُ الأسرارَ، ويَصْلُحُ مثالًا لذلكَ حديثُ أنسٍ ﷺ قَالَ: أَتَىٰ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا فَبَعَثَنِي إِلَىٰ حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَىٰ أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَةٍ. قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ. قَالَتْ: لا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ أحدًا[2]. وفي روايةٍ عن أنسٍ ﷺ قال: انْتَهَىٰ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ وَأَنَا غُلَامٌ فِي الْغِلْمَانِ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَرْسَلَنِي بِرِسَالَةٍ وَقَعَدَ فِي ظِلِّ جِدَارٍ - أَوْ قَالَ إِلَىٰ جِدَارٍ - حَتَّىٰ رَجَعْتُ إِلَيْهِ.

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ غُلامًا أَسْعَىٰ مَعَ الْغِلْمَانِ فَالْتَفَتُّ فإذا أنا بِنَبِيِّ اللهِ خَلْفِي مُقْبِلًا، فَقُلْتُ: مَا جَاءَ نَبِيُّ اللهِ إِلَّا إِلَيَّ، قَالَ: فَسَعَيْتُ حَتَّىٰ أَخْتَبِيءَ وَرَاءَ بَابِ دَارٍ، قَالَ: فَلَمْ أَشْعُرْ حَتَّىٰ تَنَاوَلَنِي فَأَخَذَ بِقَفَايَ فَحَطَأَنِي حَطْأَةً (ضَرَبَهُ بِكَفِّهِ ضربةَ مُلاطفةٍ

(١) رواهُ مسلمٌ (٢١٦٨).

(٢) رواهُ مسلمٌ (٢٤٨٢).

ومُداعبةٍ) فَقَالَ: اذْهَبْ فَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ: وَكَانَ كَاتِبَهُ فَسَعَيْتُ فَأَتَيْتُ مُعَاوِيَةَ فَقُلْتُ: أَجِبْ نَبِيَّ اللهِ فَإِنَّهُ عَلَىٰ حَاجَةٍ[1].

١٠- استشارةُ الطفلِ بما يناسِبُ مستواهُ:

جميلٌ أنْ تستشيرَ الطفلَ فيما تَعْلَمُ أنه أمْرٌ طَيِّبٌ وتعلمَ أنه يميلُ إلىٰ القولِ به وهكذا تستشيرُهُ في كُلِّ ما يميلُ إليه من الخَيْرِ ليتعلَّمَ الاستقلالَ بقرارتِهِ وتنميةِ شخصيتِهِ فما يبلغُ سِنَّ الرُّشْدِ إلا وقد أصبحَ رجُلًا بمعنىٰ الكلمةِ وكثيرٌ من الناسِ يَغْفَلُ عن هذه الجوانِبِ من التربيةِ ولْيَحْذَرْ الأَبُ أن يُسَفِّهَ رأيَ ولدِهِ أو يَسْخَرَ منه فإنَّ ذلك صادٌّ له عن النبوغِ المبكِّرِ.

١١- تعليمُ الطفلِ الجرأةَ:

- تعليمُهُ الجرأةَ في مواضِعِها ويدخُلُ في ذلكَ تدريبُهُ علىٰ الخطابةِ.

ويكونُ ذلك بالتدرُّجِ ويحرصُ علىٰ الاختصارِ فلا تزيدُ الخطابةُ علىٰ عَشَرَةِ أسطارٍ.

١٢- مَنْعُ الطفلِ من الدَّعَةِ والتَّرَفِ:

الدعَةُ: هي الراحةُ، وخَفضُ العيشِ وهي مفسدةٌ للطفلِ أيُّ مفسدةٍ فَيُمْنَعُ من ذلك، كما يُمْنَعُ من التَّرَفِ والكَسَلِ والرَّاحةِ والبِطالَةِ، فالنِّعَمُ لا تدومُ لِأَحَدٍ كما قِيلَ:

ألا تلكَ المَسَرَّةُ لا تدومُ ... ولا يَبقى على الدهرِ النعيمُ[2]

---

(١) (حَسَنٌ) أخرجَهُ أحمدُ (٢٦٥١) وقال: شعيبٌ الأرنؤوطُ: إسنادُهُ حَسَنٌ، رجالُهُ ثِقاتٌ رجالُ الشَّيْخَيْنِ غيرَ أبي حَمْزَةَ.

(٢) الإيماء إلىٰ زوائد الأمالي (٧/ ٥٦٦).

١٣- منعُ الطفلِ مجالِسَ اللهوِ والباطِلِ:

• تجنيبُهُ مجالِسَ اللهوِ والباطِلِ والغِناءِ والموسيقىٰ؛ فإنها مُنافيةٌ للرُّجولَةِ ومناقِضَةٌ لِصِفَةِ الجِدِّ(١).

١٤- التشجيعُ:

جميلٌ أنْ تمدَحَ وَلَدَكَ وتُثْنِيَ عليه خيرًا وتُشَجِّعَهُ كُلَّما أَحْسَنَ أو أبدَىٰ رَأيَهُ السَّدِيدَ أو حَصَلَ منه تعليقٌ علىٰ كلامٍ طيبٍ أو فِعْلٍ حَسَنٍ بكلامٍ موفَّقٍ أو رأيتَ منه حُسْنَ التصرفِ مع الأرحامِ أو الضيوفِ أو قامَ بخدمةٍ لهم من تلقاءِ نفسِهِ فَإِنَّ الثناءَ عليه هنا يساعِدُ علىٰ تنميةِ الرجولةِ المبكرةِ لَدَيْهِ.

عن عبد اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ رأىٰ في النومِ كأَنَّ مَلَكَيْنِ أخذاهُ فَذَهَبا بِهِ إلىٰ النارِ، فإذا هي مطويَّةٌ كَطَيِّ البِئْرِ، وإذا لها قَرْنانِ، قال: وإذا فيها أُناسٌ قد عَرَفْتُهُم، فَجَعلْتُ أقول: أعوذُ باللهِ من النَّارِ، قال: فَلَقِيَنا مَلَكٌ آخرُ فقال: لَمْ تُرَعْ، قال: فَقَصَصْتُها علىٰ حَفْصَةَ، فَقَصَّتْها حَفْصَةُ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «نِعْمَ الرجُلُ عبدُ اللهِ لو كان يُصَلِّي من اللَّيلِ». فكانَ بَعدُ لا ينامُ من الليلِ إلا قليلًا(٢).

فتأَمَّلْ تأثيرُ المَدْحِ وأثَرَهُ في التربيةِ علىٰ الخيرِ فقولُهُ: (نعمَ الرجُلُ عبدُ اللهِ لو كان يقومُ الليلَ) هو الذي جَعَلَ عبدَ اللهِ لا ينامُ إلا قليلًا بسببِ قيامِ الليلِ فالتربيةُ بالمدْحِ يَغْفَلُ عنها كثيرٌ من الناسِ بل وبعضُ الناسِ يُرَبِّي أولادَهُ بالقَدْحِ فيهم أو الدعاءِ عليهم

---

(١) انظر: كيفَ تكونُ رَجُلًا (٢٣ - ٢٧) بتصرُّفٍ.

(٢) رواهُ البخاريُّ (١١٢١ - ١١٢٢)، ومسلمٌ (٢٤٧٩).

فآلت بهم التربيةُ إلىٰ حيث ألقَتْ رحلَها أم قَشْعَمِ.

وما أحسنَ قولَ الشاعِرِ:

لَمْ يَبْنِ للدُّنيا أبٌ كَبِنائِهِ خَلْقَ الرجولةَ في فتاهُ اليافعِ

الخاتمة

فضلُ الرجالِ علينا أنْ شيمتَهمْ جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهانُ(١)

بعد هذا التَّطوافِ مَعَكِ في بستانِ الرجولةِ وروضتِها الغناءِ تبيَّنَ لَكَ أنَّ الرجولةَ معنىً جميلٌ كُلٌّ مِنَّا يحرِصُ عليها لِما لها من منزلةٍ ساميةٍ.

وقد اجْتَهَدْتُ في تقريبِها، وتسهيلِها كجوادٍ روَّضْتُهُ لك رياضةَ الأسَدِ لتمتَطِيَهِ فإذا ساوَمَكَ أحَدٌ علىٰ النزولِ عنه، فلا تستامَ به فإنكَ لنْ تزالَ مُبجَّلًا مُهابًا حتىٰ تَنْزِلَ منه إلىٰ لَحْدِكَ – إن شاء اللهُ –.

---

(١) ديوانُ ابنِ الرومي (٤٤٩١).

الفهرس



صدر حديثا
لأبي عبد الله فيصل عبده قائد الحاشدي
• مواعظ النساء.
• الابتلاء السنة الباقية.
• عقيدة المسلم.
• حسن الجوار خلق الأبرار.
• صناعة الرجال.
• مراعاة المشاعر.
• أسرار التوفيق.
• جرح المشاعر.
• جنة الرضا.
• السكينة الخلق المفقود.
• صناعة الحفظ.
• جفاف المشاعر.
• دليلك إلى الفراسة (الطبعة الثانية منقحة ومزيدة).
• المواعظ الذهبية (زاد للخطباء والوعاظ).
• الفريد في خطب التوحيد.
• البصيرة في خطب السيرة.
• ذوقيات، حتى نرتق بأخلاقنا.
• دفء المشاعر في الحياة الزوجية.
• صناعة الكتابة (قواعد وأصول) (يصدر قريبا).
• أعذب الكلام في صلة الأرحام (يصدر قريبا).
• سلامة الصدر راحة البال ونعيم الآخرة (يصدر قريبا).
• الجامع في خطب الكبائر (يصدر قريبا).
• العسل المصفى في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام (تحت الطبع).
داركم المتميزة
دار القمة للطباعة والنشر والتوزيع
دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع
١٢-١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٣٦٩٦ ت: ٥٢٢٢٠٠٢
دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة - مقابل بنك سبأ - شارع رداع
محافظة ذمار - اليمن جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥
aleманbookstore@gmail.com
dar_aleman@hotmail.com
ISBN: 978-977-372-115-2
9 789773 721152